

رواية



غراب البين

مباس مدحت البياتي

غُرَابُ الْيَمِينِ

غُرَابُ الْبَيْنِ

رواية

عباس مدحت البياتي

إهداء

**أهدي رواية غراب البين إلى الغراب والعصفور ، وإلى
القارئ العزيز.**

ملاحظة المؤلف:

الأحداث العامة في هذه الرواية مستمدة من الواقع، أما التفاصيل التي تستدعي التوضيح أو التوسع أو الخيال والتعمق وإثارة الفكرة، فهي من ابتكار المؤلف. أُضيفت لتمرّح النص بعداً أدبياً وتشويقاً إلى جانب طابعه السردى، ولتضيء جوانب الرواية من زوايا متعددة. إن الغاية ليست تغيير الحقيقة، بل إظهارها في صورة أكثر إشراقاً، تمنح القارئ تجربة فنية متكاملة تجمع بين السرد الواقعي والخيال الأدبي.

الشاهد:

لم أكتب هذه الرواية لأنني أحببت الحكاية، بل إنها كتبت نفسها بنفسها... وما وجودي هناك، حين أسدلت الستارة الأولى إلا صدفة قادتني للحكاية، وحين فاحت رائحة والتي لم تكن عطراً، بل قيحاً بيننا، غدا الغل وعداً وادّعاء.

لم أكن البطل، ولم أكن الراوي، كنت مجرد طارئ عبر الحدث، في منتصف المسير التمسست جمرة اللحظة بقلبي وعيني ويدي. هناك عرفت لون الكذب، ورأيت من ادّعى وشهد على نفسه، لكنه آثر أن يُصغي للعقل حتى النهاية.

أنا الشاهد، وهذه شهادتي

الفصل الأول

1- قاعة الاختبار

في صبيحة يوم الأربعاء 1992/06/03، انكسرت الجرة التي كنت أعتني بها وأتأملها بزهو وهي تبرق أمام عيني كأصيصٍ تراثي بعيدًا عن أعين المغرضين والمتلصصين بها. تلك الجرة التي صنعتها بفكري ويدي، وقدّرت قيمتها بقدري وسلوكي وتعليمي وثقافتي.

بانكسارها كان قد تبدى ماؤها، وتبدّد سرّها بين الملاء على حين غفلة مني، حتى تحولت قصتها إلى شائعة تتناقلها الألسن، صارت علامة فارقة في جدول حياتي دون تخطيط مسبق، كأنها قدرٌ أعلن عن نفسه في لحظة سبق لم أنتبه عليها.

ذلك اليوم الأشتر، شديد الإثارة في حياتي، لم يكن اعتياديًا بأي حال. وقع فيه ما لم يكن بالحسبان، وما حرف مجرى علاقتي بالأستاذ حسن وإدارة متوسطة خائفين التي كنتُ منتسبًا لها. الحدث فرقع فرقة أربكتني وأربكت المحيطين بي، لما خلفه من زيف وتظاهر استقطب اهتمام الزملاء والأصدقاء والطلبة والمعارف، ولما حمله من أبعاد اجتماعية وسياسية ودينية ونفسية غير متوقعة، جاءت بلا تخطيط أو استعداد.

وما زاد الطين بلّة، أننا كمدرسين كنّا نُشرف حينها على قاعة امتحانات البكالوريا للصف السادس العلمي في أول يوم للاختبار، حين امتد أثر الفوضى التي خلفها ذلك التصرف

الأرعن من رجل الأمن إلى أروقة الثانوية، ومنها إلى الشارع، فالمدينة، فالمحافظة بأكملها.

الهالة التي خلقتها تلك الحادثة، بما فيها من لغط وسخط، جعلت مني بوقاً مسموعاً دون أن أنطق بحرف، ومعروفاً على مستوى الشارع والمدينة دون أن أبذل جهداً. في لحظة عابرة، توهج صيتي في مجالس جلواء وخانقين والسعدية، لما للحدث من ثقل ومعنى وحمق ورعونة، على المستويات الشخصية والاجتماعية والنفسية.

كان يوماً عبثياً في كل تفاصيله، يوماً فائق الغرابة لا يشبه ما قبله ولا ما بعده. فيه ظهر ذلك المارد الأغبر، بسلوك متعجرف استقاه من طبيعة وظيفته كرجل أمن. كان فظاً، بطوله الفارع وصوته الجهوري الأجش حين اقتحم مبنى المدرسة باحثاً عني، حاملاً بين ثنايا صراخه قدراً مُعلَباً لا يتوقعه أحد.

كان حازماً في سلوكه، متقصداً أن يوجّه سهامه نحوي، مستخرجاً حضوره من ظنون غامضة، ومن ذاكرة دائرة الأمن، ومن عقل غراب البين، ليجعل وجهي مسرحاً علنياً أمام الجميع.

دخل في فضاء الرواق بشكل عبثي دون أستاذان، كان جلفاً، لا يعرف للدبلوماسية شكلاً أو معنى، ولا للذوق حدوداً. لم يراعٍ مقامي كإنسان بين التلاميذ، ولا احترام كينونتي كمدرّس

بين الجدران التي عرّفتني قبل أن يعرفني هو. عندها سلّمني رسالته جوفاء كبوقٍ أعلن مضمونها أمام الجميع.

كان دخوله أشبه بالسيل اجتاح خصوصية رهبة الاختبار، بان أقرب إلى الهمجية منه إلى المهمة المكلف بها. لن أنسى تلك اللحظة التي اقتحم فيها بوابة المدرسة ككذيفة طائشة حطّت وسط قاعة الامتحان، لتدوي بعنف وهو ينادي باسمي بأعلى صوته: من هو **عصام أحمد**؟ مثيراً انتباه الأساتذة والطلبة، كأن قدرني أن أكون علكة في أفواه الجميع بسبب سوء سلوك ذلك الأرعن.

كنت واقفاً بجانبه، أراقب بهدوء سير اختبارات الصف السادس العلمي في القاعة الأولى، وكانت المادة اللغة الإنجليزية. فجأة، لفظ اسمي بصوتٍ جهوري مرّق جدار السكينة والأناقة، وقطع سلسلة أفكار التلاميذ وكل من كان حاضراً في المدرسة، كأنه إعلان رسمي يخص الجميع.

دخل من عتمة غامضة، بطوله الناشز وسلوكه الغير محسوب، ووجهه الكالح المشوّه بنزق السلطة وتعاليتها. بدا كأنه شخصية خرجت من حكايات ألف ليلة وليلة، يحمل في حضوره غروراً سفيهاً ودخولاً متهكماً، وفي نبرته غطرسة من اعتاد أن تُفتح له الأبواب بلا إذن، رغم أنه لم يكن سوى شرطي بلا رتبة.

كان ينتعل نعلًا إسفنجيًا ذا سيرين، ويرتدي قميصًا ناصع البياض بأكمام مزررة بأزرار كريستالية سوداء، وبنطلونًا

فاتحًا بلون السماء. بدت ملابسه منكشمة على جلده، فيما رائحة الخمر تفوح من شذقيه، تشي بفوضى ليلية لا تزال أحداثها تدور في رأسه. ربما كان نائمًا بملابسه، ربما سكر حتى أدركه الكرى فانكشت عليه ثيابه.

في تلك اللحظة شعرت أن الهواء قد انكمش من حولي، تبخر، وأسقط شمعة الألق بداخلي. كأن هذا اللقاء القصير، الذي لم أستعد له، كان معدًا له مسبقًا، حيث أدرج اسمي في قائمة اختيارٍ غامضة، دون أن أعلم.

ربما قضى ليلته ساهرًا في واجبٍ أنهكه، فنهش الرهق جسده، وعفص ملامح وجهه الجهمّة التي غلب عليها الأرق، حتى سلبت منه هناة الصباح. بدا مبهدلاً، بشعرٍ منفوش ولحيةٍ غير منسقة، وقميصٍ متجعّد، وبنطالٍ منكش. أزرار الكريستال على أطراف أكمامه كانت تلمع كأنها تعتذر عن وجودها فوق جسدٍ منهكٍ مهان. وجهه شاحب، كأن بريق الألق قد انسحب منه، تاركًا خلفه فراغًا يشي بليلاً طويلاً لم ينتهِ بعد.

هجستُ أن الرجولة عنده تُقاس بالفوضى؛ ربما أضاع بهجته بين كؤوس الخمر، أو قست عليه نوبات الليل، أو لعله ببساطة كان مهووسًا بسلطةٍ يتوهم أنها تمنحه الهيبة. هكذا كان يبحث عن صورته في وجوه الناس، من باب النهي الملطّخ بالسلطة، والهيبة التي لا أساس لها. تخلفه الثقافي صوّر له أشياء لا تعدو أن تكون خيالاً.

ربما كل تلك الاحتمالات اجتمعت فيه، وكلّها واردة. لعله بعجالة الأمر المكلف به دفعته إرادته إلى أن يأتي للمدرسة باكراً وهو غير مكترث بشياكته، غير مبالي بغبرة الأرق المتجهمة في وجهه، كأنه لم يغسل أرق النوم عن وجهه. دخل قاعة الاختبار برعونة كالسيل الجارف، حمل بمجره فكر الأساتذة والطلاب وذلك السكون الطاعى على القاعات. كان عازماً على إيصال الرسالة المكلف بها في أوانها بطريقته الخاصة التي تنطبق عليه وتركب سلوكه. فمعظم رجال الأمن يتصرفون بعبثية مدجّنة، لا يحترمون بها المواطن، لشعورهم بالنظرة الفوقية التي تدربوا عليها، دون أن تكون في الحقيقة، إذ إن معظمهم لم يكملوا الدراسة التأسيسية، وربما يُطلب منهم استخدام هذا الأسلوب الوقح ليرهبوا البسطاء من الشعب.

المهم أنّه جاء دون أن يهتم بقيافته، واثقاً تماماً بأن لا أحد يجرؤ على توجيه نقدٍ له. ربما لم ير ذاته في المرأة؛ فلو نظر إليها لرأى القرف المتجهم في وجهه، ولنبهته على تهلّهل قيافته، وقالت له: اغسل وجهك أيها الغثيث، أزل عنه سُكر الليل وعبثه المتراكم، ومشط شعرك لتستقبل بهجة الصبح.

لقد حلّ بيننا بشاربه الغليظ وصلعته الجانبية اللامعة كملك الموت، جاء ليفجّر قنبلته في وسط القاعة، ثم يغادر بهدوء وسلاسة دون أن يلتفت خلفه، غير عابئ بمشاعر التلاميذ والأساتذة، ولا بمشاعري أنا بالذات. دخل كقدرٍ أعمى لم يقدر الكلفة التي كُلف بها، فكسر الجرة دون أن يراعي قيمتها وأناقته، أو يترفع بالذوق والكياسة في سلوكه.

حين دخل القاعة، لم يكن أحد ينتظر دخوله. انفتح الباب على مصراعيه، تجمد الهواء للحظة، وكأن القاعة تَلَفَّظت أنفاسها الأخيرة. توقَّعته ولي أمرٍ مضطرب، جاء مشفقًا على ابنه، يحمل في عينيه قلقاً أبوياً، جاء يبحث عن بصيص طمأنينة في قاعة الاختبار... هكذا توقعته؛ لكنه دخل كالنور للقاعة، داهس البروتوكول وقيم الاحترام وحرمة الامتحان تحت نعليه.

الجمود كان واضحاً في هيئته الباهتة؛ لم يُخَفِ شيئاً من فوضى روحه، بدا كشجرة تتلاعب بها الرياح. بدخوله خرق الصمت الممتد في القاعة بعبثٍ فجّ، كأنه ذلك الطنطل الذي كنا نهابه صغاراً في ليالي الشتاء المظلمة، حين كنا نهجس به ظلاً يتحرك على جدران الحيطان ونحن نلعب في المحلة، وهكذا علَّمنا أهاليّنا كي لا نبتعد عن حدود البيت.

وهكذا حلّ ذلك المارد بيننا دون موعد، أهوج، ككابوس يلاحقنا. يا إلهي... لقد عاد، لكن ليس في الحلم ولا على جدران البيت، بل في مؤسسة تربوية ذات لوائح ونظم. جاء متجاهلاً الإدارة والمدير والمعلمين وحرمة الامتحان، دون أن يبرز بطاقة تعريف أو ينطق بسؤال، تخطى الخطوط الحمراء بلا احترام.

كان المشهد أشبه بلقطة سينمائية تتجاوز مجرد اقتحام المكان؛ مشهد حطم هيبة القاعة، وزرع القلق في صدور التلاميذ والأساتذة، وأيقظ في داخلي أسئلة لم أتوقعها، أنا الذي حسبت أنني كبرتُ على الخوف من الطنطل.

من الثابت في منهج وزارة التربية في العراق بأن يوم 6/3 من كل عام هو يوم اختبارات مرحلة البكلوريا للصفوف المنتهية (التاسع والثاني عشر) في جميع أنحاء العراق من كل عام، وكانت مدرستنا قد كلفت بمراقبة طلاب ثانوية السعدية للبنين في مدينة السعدية. وكنت خلال المراقبة مكلف بمراقبة القاعة الأولى، الكائنة في مقدمة الممر قرب مدخل الباب الرئيسي لمدخل المدرسة.

كباقي المدرسين كنت منشغلا بمراقبة القاعة الإمتحانية، والموزعة طاولاتها في عراء الممر لتجاوز شدة حر الصيف، وزعت الطاولات على صفين يفصل بينهما ممر بعرض متر، في ممر عرض الكلي بحدود مترين.

بناية المدرسة تتكون من طابقين على شكل حرف L الإنجليزية، تحيط بها من الجهة الخلفية بساتين النخيل وأشجار الفواكه الحمضية من برتقال وليمون ورمان، تلك المتدثرة بظلال النخيل الباسقة، فيما واجهة البناية تطل على الشارع الرئيسي المتجه إلى بغداد.

كان الاختبار قد بدأ للتو، الأسئلة وُزعت منذ دقائق، والسكون يخيم على أرجاء المدرسة قاطبة، كأن اتفاقاً غير معلن وقع بين البشر والجماد والرياح والشجر. بدا الهواء ساكناً، توقف عن الحركة احتراماً لقدسية اللحظة.

ساد الأجواء صمت عام، تمسكت به الطيور والبشر، فيما الرياح خنعت لقدسية الامتحان، فلم نسمع لاغية ولا حفيف

شجر. الكون كله كان ينصت لهمسات التلاميذ وأنفاسهم المضطربة وهم يحاولون فك عقد الأسئلة.

السكينة طاغية، كست الجدران بحلي الصمت، لا يُسمع فيها سوى مجاهرة الأقلام وهي تخط الأفكار على الورق. ولشدة الصمت والسكون، أجزم أننا كنا نسمع نبضات القلوب تحت وطأة التوتر. لم يكن ذلك الصمت عاديًا، بل كان يولد من قدسية الامتحان، حيث تصبح كل حركة محسوبة بفعل وردة فعل، وكل شهيق وزفير مشكولًا بإرهاصات الطالب.

ونحن نعيش تلك الحالة؛ فجأة انفتح الباب دون طرق، ومع انفتاحه دخل رجل أهوج كأنه خارج لتوه من المقبرة. لم يكن أستاذًا ولا تلميذًا ولا مسؤولًا تربويًا، ولم يمثل هيئة ولي أمر، لكنه اقتحم المكان بنظرات لا تعباً بمكان أو زمان، دخل دون أن يعير أهمية لشيء.

كأنه تسلل من حكايات أسطورية قديمة، أفلت من ظلال الجدران ليخرق نظام المدرسة وطمأنينة الطلبة، حاملاً وراءه قاطعًا يخفي مصيبة. لذا أصغى إليه الجميع وهو يقطع تلك اللحظة المقدسة – لحظة الامتحان – بفعله الأرعن.

كانت الأوراق ما تزال ناصعة، تعكس وهج الترقّب، والأقلام تنهّجى الأفكار بخجل. عندها سكن كل شيء؛ تلاشى الهواء وكأن النوافذ قيدته، فلم نسمع رفرقة طير ولا صفير ريح، كأن الحياة توقفت عند محراب قاعة الاختبار، عرفانًا بهيبة

الامتحان. ألم يقل نابليون: "ألف ساحة معركة ولا قاعة امتحان؟"

المدرسة التي لطالما كانت مزيجًا من الضجيج وصراخ أجراس الصباح، غدت الآن معبدًا للصلاة؛ كل شيء فيها بات ينصت لخلجات قلوب التلاميذ، وهم يخطّون إجاباتهم على الورق كما يخطّ القدر كلماته.

لا جلبة في الممر، لا خشخشة أوراق، ولا صرير أبواب كما اعتدنا في الأيام العادية. حتى الصخب الذي كان يحلّق بين الجدران في الصباحات المعتادة غادرنا. وحده ضجيج العجلات في الشارع العام كان يخرق ذلك الصمت، ورغم بُعدِه ظلّ يطرق الأذن كشيء من العبث. لكنه لم يفسد السكون، بل أكّده وزاد من رهبة اللحظة..

الكل كان منصتًا لهمسات ذاته، مجتهدًا في عمله، منشغلًا بإنهاء مهامه في الوقت المناسب، وبالذات أولئك الطلبة. كانوا غارقين في تفسير ماهية الأسئلة، يتسلقون صعوباتها، ويفكّكون حيثيات الفكرة، طامحين إلى نيل أعلى درجات التشريف التي تؤهلهم لدخول الجامعة التي يحلمون بها.

الأعصاب مشدودة لإنجاز الواجب على خير: الطلاب، الإدارة، المدرسون، عمال الخدمة، المنظفون، الحرس... الجميع كان يضيف جهده ليظهر الاختبار بأبهى صورة، ويسهم في إضفاء جو من الهدوء والسكينة على سير الاختبار، حتى نسائم الصبح قدرت الظرف حين توارت خلف حاجز

الاحتراس والسكون، حينه لو سقطت ورقة توت من غصن شجر لاستشعرنا بها.

كنت أهجس أن الزمن قد توقف عن الجري تمامًا؛ فقد بتُّ أسمع شهيق وزفير التلاميذ لشدة الانضباط والتركيز الذي يحيط بهم وهم يواجهون بصبر ورقة الاختبار. أضيف إلى ذلك حسن إدارتنا لسير الامتحان، فتمضي الأوقات دون تعقيدات أو مشاكل.

كنتُ أهجس بهسيس القلب وهو يندلع في دواخلهم، يريد مشاعرهم الفيّاضة وهم يحاولون سبر أغوار الأسئلة كمن يفك طلاسم خريطة قديمة ليؤكد الاتجاه السليم. لم تكن لغة الامتحان صعبة فحسب، بل كانت لغة الخوف والتأويل؛ فمهما كان الطالب واثقًا من نفسه، لا بد أن يرتبك وتهتز ثقته بنفسه. كانت حرارة النفوس تطفو في الهواء، وبتُّ أسمع خفقان القلوب وهي تجتهد، ورجفة الأصابع حين تكتب ثم تتردد.

غرقنا في سكون مهيب، لا صوت يعلو فوق ارتجاف الأقلام وهي تبحث عن الكلمات بين أغوار الفكر. لا حركة سوى همسات الذهن المتوجس من تفسير أسئلة اللغة الإنجليزية. اللحظة كانت مشدودة كوتر، مشبعة بالترقب، حتى أنفاسنا خفتت كي لا تُربك صفاء الأذهان.

وعلى حين غفلة إنهار ذلك الصرح حين دخل ذلك المارد وسطنا. دخل من المدخل العين الرئيسي، القريب من القاعة التي أشرف عليها، تراءى لي بهيئة الباعة المتجولين أو

صيادي السمك وهم خارجون من البحر. كان مجرد من الشياكة، أحواله الطبيعية لفلاة قاحلة بحساسة أعمالهم التي تتطلب السرية. بعنجهيته؛ كأنه ود سد ثغرات النقص المشعبة بها شخصيته، أشعر بهؤلاء مساكين، كمرضى نفسيين يفرضون انفسهم على المجتمع، همهم في عملهم كسب ثقة أسيادهم ليس إلا.

طبيعة أعمالهم هي ملاحقة الآخرين، دون مراعاة الجوانب الإنسانية والنفسية والأدبية والاجتماعية والثقافية، تهجس بهم كالكلاب المسعورة منزوعي الرحمة، يمتازون بوفاء أعمى ومطلق لأسيادهم..

باختصار، كان ذلك الشبح رجل أمن مكلفاً من دائرة الأمن بإيصال رسالته إليّ. دخل القاعة بعنجهية واضحة، منادياً باسمي بأعلى صوته الجهوري، كأنه ينفخ في قرنة ليجعل الصوت يتضخم حتى يصل الجميع:

— من هو الأستاذ عصام أحمد؟

توقفت الحياة للحظة. انقطعت خيوط التركيز، وتبعثرت العقول على الأرض كأوراق ممزقة. تحولت الحالة من سكون ثابت إلى عبث وفوضى، وأثر سلوكه على الجميع، بما فيهم التلاميذ الذين انقطعت سلسلة أفكارهم، فانتقلوا من موقف التركيز والتفسير إلى موقف الفوضى والتفرج. عقدة لا تخصهم، لكنهم انجذبوا إليها، ينظرون إليّ بنظرات استفهام، كأن شيئاً جلاً وُلد أمامهم فجأة، فجذب أصغاءهم.

بعد استفساره بأسلوبه الفظ، كان لا بد أن تتبعه لاحقة ما، خاصة أن طريقة الاستفسار المتشنجة توحى بأمر هام، فيه شيء من الأهمية والتشعب والإرباك والغموض. لذا سعى الجميع إلى تتبع تلك اللاحقة بشغف وفضول، وبالذات أنا، أنا المقصود من تلك اللاحقة، أنا صاحب تلك الفتنة التي أوقدت النار في عيون الجميع لمعرفة ما خفي من الحكاية.

انتبه له الجميع، بضمنهم مدير المدرسة الأستاذ محمد، الذي كان يتابع الإشراف في القاعة الثانية القريبة مني. أدرك هيئة الشرطي وفهم المضمون الذي جاء به. عندها أجبت به بنبرة حادة مستفسراً:

– خيراً أخي، لماذا تصرخ؟ أنا الأستاذ عصام، ما الأمر؟

أجاب بنبرة مغرورة، بنبرة الواثق، وبهدوء يحمل استعراضاً للسلطة أكثر من رسالة. وقوفه لم يكن مجرد تبليغ، بل استعراضاً مبطناً عليّ أن أصغي له وأتبع إرشاده، ولسنا في حقل التربية لنجادل بعضنا... قال لي:

– أخي الكريم، أنت مطلوب في دائرة أمن ديالى، عليك التواجد قبل الساعة الثانية عشرة ظهراً. وما على الرسول إلا البلاغ.

وما أن أنهى رسالته حتى هجست بحالتي قد أفرغت جبروتها ومحتواها من جهد وحيوية وجذق ودأب وسعي ونشاط وألق، انقلبت أحوالي رأس على عقب، وكأنه قد طعنني بنصل الغدر

فأفشى طاقتي كلها كبالونة شكت بدبوس فأزفرت محتواها،
لقد أمتص حيويتي تماما كأني لم أكن هناك..

قلت له باستغراب شديد وكأنَّ الخوف قد خزق القلب وشلَّ
المخ والأطراف:.....

- أنا؟؟؟؟.. لم؟؟؟...

سقطت الدهشة على وجهي، حيرة صماء كبلتني، صنبور
الفرع تفجر في أوتار صوتي، الرهبة سرحت بنظرات عيني،
ما عدت أتحرك عن موضعي، الضعف والهوان ماجا كالدّم
في عروقي، شنجت الأعصاب، جعلني أتخبط في سلوكي،
بان عليَّ الاستهجان من صعقة الخبر المر، كجريح بات يللم
أطرافه. طرأت علامات الاستفهام والاستهجان بشكل واضح
على ملامح وجهي، تحولت بلحظة من حالة زهو وألق لحالة
فضة، سمجة، متشنجة، كمن لونَ وجهه بصبغة الكرم
والزعفران...

شعرت بطعنة غدر، لذا خرجت نغمة الاستفسار من فمي
متهتكة، باردة، وكأنَّ في كلماته سم لاح جسدي، أطفأ النور
بذاكرتي وقلبي. فقلت له:....

- أنالماذ؟ ... ماذا فعلت؟....ماذا جنيت؟..

بذلك الدبوس كانه قد خزق عالم السكون والصمت داخل قاعة
الاختبار، فانبرى الجميع يستفسر في داخله عن حجم الكارثة
التي افتعلتها، ليأتي ذلك الرجل الفض يفضح سري أمام

الاساتذة والتلاميذ. علما خوفي كان طبيعيا جدا، حيث من يدخل دائرة الأمن ن ينجو حتى لو كان زائرا؛ ربما لن يخرج منها إلا وفيه عاقبة معينة. كنتُ مغثوثا من الرهبة.

بمجرد أن أنهى مأموريته، خرجتُ من دائرة الصمت لعالم الفوضى والاستهجان، صرت أرى كم الاستفسارات تفيض في محاجر المحيطين بي، بعض النظرات لمستُ فيها شك وريبة بقوام سلوكي، لن استطيع تبرئة نفسي أمامهم. كأني افعلتُ جناية ما ولا أصرح بها من وجهة نظرهم.

بكلماته المسمومة أراق حفيظتي مثلما أراق حفيظة الآخرين، كان ممكن أن يكون أفضل سلوكا مما كان، يكون أسهل وأرقى سدادا.. كان ممكن أن يبلغ مدير المدرسة بكل هدوء، ومن ثم أستدعى من قبله لغرفة الإدارة ليلبغني عن أصل العقدة والمشكلة، وبذلك يحفظ كرامتي وكياني من سخط الألسن والعبيثة جاء بها والتي أضحت تلاحقني، كان بإمكانه أبعادي عن دائرة الشك التي نكلت بمصداقية سلوكي أمام الجميع من معارفي واصدقائي.

بهذه الوائق رد على استفساري وهو صاعر الخد قائلا:----

- ما على المأمور إلا البلاغ.. لا تتأخر، التأخير ليس في صالحك.

أخبرني بذلك الأمر ثم عاد من حيث أتى مغادرا المدرسة، تاركا خلفه فوضى وسخط في بدني، الذهن يعت بخطواته في

معمعة التفكير والتحسب، بحيث صرت أجمع واطرح شتات الأفكار دون أن أصل لنتيجة تشفي غليلي.

إذاً كان هذا الشخص هو رجل أمن، مهمته إيصال رسالة عاجلة لي، جاء يبلغني بأخطاء أو خطأ ما قد ارتكبته دون أن أعلم نوع الخطأ، أو قد أكون أخطأت ونسيت خطئي دون أن أتذكر شكل الواقعة التي جنيتها، فالأمن لا ينسى ولا يخطئ.

مستحيل أن يأتي مخطئاً أو جزافاً ببلاغه دون أن يكون مدفوعاً ومتأكداً من مهمته. دون أن تكون هناك شرارة خطيرة أحدثتها بنفسني تمس أمن الدولة، لن يتكلم إلا من خلال مصدر موثوق، مهمة الأمن هو الحفاظ على أمن الدولة من العابثين، حيث هم يعرفوا تفاصيل حياتنا أكثر مما نعلم، يتبعون أخطائنا بتجسس وتحسس وبترنم دقيق.

في لحظة، انقلب كل شيء. ما عدتُ واقفاً في قاعة الامتحان، ولا مشرقاً على تلاميذ يطاردون المعاني في نص إنجليزي صعب؛ بل وجدت نفسي منفصلاً عن كل شيء إلا نفسي، أنزلق بصمت لداخل عمق بعيد، باحثاً عن سر العقدة، في متاهة داخلية موحشة، متأملاً أن أجد فطنة تدلني عن غلطة قديمة اقترفتها، عن أي ثغرة نسيت أن أسدّها، عن كلمة قتلها في غير وقتها، عن أي همسة همستها أغشت عيون لا ترحم.

فتنشت في رفوف الذاكرة كمن يُقلب دفاتر حسابات قديمة، يبحث عن سطر مهتر، عن حسابات خاطئة، عن فلتة غير مقصودة. لم أجد سوى هواجس ليس لها محل في العقدة.

وأمام ذلك الغريب البليد، الذي اختار أن ينفذ رماد الشك على رؤوس الجميع. عندها شعرت أنني مكشوف، بلا غطاء... عارٍ في ساحة المدرسة.

هو لم يُبلغني فحسب، بل قيدني بالخوف وسلّمني للريبة علناً. سُحبت من بين زملائي دون فرصة للشرح، أمام عيون الطلبة التي انطفأ فيها احترام اللحظة، وتحول التركيز إلى البحث عن مخرج خارج هاجس الرعب الجديد والذي لا وجود له في ورقة الامتحان. إذا المسألة ليست عابرة، ولا يمكن الاستهانة بها، ولن يكون مشتبهاً بي، أو ظل ذلك المارد طريقه أو أخطأ في تحديد الهدف..

لا أحد يجهل طبيعة الرسالة. دائرة الأمن ليست مكتب بريد ولا مركز خدمات المواطنين؛ إنها مؤسسة تفتيش عن الخطأ وحساب المقصر، التي لا تُزار إلا بمصيبة، ولا يُفتح ملفها إلا ليُعلق على ذاته إحكام ثقيلة.

دائرة؛ من يدخلها، يترك خلفه اسمه، وشخصيته، وظله. وقد لا يخرج منها سليماً، لا ذهنياً، ولا جسدياً. البراءة فيها ليست نجاة، بل تأجيل للعقوبة. وإن أثبتت براءتك، فإن أقل ما تناله شك في قيافتك، أو ندبة لا تنسى في روحك... ثم يقال لك، بهدوء ساخر:.....

نعتذر عن الخطأ.

هكذا ببساطة. بعد الجلد، والتعليق، ومحاكمة صامتة لا وجود فيها دفاع محامٍ ولا ضمير.

أما إن تجرأت على ما لا يُقال - همسة عابرة، رأي، أو حتى نكتة لا تعجب السادة - فذلك جرم لن يُغتفر. سبّ الرئيس ليس رأيًا في قاموس الأمن، بل تجرأ على الدولة وعلى الرئيس. يقابل بوجه مقنّع بغطاء من القانون المشوّه.

القضية ليست في الجُرم... بل في من يراه جُرمًا.

ما إن نطق المارد بعبارته الثقيلة: - أنت مطلوب في دائرة أمن ديالى. حتى شعرتُ أن الأرض انسحبت من تحت قدمي. تلك اللحظة لم تكن مجرد استدعاء... كانت إعلانًا خفيًا عن نقل جسدي من الحياة إلى القدر الآتي.

هُزِزْتُ من جذوري. شعرتُ بأن ذهني تشظى، راحت تتناثر في دروب الماضي، أبحث بينها عن ثغرة، عن كلمة، هفوة، حتى عن صدفة عابرة. أيّ شيء يوصلني إلى يقين: لماذا أنا؟ لماذا الآن بهذا الوقت الحرج؟

صارت ذاكرتي دفاتر مفتوحة تقلبها عاصفة لا تهدأ، أقلبها بنهم مذعور، أفتش عن جملة نسيتها، عن غلطة تخطيتها، عن ومضة اعتقدت أنها سحر أو شهب في ظلمة ذاتي، اقلب سلة المهملات بتأمل... فلم أعر على يقين يجيلني إلى غيبي.

الجسد حل وضعه، الأطراف تراخت، غزاني شعور أشبه بسكب قطران من الصديد الحارق على قفا رأسي، تسلل الالم حتى شمع صدري. لم تعد قدماي لها علاقة بالجسد، ولا اسمي بات يخصني... أصبحت فجأةً متهمًا دون تهمة، مجرد اسم تحت مطرقة الأسئلة وسندان بلا أجوبة.

بت أعيش لحظة صراع مع نفسي، مع فكري، راجيا أن أتذكر إشارة شاردة توصلني لمبتغاي، إلى الهدف الذي جاء من أجله ذلك الأرعن الذي وضعني في قوس الجريمة، دون أن أصل لحقيقة العقدة.... بت أشعر بقدمي ما عادت تحمل جسدي، لا أتمكن من تخطي وقع المفاجأة الغير سارة.

الخوف ليس عاطفة عابرة، بل قوة خام كامنة في أعماق الجسد. له طبيعة خفية تشبه مس التيار الكهربائي، يسري بانسيابية عبر شبكة الأعصاب، فيغزو المفاصل والعضلات والدماء دون مقدمات. إنه يتسلل نحو أكثر المناطق رخاوة، نحو تلك النوافذ الدقيقة فينا، التي لا نملك السيطرة عليها.

ما أن يحل الخوف، حتى تبدأ موجاته بتحليل الحدث داخل خلايا الدماغ، فيخفت منطق العقل وتتقد فتائل الجسد بالرجفة، حالة لا تملك لها تفسيرًا. العبارة تفقد شكلها، الألوان تُطمس، والبصر ينغمس في لحظة من التشويش البصري والذهني، حيث تختلط أطراف العصف في الحدث، عندها يتوقف الزمن عند حلق العين العالقة في دوامة المجهول.

لا يكتفي بنخر الجسد، بل يحرث الفكر، يبعثر اللسان، يشعل فتائل الحيرة في برائث الوعي، ثم ينسحب مفسحًا المجال لارتباك عام يتجول في ثنايا الجسد... لا تُدرك ذاتك معه ما إذا كنت واقفًا أم تهوي أمامه.

أنها مسألة طبيعية أن يشعر الإنسان بشيء من الخوف، ولكن أن يستدعي لدائرة الأمن فتلك الحالة تخرج عن نطاق الخوف

المألوف لدرجة الرعب والرغبة، الحالة فيها جزع قسري لا يوصف، لأنها دائرة الأمن التي لا ترحم، أي دائرة سلخ القيم..

الشاب طارق الذي دخل لدائرة الأمن بصحته وعافيته بتهمة انتمائه لحزب معارض، خرج منها بعاهة مستديمة ولسان مشلول مخرس، ربما مثل ذلك الكثير!.. هذا هو المغزى الحقيقي وراء ذلك الخوف، بسبب التهيب الدائم المسلط من قبل زمرة النظام على أعناق الشعب، هؤلاء الذين لا يفهمون سوى لغة السوط بإدارة المشكلة، تحتمي بشلة من الكلاب المسعورة. يزايدون المواطن على حب الوطن والوطنية بخلاف القياسات العامة للشعب وعلى حساب درجة الشرف والمزاج والهدف، هؤلاء هم أدوات تنفيذ النظام، يلتصقون بالمتهم أشبه بغراء صيد الفئران، بحيث ما أن يَتَبَكَّوْا بانحراف شخص ما؛ حتى يلقي القبض عليه باللحظة لو كان في جوف المستحيل، عندها يقيد بغل أعمى.

صرنا لا نتهيب منهم فقط؛ بل نتهيب من الأنا القابعة في أعماق نفوسنا، من أصدقائنا، من عوائلنا، صرنا نهرب حتى من الشوارع والأرصعة التي يسيروا عليها، من المقاهي التي تجمعا على الألفة، من الذكريات التي نهجع إليها في دواخلنا. من أمور تربطنا بالناس بطيب وسذاجة... كأنهم لهم مجسات وعيون في كل الأماكن؛ حتى الشياطين تهاب مواجعتهم وتوسوس بأسمائهم، تعينهم على صيد الفرائس بسهولة نتيجة الخوف والوشوشة الداخلية التي تركبنا. لذا كنا نتبع ارشاداتهم كالخرفان، دون أن ننبس بشفة. "نفذ ثم ناقش!!!!" عبارة كم

فيها من بهتان وألم، لا تدعك أن تفكر أن كان التنفيذ يعد ضمن القيم، أم خارج نطاق العرف والقواعد؟.....

يوم غليظ ذلك اليوم الذي اتصف بالخطرسة والتَّصَلُّف والتَّطَاوُل والتَّعَجُّرُف دون أن تتطابق قراءات ذلك المارد مع شرائح فكري المرنة البسيطة، دون أن توائم مع نمط سلوكي واسلوب حياتي بقدر شعرة. شرع ذلك اليوم البغيض يتقدُّ في حياتي كئذٍ وسط احتدام وامتعاض تطلعاتي المستقبلية. كان الحدث أشبه بلغم عبث بالقيم، تفجر على حين غفلة تحت قدمي، ليقطب مسرى حياتي رأس على عقب، بحيث نُثِرَتْ غبرة عنجهية ذلك المارد وغبائه في حقول الود الممتدة ما بيني وبين إدارة المدرسة من جهة وما بيني وبين الاستاذ حسن من جهة أخرى. لقد أظللنا، أغشانا، دون أن ننتبه على حجم الغلة التي أفتعلها بتلك اللحظة...

ما أن حلَّ حتى أصابنا بعصف شظاياها ونثار سخطه، أصاب مرفأ الرضا والأمان في قلبي وعقلي، جعلني أنزوي خلف الهواجس والظن المُربِكة، متبعا حالة الانكسار التي جرفتني لمهاوي العناء دون إرادة، جزل معطيات الرجاء والأمان، جعلني أرتاب مما يدور حولي من لغط، اهجس بذاتي مهزوزا، مدانا، كمن لم يجد في جعبته الفاضية غير النرف والهوان والحيرة..

منذ ذلك اليوم، أصبحتُ أتَحَفِّزُ للحذر كما يتنفَّس الخائف الرعب دون أن يدري لماذا. كأنني أراقب من الجهات عدة مشتركة: من ظلال الجدران، من التقاء الشوارع، من أعمدة

الشوارع، من حركة العابرين، ومن أصوات الداخل في رأسي. أحسست أنني مكشوف حتى لخطواتي، حتى لهمسات لساني حين لا أتكلم، واقع تحت تأثير كاميرات مراقبة شتى.

ذاك الموقف لم يكن عابراً، كان لغماً انفجر في الداخل، فدمّر شيئاً من بنيان الثقة بالناس وبالعالم. قتل البهجة دون إنذار، سمّ القدرة على المراهنة والانطلاق. سحبتي التجربة عن سكة الحياة التي كنت أعرفها، نحو درب غريب لا أعرفه، ولا خطواتي فيه ثابتة.

كنت في ما مضى أمشي بين الأشواك بقدم حافية وقلب مطمئن. أسير فوق فضاظة البعض، وفقر الحياة، وخشونة الأيام دون أن أتعثّر في نفسي. لكن تلك اللحظة جعلت الضعف يظهر في داخلي كخيطة أحمر لا يمكن تجاهله وتخطيه، ولا يمكن نسيانه.

ما حدث لم يكن مجرد استدعاء. كان انحرافاً للمسار، فتح هالة من الغموض في رأسي، تركني أعيش في الظلّ، متردداً بين صمتي وصمتي، ومُعلّقاً في احتمال لا أجروّ على سؤاله: لماذا أنا؟

ذلك اللغم وأن كان قد نبهني على واقع محيطي؛ إلا أنه أفقدني توازني وثقتي بنفسي وبالمحيطين بي، جعلني أتخوف من أقارب الناس إليّ، أتسّس بعد الكلمة في فمي حتى وهو مغلق، أتسّس طنين الموج الهادر في مخيلتي وهو يخرق

مسماع أذنيّ. أصبحتُ أتحسس وقعها، أخشى اهتزاز ستائرّها، أخشى أن تنقلب فجأة إلى تهمة.

صرت أحسب للكلمة ألف حساب، أعدها نوع من اللغط العابث، من صنف المحرمات، خوفاً من أن ينعكس صداها إلى صدري، لأنني أدرك أن الصدى يتحول إلى رصاصة شاردة، تطلقها ريبة، وتشحنها ضغينة، تلك الكلمة قد ترسم لي علامات استفهام وقلق لا أستطيع تجاوز وقعها. لذا بت أتحاشى المحيط والمجازفة في علاقتي قدر الإمكان.

أقمتني التجربة في قلب الاستهداف، وضعتني بين الفرضة والشعيرة، في مركز لم أطلبه ولا عرفت كيف وصلت إليه. أصبحتُ في صُرة الهدف، كأني محبوس داخل كرة زجاجية شفافة، يحدق فيها الجميع دون أن يسمعوا صوتي. كأنّ العالم كله استنبط طاقته من لحظة الحدث، فانطلقت إشعاعاته تحاصرني من كل اتجاه.

وددت أن أهرب من زنقة حكايتي العصية على الفهم، دون أن أستطيع شرحها ومحاكاتها ومهامستها لإثبات أصل براءتي، أو لتبيان حجم اللغط الحاصل في شباك العقدة.. كلما حاولت أن أفسّر، أن أشرح، أن أقول: أنا لست ما تتخيلون - خانتني اللغة، غصّت بي الحكاية.

حكايتي - تلك الزنقة المعقدة - أضحت عصيّة على التفسير، تبتلع كل محاولة مني لمحاكاتها أو الاقتراب منها. لم أستطع حتى أن أحادثها سرّاً.

وهكذا، ظلّ اللغظ قائمًا، والعقدة تتشابك، وأنا أدور في دائرة
مشكول فيها من الشكوك لم أكن صانعا لها... بل مجرد ضيفٍ
ثقيل أجلس على مائدتها.

مدير المدرسة

حين زحف الظلّ نحوي كنت في ذروة حيرتي، مشغول البال، أضرب أخماس الاحتمال بأسداس العقد واللايقين، الذهن فارغ رغم اكتظاظه بالصور. في تلك اللحظة كان قد توقف مؤشر الفكر في رأسي على نقطة الصفر، متبعا تقلبات الصور وهي تفيض في الذهن بشكل عبثي دون هوادة، تدفقت المشاهد كقناة تلفاز أختل في التوازن، تتدفق بصور مشوشة، لا تستقر على لقطة واحدة... أحاول، عبثاً، أن أربط أحداها بما حدث، أن أفك شفرة ذلك الحدث الذي انقضّ عليّ دون رحمة، دون جدوى.

وفي خضم هذا التيه، دخل على الخط مدير المدرسة الأستاذ محمد قادما من القاعة المجاورة، جاء مغيثاً، مهتما بشأن أمري. بدا كأنه يعرف شيئاً عن أمر الحكاية، شيئاً لم يُقل. تقدّم نحوي بخطى هادئة، تشي بالتماسك لكنها محمّلة بثقل الحذر، وكأنّ حضوره بحد ذاته محاولة لامتناس وقع الصدمة التي خلّخت قوامي.

كنت كمن يقف في مفترق الطريق، ثم طلب مني التوجّه نحو المجهول. لا أعرف ما هي التهمة، ما العقدة، ما أصل الحكاية، وكل ما أعلمه أنني أصبحت فجأة **معني بالأمر**. عندها مدّ المدير يده لينتشلني من الزنقة، لكنه لا يملك تريقاً لذعري، ولا قلماً لرسم وجهتي، غير أنه ود تخفيف وطأة الزنقة وعما ستعتريني من موجات رعب ومنغصات سين جيم من التي ستصب نارها بحجري، لا أعرف كيف سأواجه

زنختها وأنا ليس لدي فكرة عن ماهية المشكلة والعقدة التي
أتهمت بها؟..

لقد طرقت أذني أصوات صخب لا أدري مصدرها، أصوات
صفير وجلجلة وقرقعة وصرصرة شتى، لغط من دوشة
الأصوات التي أفتعلها الحضور كردة فعل عما سمعوا وعما
تخللوا بمخيلاتهم النتيجة. غدت الدوشة تدور في صيوان أذني
كأزيز النحل، أهجس بها تنبعث من شجرة السكون والغاب،
من صدى الجدران، من العيون التي صبت جام حيرتها
واستفساراتها بحجري، من الحديث الشاحب الدائر في الوسط،
من العصف الذي أجتاح طاولة الحدث.

في ذروة الالتباس وأنا منغمس في تلك الفوضى الدائرة حولي؛
هجست بذاتي شطحت خارج كوكب المدرسة، في مكان بعيد
من الصمت الذي أطبق على ذهني ولساني، متبعا حيثيات
العقدة، في وادٍ سحيق من الماضي دون أن أرسو على بر،
وصار فكري كريشة تطير عبثاً في دهايز الماضي، تبحث
عن عثرة سابقة في جسد أمس، عن صدفة مشبوهة في تقويم
الأيام، عن ذكرى تفسر ما لا يُفسر، عن مفاتيح فك الشفر
دون جدوى..

لا أعرف حينها أن كنت أقف على رصيف الحياة أم على
أسيجة الجزع الذي خطفني من عالمي الحقيقي.. لقد جالت
مراكب الذاكرة في مدارات الشك، مضت بمسارات أزمنة
متعاقبة تتعقب الحدث في دماسة العتمة. أهجس بالروح شذت
عن الجسد، باتت تبهر بين عوالم الحيرة، هاربة من موجات

الجزع التي دلقتها خارج المنطق، لعالم الريبة والعناء
والتهمة، تلك التي أصبحت حاجزا منيعا تقف ما بيني وبين
الحقيقة والواقع المحيط بي. شعرت أنني داخل كرة زجاجية
ضخمة، لا تحميني! بل تعرّيني أما الملاً. الكل ينظر اليّ،
الكل يتكهّن، وأنا واقف في المنتصف، أشبه بحشرة وضعت
تحت المجهر دون إذن.

هكذا عزلت نفسي تماما عن ما يحيطني، وكأنني حجرت ذاتي
عن واقع زملائي، لقد توقف مجرى الدم تماما عند لحظة
التجني التي أودعتني قيد سجنها، توقف الذهن عن إفراز
صبغة تفسير الأشياء والانتشاء، كأنما تحولت بذاتي من عالم
مرن لعالم أجرد خشن، لا يرتاده إلا المجانين والمقامرين.

لم أعد اميز الأقنعة التي تنظر الي بخبث أو تشفي، ولست
عازما على معرفة ما ورائها، أنها عابرة في جدول حياتي
كالحدث الذي كبلت به. في تلك اللحظة الأنية، الحرجة،
تحولت لكائن جديد لا يشبهني قط وبمواصفات فريدة غير
موجودة في البشر، كأني مررت بحالة تسامي، تحولتُ لدخان
أطير بين العيون الماحقة وأنا لا أدري ما يجول ببالي وما
يرتاد خاطري وفكري؟ كنت أنظر لجهة واحدة فقط وباتجاه
مستقيم لا أحيده، إلى الطريق الذي حدده لي رجل الأمن،
نحو صلب العقدة التي لا أعرف عن ماهيتها ومصدرها شيئا
يذكر، دون أن أهجس بتلك العيون المنصبة من حولي...

- ماذا فعلت؟ - ما الذي اقترفته لأسحب هكذا إلى
الضوء كأني صيدٌ ثمين؟

ماذا جنيت؟

لَمْ كل هذا الجزع والصخب الذي حل بي على حين غفلة؟

لَمْ كل هذه العجلة المرادة في استدعائهم؟

لابد أنه أمر مهم يخص الدولة. ما هو الأمر المهم الذي جعلهم لا يتأخرون باستدعائي حتى ينتهي الاختبار؟ لَمْ لَمْ يطلبوني من البيت؟... الخ من لغط الكلام والاسئلة التي شغلنتني.

لم تكن أسئلتني اعتراضاً ولا دفاعاً، بل نداء داخلي يتهدج في رأسي دون توقف. كأنني فجأة أقف وسط عاصفة، والريح تسأل من أنت ولم تقف هنا؟....

طالما مطلوباً من قبل جهة أمنية، إذا هناك أمراً مؤكدا غاية في الأهمية، جلياً، لا يمكنهم تجاهل حيثياته أو تأجيل وقعه إطلاقاً. قد يكون الأمر فيه خطورة عارمة تخص أمن الوطن، أو تخص سياسة الدولة، وفي ذات الوقت ذلك الأمر المهم يرتبط بي أنا!!!! لكني لا أعرف عن هذه العقدة شيء، ولا عن أساسها ومصدرها، فأنا لا أنتمي لجهة سياسية معادية. يا ترى ما هو المطلوب مني؟ هل أتهمت من قبل جهة ما؟؟؟؟؟....

يا ترى؛ ما هو ذلك الشيء المهم الذي فعلته لأشغل الدولة بأمرى؟ أصبحت في تيه من أمري...

ليس هناك أمر واضح في جدول الذاكرة، التي تراخت وأصفرت أوراق شجرتها، تبخرت مقوماتها، لا تسعفني على عبور قنطرة التشئت، أشعر بخارطتي ورقة بيضاء خالية من خطوط العرض والطول والتضاريس، لا شيء فيها يرشدني لغيب، خالية من الشخايبط تماما، لا تسود ثناياها شائبة لأتبعها. أضحت كذاكرة طفل بريء أو رجل كهل أصابه الزهايمر، صُفِرَتْ طاقتها تماما، تحولت لصفحة بيضاء جردت من الزمن، لا يتخللها موقف بارز قط يثير دهشتي. أتقلبها بيدٍ مرتجفة علي أن أجد فيها نقطة بداية جديدة، دون أن أجد..

لم أتذكر شيئا يسعفني لمجارة الموقف، في ظني لا أعتقد بأنني قد تجاوزت حدود السلوك العام قط، دائما ما كنت أسير بجانب الحائط كما يقول المثل المصري.. لكن ذلك لا يغير من الأمر شيء، الكثير من الأبرياء اتهموا وفقدوا حياتهم دون أن تنجيهم براءتهم، لم يستطيعوا دفع غل التهمة عن أنفسهم، ذهبوا ضحية الاشتباه والخطأ، كتشابه الأسماء المدانة....

ذاك ما كان يرهبني ويغيظني ويغضني، الرهبة أخذت دورها في النزف، لم يكن خوفاً عابراً، بل دفقا بيولوجيا مُرّا - نزف بطيء من أعماق البنكرياس، ومن خبايا المرارة، كما لو أن إنزيماتها تكوّنت من لعنات لا من عناصر كيميائية. حتى تغير لوني وتبدلت صفاتي، أضحت الحالة تؤثر على سلوكي وكياني لارتفاع هرمون الأدرينالين في الجسد، لازمتني قشعريرة شفيفة في الأطراف، انعكست صورتها

على مرآة الصمت السائدة، لا بل جردتني من محيطي لأصبح
يقينا جزء من عالم الغيبيات.

هكذا وجدت حالتي تنكمش على ذاتها، صغرت كثيرا، دنت
من درجة الصفر، أضحت من عالم اللامحسوس، فضت
مخزونها، غدت كهشاشة القطن، كقطعة قماش مشروعة على
غابر الزمن تتلاعب بها الأهواء. لا ملامح لي، لا صوت. لا
شيء سوى كائن يتنفس الخوف دون أن يعرف لماذا وكيف
يزفر العناء.

ترى بماذا تهمت؟...

ذلك السؤال علق في الذهن، بدا يأكل حشاشة القلب، يهرش
لب المخ، دون أن استطيع أن أرسى على بر، وكأن مرافئ
الحياة بغضت مراكيبي، فلا تود أن تستقبلها..

صرت أناجي ربي بصمتٍ يتهدج كالنفس الأخير: يا إلهي...
أسعفني، ذكّرني، دلّني على أي خيط يسحبني من فك البلاء،
يا إلهي؛ لا تدعني فريسة بين مخالب الوحوش التي تنتظر
الفريسة أن تدخل عرينها..

أنشده الفكر بملايسات وإرهاصات وإفرازات عصارة الذهن
دون أن تركن ذاتي لقيعة تكيلني تلك الورطة، والتي أشعر بها
قد تحولقت كحبل المشنقة حول عنقي، بل تجاوزت حدود
المنطق وباتت تعبث وتعفر بحياتي. أصبحت مشاعري أشبه
بضوء عجلة الحريق الفسفورية، تنبأ المتواجدين حولي عن
حجم الحريق العابث في أعماقي...

كان قد مر شريط الأمس بمجمل صفحات الذاكرة، مر بسرعة البرق على كل تفاصيل حياتي السابقة صفحة صفحة، دون أن تقدح نقط حساسة بارقة في الذهن، دون أن أظفر بشيء مما أود تخيله. بت أحاسب الذات عن أفعالها، يا ترى؛ بمن التقيت؟ ماذا فعلت؟ ماذا قلت؟ أين ذهبت؟ مع من تحدثت؟... الخ من لغط وتخبطات شلت قدراتي الفكرية، زحزحت ثقتي بنفسي، دون أن أستطيع أن أجعل نفسي من الوحل الذي علقْتُ به، دون أن أجد في دفتر أمس بارقة علاقة شاذة تربطني بحدث اليوم، تعينني على جلدي، تشك ذاكرتي بسم شوكتها.

بدأت أسأل الأنا بريب من أمري، عن الحيرة المشاعة التي غطت على الذهن، عن العبث الدائر في أروقتي، عن المستحيل الذي أرهق ذهني. بدأت أسأل وحبات الرياء المنهمرة من سخط القدر تبلل ذاتي بالوجل، تتهمني، تصفني بأنني لست سوى صَوَانُ أجرد، سوى صورة خذلان من وحي القدر، رغم ثقتي الكبيرة بذاتي.

باتت الأنا تشاركني حيرتي، تنفضُ غبار السكون عن وجلي الذي أضحي يتراءى للغير عن بعد كأضواء التنبيه، لتزيد من شعث الضباب المحيطة بشرودي.. أطبق الصمت على ذهني، الأرق يشلني، غدت دائرة الضوء تنتسع في محيطي دون أن أوسي على فكرة تبدد العناوين المطروحة، تبرد مكينة الحرث في أعماقي، صار المخ عبارة عن مداس في قدم التهمة، عن منخل تتسرب منه الأشياء دون أن أمسك بها.

أضحت هشاشة الفكرة تندثر في سراب الظن، لم تعد شبكات الضوء تمرر الفكرة، لقد غطى العبث كل الطرق، جعل الوصول للهدف حالة مبتورة بين الضياع والرجاء.

في ذلك السكون بت أقتفي خيط الوجل، مفتقدا جوهره التركيز، تهلhel كياني، أضحي بعيد عن حقيقة طباعي الصلدة القشبية. خلال تلك الفترة الحرجة توقف الزمن بين يدي، لم أعد أستند على جدار يثبت إرادتي، لم استطع اقتناص عصافير الفكر الشاردة، تجردت الإرادة عن مسؤولياتها، صارت أشبه بكرة الصولجان بين أيدي القدر، عربة خلخلتها الطرق الوعرة، هكذا تضعضع جسدي وكياني.

وقبل أن اطلب الاستئذان من مدير المدرسة لأدرك دائرة أمن ديالي؛ أمسك بذراعي الأيمن، ثم تمشى معي حتى حدود باب المدرسة، وادا طماننتي عن أصل المشكلة. وكأنه كان على اطلاع تام بماهية العقدة، لذا ود تطيب خاطرني وإزاحة هالة الشك والتفكير العبثي عن رأسي، والذي بات يتقفز أمام ناظري كجراد ينشد حقل الذاكرة.

وقبل أن أستاذن منه أسعفني بذاته بوشوشة كلمات في أذني وهو يطمأنني، قائلا لي:.....

- لا تخف يا عصام أنت مجرد شاهد.
- شاهد عن ماذا؟
- أطمأن، أذهب وسيخبرونك بأنفسهم.

لم يستطع أن يوضح لي أكثر من ذلك، ليس من حقه كشف
حيثيات العقدة قبل جهاز الأمن، ربما سيكون تصرفه مخالفا
للروتين المراد به أو قد أتصرف تصرفا عبثيا أهوجا ضده.
لكنه لمعرفته القديمة بي، ولطول فترة الجيرة التي جمعت بين
أسرنا، تنازل عن موقفه، حاول تخفيف وقع الصدمة عليّ،
كي يهدئ من روعي، كي لا أتخطى حدود المنطق في
سلوكي، كي لا أهرب من المواجهة، كي لا أعطي للحدث
أهمية أكبر مما يستحق.

شكرته على موقفه، فقلت له:....

- شكرا لك يا أستاذ محمد، أزلت هاجس الخوف عني..

كان تصرفه في محله، شكرته على إسعافه لي بالوقت
المناسب، لأنه فعلا رفع عن صدري هم المواجهة الثقيلة التي
أتعبت كاهلي. بتصرفه أعاد لي ثقتي بنفسي، أعطاني دافع
لأتحري عن الواقع الجديد، عن العضلات التي كبلتني
بالشهادة بعيدا كل البعد عن التهم. بت أسأل نفسي:....

- يا ترى؛ شاهد على ماذا؟؟؟؟ لا توجد في جدول
الذاكرة عقدة تستحق الشهادة.

بأخباره لي كأنه سكب دلو ماء بارد على الجمرة المتقدة في
صدري، والتي ارهقت تفكيري. جعلني أشعر بالأمان وأنا
أمضي براحة لدائرة الأمن، مبعدا سوء الظن، متيقنا من
سلامة موقعي. جعلني أعيش لحظات هدوء وراحة بال، غير

درجة أرق تفكيري، صرت أفكر بالشهادة بعد أن كنت أفكر
بإنقاذ نفسي من التهمة.

كل شيء كان مبهما لي، بثُّ أدور في فلك معمعة حيرة
صماء جديد، في فلك الشهادة والورطة، فأمر ذلك العبث لم
ينتهي، فالشهادة ليست أقل خطورة من التهمة، إذا كنت أعاني
من التهمة لأنجد نفسي؛ فأني سأعاني من الشهادة لأنني بذلك
سأثبت التهمة على غيري، وقد يكون بريئا. أسئلة شتى دارت
في رأسي، نخرت هشاشة الذهن وأنا كالمسطول متجه لمرأب
العجلات لأتجه من هناك لدائرة الأمن التي تبعد عني 90 كلم،
كنت كضليل، تائه.

يا ترى؛.....

شاهدا ضد من؟.....

عن أية تهمة سأشهد؟...

وبخصوص ماذا سأشهد، هل ستكون الخطورة كبيرة أم؟.

عندها تركت الأمر دون أن أتركه، ككوب صار يدور في فلك
ذهني، في فراغ كفراغ الكون، فيه الاحداث متباعدة عن
بعضها كما هي النجوم..

2- دائرة أمن ديالى

تركت المدرسة متجها صوب مرأب السيارات لأصل إلى
الهدف المعني قبل الساعة المحددة ساعة الثانية عشرة ظهرا،
كي لا أسأل وألام عن سبب تأخري، كي لا أوبّخ من قبل
ضابط التحقيق الذي لا يرحم، لو لم تكن القضية مستعجلة لما
حدد لي ساعة الوصول..

وأنا أسير في الطريق صرت أردد عبارة أنت شاهد...

أنت شاهد

أنت شاهد

لا تحزن، فأنت مجرد شاهد.

لا تدع حزنك يشلّ بدنك،

ولا فيض القلق يزيد ضعفك.

استعن بالله الأحد،

أنت مجرد شاهد.

كن العين التي لا ترى،

واليد التي لا تغيّر ما انبرى،

فبعض الزوايا تكون ملجأ للعابد.
أنت مجرد شاهد.

دع الأمور تمضي بسلاسة،
لا تعارض جدول الماء،
ولا تكن في الطرق جذابة.
أوثق قلبك بالإيمان،
وكن كالثلج الجامد،
فأنت مجرد شاهد.

إيّاك أن تقلب الصحف،
إيّاك أن تشعل الصواعق،
كن في طرف السلك القطب البارد،
أنت مجرد شاهد.

انسَ الرجاء حين يكون حطبًا،

فالنار لا تشكو العوائق.
أشهد بما غسلته دموعك،
واجلو ما كنسته المقاعد،
أنت مجرد شاهد.

كن صباحًا للذين نسوا الفجر،
كن ضوءًا في صحن القدر،
افترش الصمت بالهدوء،
واحترس من كيد الموائد،
أنت مجرد شاهد.

صرت أدعو ربي على تجاوزي محنة الشهادة بخير، فهي
محنة لا تقل وزنا عن محنة التهمة، فيها غل يفوق طاقتي،
على الرغم من أنني لا أعلم بماذا سأشهد؟ وضد من أشهد؟
أنها محنة في دائرة أمن الدولة عليّ تجاوز عقباتها، فقررت
بأن أكون شاهدا كشاهد مسرحية شاهد مشفش حاجة لعادل
إمام.

في ممرّ الإسمنت البارد كنت أعرف من ساقابلهم. ليسوا موظفين... بل جالّادون مُحترِفون، وجوهم تبث الرهبة، ونبراتهم مشحودة بالمهانة، وأسئلتهم ليست بحثًا عن الحقيقة، بل لأثبات التهمة واختبارات الطاعة. هؤلاء ينفث من اشداقهم واعيُنهم الشرر، تُهمُّهم جاهزة، بإيحاء منهم أو بنظرة شذرة يجعلون المقابل يعترف بكل شيء دون أن ينغمسوا في لب العقدة. لهم اساليبهم الخاصة تدربوا عليها، هم لا يعرفون شكلا أو معنا للرأفة. حتى لو كُنْتُ شاهداً، سيتهمونك بالسكوت... فالصمت في عُرف الجريمة جرم، والمعلومة المتأخرة خيانة مؤجلة..

... إذا كيف سأتعامل معهم؟... كيف سأواجههم؟..

على الرغم من أن مدير المدرسة قد أزاح هالة الرعب عن قلبي، إلا أنه لم يرفع الغشاوة عن فكري، كأنه بفعله التقط شوكة الألم من بؤبؤ العين، فجعل الصورة فيها مشوشة، لا تزال المشاهد ضبابية. أنا أمشي الآن نحوهم، وكل خطوة كأنها امتحان جديد - ليس في الوطنية والجغرافيا، بل في الثبات وبيان الحقيقة.

باتت جوارحي تتنفس الصعداء، أزيحت عن ذهني لعنة السخط، في داخلي كنت قد شكرتُ المدير كثيرا على صنيعة الطبيب.. على رغم من أنه بعمله كأنه أبدل هما بآخر، أبدل جرحا بطفح جلدي وحكة لا تبطل، أزاح عرة بندبة...صرت ألومه على فعلته لأنه لم يكمل إحسانه ورأفته، تركني معلقا

بين أجنحة التفكير، تركني في وسط الطريق بين المطرقة
والسندان.

يا ترى؛ لَمْ لَمْ يخبرني قبل تلك اللحظة؟ لربما فضضت له
وافصدت العقدة امامه، لَمْ لَمْ يشاورني قبل أن تتسخ ثيابنا
بمخلفاتها، قبل أن تتفجر العقدة على يد ذلك المشعوذ أمام
الأساتذة والتلاميذ، قبل أن تصبح عجينة في يد الأمن وعلكة
بين ألسن الناس، كأنها عرض مسرحي متفق عليه، لا ينقصه
سوى تصفيق الجمهور؟... لَمْ لَمْ يسألني عن أصل العقدة التي
هو على إطلاع تام عليها؟؟؟

بتوضيحه لي فكرة العقدة، جعل نفسه في موضع الشك
وجعلني في حيرة من أمري. جعلني أنقرس في وجوه
الأصدقاء والمعارف جميعا، صرت أتمعن بخلفياتهم
وصداقتهم: أصدقاء الدراسة والطفولة والمعارف. في تلك
اللحظة كلهم ارتدوا أقنعة التهمة من وجهة نظري، بت لا
أميز بينهم أبدا. في جدول أعمالى وذاكرتى لم أجد صورة
تسفر عن خيانة طرف ما، لكني أيضًا لم أجد براءة تحيد
شهادتي، لأنني في تيه من أمري. كأن العقدة نُسجت في
غيايى، ثم أُلقيت في حضنى دون أن أنتبه.

بتُ أبحث عن سر اللغز الذي عقر أفكارى، بقيت أدور في
دوامة القلق، لَمْ أبرح دائرة الشك أبدا، تراءت لي كل الوجوه
المعروفة بذات القدر من الذنب، كلها مذنبه، على الرغم من
أنى لم ألمح بها تسويفا أو تجنيا واحدا. بالطبع أقصد أصدقاء
الوظيفة والدراسية والطفولة.... أما زملاء العمل كنت قد

أبعدتهم عن دائرة الشك تماماً، لأننا لا نجتمع معاً سوى على مناقشة أمور الدراسة والدرجات، أما أصدقاء الطفولة فليس فيهم من يتصرم في رأيه وسلوكه، وأما المعارف فلا نجتمع قط على مناقشة عقد السياسة.

.. يا رب أسعفني.. على ماذا أشهد؟ وضد من؟ من الذي ورطني بهذه الشهادة؟ وووو.. كثرت الواوات بصنيع الأسئلة العقيمة...

في بادئ الأمر مال فكري نحو اتهام المدير ذاته في وضب القضية، فقلت مع نفسي لا بد أنه ضالع فيها، وإلا كيف عرف بأنني شاهداً وليس متهماً؟ أنه على علم بتفاصيل القضية برمتها، بل يعرف مغزاها وتأثيرها وأبعادها ومنحائها وغايتها، يعرف سرها ونجواها. هو على أطلال تام بحديثاتها وعقدها وزنختها. حتماً أنه يدرك خصائصها ودوافعها وأبعادها. يعرف لغزها وغواها ودرساتيرها. كيف عرف أنني شاهد! قبل أن أعرف أنا؟ من أخبره؟ بل: ما الذي يعرفه أصلاً ولا أعرفه؟ شيء ما في يقينه، في طريقة تهادته، في نبرة صوته، قال لي إنه لا يجهل الأمر... بل يعلم علم اليقين كل ما يخص القضية، كما تُعرف القصص المحفوظة بأسرارها، بعقدها، بروائعها العالقة خلف الستائر. يعرف تفاصيلها، يعرف دوافعها، يعرف متى بدأت وأين ستنتهي... يعرفها حتى فواصل الحروف فيها وسكونها.

ظننت، للحظة، أنه هو من أوعز لغراب البين أن يدرج أسمى في الشهادة.. وأنه، حين أزاح عني الخوف، لم يكن ليُنقذني،

بل لئُوجَّهني نحو باب لم يختبره أحد سواهم. طالما يعرف تفاصيل القضية؛ إذا أنها دُسترت وحوك نسيجها داخل جدران المدرسة. هكذا خيل إليّ.

إذاً، لا بد أن يكون له يدًا في ترتيب أحجية القضية، في تركيب عباراتها وتوزيع أدوارها بالصمت والرمز. بموقعه كمدير للمدرسة ودرجته الحزبية الرفيعة، يمكنه أن يُدرك أبعاد ما يجري... بل لعله أدرك، مبكرًا، أن العاصفة على وشك الهبوب، قبل أن تهب.

هكذا فُكِّرت في لحظة شرودي الأولى: لا بد أنه ضالع فيها. لكن سرعان ما انقلب التفكير على عاقبه. وجدتني أترجع عن اتهامه، تأملت فترة الجيرة وصور الطفولة ومرابع الذاكرة ونحن نتقاسم الحيّ، المدرسة، المخبز، الجدران الأولى. تلك العلاقة الحميمة، لما لها من جذوة صدق وصفاء دكت حدود الألفة والعشرة الطويلة، كوننا سكان ذات الحي لحقبة طويلة من الزمن، والده صديق والدي في العمل وخارج العمل. وهو، رفيق أخي الأكبر، كنا درسنا معا في مدرسة الشروق في مرحلة الثانوية، كان يسبقني بثلاث مراحل دراسية. تشاركنا طابور الصباح نفسه. تلك الصلات القديمة، الخافتة والممتدة، لا تموت بسهولة. ربما حين رأى ذاك الغليظ يكتم فاهي بالوجل سعى لإنقاذي، لسعته الذكرى، استفاق ضميره المتعب، فجاء يخفف عني عبءًا لا يحتمل.. وحين تحفظ على المعلومة أنما ليجنب نفسه الخطأ، كأنما ود تحصين ذاته من لسعة النار.... لهذا، أخرجته من دائرة الشك... لا حبًا

فيه، بل لأنه الوحيد الذي لم يتظاهر بالبراءة. بل تصرّف بعقل وحكمة.

قد يكون بذاته متورطاً مثلما تورطت أنا، لن يستطيع أن ينفي التهمة، ففضل السكوت والصمت أمام جلد أمن الدولة والتحقيق بالعقدة. في الحقيقة لن يستطيع أحدا ما مهما علا شأنه من أن يقحم ذاته في أمور الأمن، فهي دائرة محصنة تماماً، مهما كان صلداً لن يتجرأ أن يتجاوز حدود العقدة التي أبرمت في دائرة الأمن.

كان المدير، على الأرجح، على علم بتفاصيل القضية... ربما علم بها صدفةً، أو بحُكم موقعه الحزبي والإداري، أو بدافع فضول المسؤول الحذر. لا أدري. لكن حين مدّ يده لي، لحظة الانهيار، هجستُ به شيئاً آخر. شعرت كأنما يده لم تُمدّ من عاتقه، إنما تهدلت من السماء... أنتشلتني من مستنقع الحيرة والقلق الذي كنت غاصاً فيه دون طوق.

لم يقل الكثير. لم يُبرّر. لم يُظهر بطولة. فقط... تحرّك حين شعر بثقل الهمّ يسحن رأسي. وفي تلك اللحظة، بدا لي كملاك يمتنن الرحمة، وما هفّت على قلبه من وجل أصابني، أكد له براءتي، فتحرك ضميره ليخفف عني وقع الصدمة التي اقتحمت عالمي كسيل نار.

حين أنقذني، كأنه ورط نفسه بالقضية، حيث أعلمني بمعرفته التامة بجوهرة القضية التي استدعيت من أجلها، وذلك اعتراف ضمني من أنه له علم في أوليات القضية وفي طريقة

حياكتها. لقد وضع نفسه في مصيدة الشك، لأنه حتما قد قرأ تفاصيل الحدث من المصدر مسبقا، وحتما أنه قد عرف بأني متورط دون أن أتورط بلب التهمة، حتما أنه علم بتفاصيل وجوهرة القضية بشكل من الأشكال دون أن تكون له ردة فعل تجاهها لغلها، والسؤال الذي بقي يدور في رأسي هو:...

ما هي صلته بالقضية؟

من هو غراب البين الذي وشى بي؟

كيف علم بجوهرة المشكلة؟

ما هو دوره بإعدادها؟

ذلك ما كان يشغل بالي في حينه، والذي سنبين تفاصيل الحقيقة لاحقا..

الحقيقة لا تقال، لأنها تُؤلم. وهي شهادة تنطق بما لا يستطيع الكثيرون أن يعلنوها: إن في بعض الممرات الرسمية، تُشَنَّق الحقيقة بسؤال معني يُطرح بشكل عبثي مائل.

صوتي هنا هو صدى لمن مرّ بهم ذات الرعب ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا منطقهم المسكون بالخوف، كان عليّ أن أعري الظرف المحتدم؛ القسوة التي تحول العفوية إلى تهمة، إلى اعتراف بجرم لم نسلك طريقه. أفكك أدوات العقدة، أفسر النظرة والإيحاء الذي يولد من رحم الفوضى. وكأن التهمة ليست ما فعل، بل ما قُدر لك أن تُتهم به جزافا... كنت أسير

نحو جهة التحقيق وكل خطوة فيه تُشبه نكزة عقرب في جدار القلب.

أركان الخوف معروفة للجميع- من يدخل بوابة دائرة الأمن لا يخرج منها كما دخل. كل قضية تصل هناك، تختتم بمصيبة مكتومة، وكل من يُستدعى للتحقيق لن يبرأ من كيد التهمة إلا وفي وجهه شرخ أو علامة واضحة تذكره بالمكان، من أثر العذاب النفسي والقسري في التعذيب الذي يتعامل به هؤلاء الشلة المحسوبة على جهة الأمن، لن يخرج إلا بوصمة، أو ندبة، أو عاقبة تلازمه بقية العمر.

فالاعتراف لا يُنتزع من المتهمين بحثاً عن الحقيقة، بل يُعَدُّ لأجل رفع تقارير تُرضي الرؤساء، وتُرفع بشعار - تم... في داخل دائرة الأمن تنزع الكرامة، وتُدفن الإنسانية على محراب باب الدائرة. الفُسوة المستخدمة تُجبر البريء على الاعتراف بالذنب، خشية تفاقم جوانب الذل.

هناك، بين هؤلاء الشلة القذرة... تُعد الاستهانة بالنفس فضيلة، وقلة الذوق والاحترام واجب وظيفي، والاستهجان بالمشاعر دليل على الاحتراف. الترهيب يصبح وسيلة إقناع، والعبث يُمارس كعُرف متداول، والهمجية تُنظر لها وكأنها نظام إداري.

وما النتيجة الحاصلة سوى اعتراف كاذب... يُطلب منك التوقيع على المحضر، لا لأنك فعلت، بل لأنك لم تستطع أن تتحمل البقاء واقفاً في وجه تيار الغضب مدة أطول. فرجل

الأمن ليس فردًا يؤدي مهمة، بل مخلوقٌ درب وجُهّز بعقيدة القمع للحفاظ على أمن السلطة، عنده تُلغى الإنسانية بولاء أعمى، خالٍ من روح الضمير.

تلك هي عُقد رجال الأمن الملتصقة بسلوكياتهم الجلفة والمكشوفة أمام الجميع، عقد راسخة لا تُعبّر عن حزم مهني، بل عن جبروت فارغ يتغذى على التهريب ليصمد، يستمدّ وجوده من ولاءٍ لا يُفرّق بين الإنسانية والوحشية. إنهم أبناء مناخ مغلف بالعنف؛ أساليبهم تعباً بغراء الغلظة، تُشحن بالفاظ النكال والشتائم، وإذا استدعى الأمر تصل إلى القذف الفاحش والذم والتشهير، وربما إلى ما هو أفحش...

كل ذلك من أجل الادلاء باعترافٍ قد لا يعني الحقيقة، بل فقط لإرضاء مرؤوسيهم بفعلهم الحسن. لهذا، يخاف الناس من رجل الأمن لا لأنه يُمثّل القانون، بل لأنه يُجسّد شكل القبح كما لم يُجسّده سواه. لأنه يلتصق صبغة القبح جاثمة في وجوههم، أن يتحلوا بشخوص بشعة، هذا شرطٌ رئيسي لقبول المنتسب في تلك الوظيفة، وهي تعني الولاء التام والطاعة للحزب والحاكم مع نزع جبة الضمير. ولو كان الثمن إنساناً بريئاً يُجلد بلا ذنب.

في الحقيقة، هم لا يزّون أنفسهم كما تراهم الناس. يتصوّرون بأنهم نخبة من الأنبياء الذين لا يقبلون بالخطأ، بينما تهجس فيهم العامة توابع وذيول بلا قيم، بلا مروءة، بلا شرفٍ ديني أو إنساني. عملهم، كما يبدو، يفرض عليهم أن يتأرجحوا بأرواح الناس بين ممارسة الطقوس الولاء وآثام المدعى

عليهم- بين العبادة والدعارة، بين النسك وال نصب، بين التحقيق والتسؤل - كل تلك الممارسات تمارس لا بحثاً عن الحقيقة، بل لهندسة التهمة بالشكل المراد أمام أسيادهم.

إنهم أشبه بمكيئة مبرمجة الكترونيا لتنفيذ الأوامر، لا تعرف الرفض ولا تجيد السؤال. يتقمصون الأدوار بمهارة شبكية: قد يمثل أحدهم دور امرأة إذا استلزم الأمر، أو قواداً أو شيخ مسجداً، أو متسوِّلاً أو مجنوناً، لا فرق أنه يمارس مهنته.... كأن مسخ الهوية هو جزء من شروط الوظيفة.

لذلك، حين دخل شرطي الأمن إلى المدرسة، لم أستغرب إن كان سكراناً أو صياد سمك ضلّ طريقه. رغم أنّ مهمّتهم الأصلية يفترض أن تكون "حماية أمن الدولة، إلا أنهم في قبضة السلطة المتسلّطة أصبحوا أدوات صيانة كراسي الحكم، لا لحراسة القانون.... ولهذا كله، بات المواطن العادي، يُفضّل التوجّه لجبهات القتال والموت... على أن تُسوقه خطاه إلى دائرة الأمن.

بعد أن استأذنتُ من السيد المدير، اتّجهتُ إلى مرأب السعدية الذي لا يبعد عن المدرسة سوى عشر دقائق مشياً على الأقدام والتي كنت أراقب فيها الامتحانات. لكنّ الدقائق كانت أثقل من خطواتي المرتبكة، التي كادت فيها الساق تُصطدم بالساق بسبب ترنّج البدن وتراخي القدم... الجسد كلّهُ كان مشدوداً بخيطٍ من الوجل لو قطع هذا الخيط لانفصلت الأعضاء عن بعضها، العصب مشوش، الفكر مهلهل تحت وَقَع الطرق المجهول.

خلال الطريق، وخلال دقائق الانتظار في المرأب قبل أن تقلني العجلة إلى بعقوبة (مركز المحافظة)- كنت مرأبا من فكرة علاقة المدير بالقضية.. خلال الانتظار صرت أفكر بكيفية جمع شتات أوراقى قبل أن أفرش صرّتي أمام المحقق، لأدلي بشهادتي على بينة؟ دون أن أقصي ذاتي أو أظلم الآخر. هؤلاء لا يتسامحون مع الزلات والكذب، ولا يهتموا بالنوايا. استدعائي هو ليس بحثًا عن الحقيقة، بل لإثبات التهمة رسميًا ضد المتهم. إن أهملت الفكرة، أو خبأت صدفية اللؤلؤة التي يبحثون عنها، ستكتشف النوايا، عندها لن يرحموني أبدا. إنهم يعرفون الخفايا أكثر مما أدركها أنا...

ما أن وصلت المرأب حتى هجست بأني قد فقدت سلامة ذهني الذي تشوش بزحمة الافكار، تبددت طاقتي، في حقيقة أمري كنت شارد الذهن تماما، أبحث في أزقة التيه والأفق المجهول عن أصل اللغز الذي غُلف بالعمّة، عن الشوكة التي شكّت قدمي، أتحرى عن راس الخيط الذي يرشدني لهدوئي وسكوني.

وأنا في قمة حيرتي؛ التمسست أثر الحصار المفروض على الوطن من قبل أمريكا والدول المتحالفة معها ضد العراق، كنا في بداياته عام 1992 أي لم يمضي على الحصار سوى سنة واحدة، أضحت آثاره تطفح على السطح، تنعكس على الشارع والمجتمع وفي تفاصيل حياة الفرد والأسرة الدقيقة، تهجس بالوجوه شاحبة! كأنها تعيش أيام خريفها، ذبلت، أصفرت كأوراق الشجر، نتيجة الغلاء الفاحش الذي بدأ يتصاعد وتيره

في الأسواق ويضرب شواطئ المساكين، بسبب ضعف الأساس الذي نستند عليه. الحصار بات يجتاح الطبقة الفقيرة كالإعصار، شتت أفكارهم وقدراتهم، جراء العوز الذي صار يعيش في النفس كحشرة القمل وهي تهرش الجلد - هكذا بات يعيش الوطن في زنقة وعزلة، في شتاء مريّر لا تمنع سخطه أحصرة الأسقف النخرة. المهم أدركت المرأب الخالي من عجلات الأجرة بسبب أزمة البنزين التي فرضها الحصار.

رغم يقيني بأنني شاهدٌ لا متهم، لم أستطع أن أمنع الحزن من التسلل إليّ... سأشهد، نعم، لكن ضد إنسانٍ قد يُنهك بسبب شهادتي، وربما يُدمّر بسبب كلماتي. ورغم ذلك، أهجس في قلبي شعورٌ خافت بالراحة بأنني شاهد ولست متهماً؛ أن تُمسك بشيء هو أفضل من أن تكون خال الوفاض وأنت تدخل لمملكة الذئاب دون سند.

رغم طمأنينتي من وقع التهمة، إلا أن الشهادة في طبيعتها تحمل وجهين كالعملة المعدنية، لا يُفصل بينهما سوى حدّ الضمير: وجه يمثل البراءة وآخر يمثل الاتهام، فالشهادة قد تبرئ المتهم وقد تنسف روحه. كما أن الشهادة في دائرة الأمن لا تشبه الشهادة أمام القضاء المدني. يمكن لزلة لسان، أو رجفة ما تفسر تفسيراً غريباً - أن تُقذف بصاحبها في هوة الاتهام، يمكن للخوف أن يصنع من الشاهد مجرماً. فالمحقق لا يُريد روايتك، بل يريد غايته تأخذ مسلكاً على لسانك.

ربما أتهم من قبل المحقق لأنني لم أبلغ عن وقع الجريمة في حينها، أتهم بصفة التستر على مجرم ودّ العبث بأمن الدولة،

اتهم بصفة الإهمال المتعمد. قد تشهد عليّ أذنيّ وعينيّ وأطرافي نتيجة الارتباك، وقد يضع الفرق بين أن أتكلم خوفاً، أو أسكت إيماناً.

ألم يقل رسول الله ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان."

ربما يطبق عليّ قول رسول الله، كان يجب أن أقول الحقيقة في حينه - لا أن أنتظر حتى يُطلب مني القول. وربما سأدان بطريقة ما أو بالعبث.

حين أدركت المرأب كان خالياً من العجلات بسبب شحة البنزين كما اسلفت، لذا انتظرت على الرصيف مع مجموعة المنتظرين الذين لا يزيد عددهم عن أصابع اليد الواحدة، وبعد معاناة وانتظار مدة تزيد عن نصف ساعة، وقفت عجلة تكسي عابرة أمامنا، ركبت العجلة مع أربعة أشخاص كانوا ينتظرون قدومها بشغف ليقضوا أشغالهم الضرورية في مركز المحافظة، طلب السائق أجرة ضعف المصروح بها، مستغلاً أزمة النقل وشحة العجلات وأزمة البنزين، كنا قد قبلنا عرضه لحاجتنا الماسة لإنجاز مهام أعمالنا قبل انتهاء الدوام الرسمي. خضعنا لإرادة السائق وكلّ منا منشغلٌ بأمر ما يود أنجازه.

تحركت عجلة التكسي عند العاشرة صباحاً، سالكة طريق البحيرة الغير معبد، المسافة من السعدية إلى بعقوبة 90 كم،

تتخللها سبعة كيلومترات مسرب ترابي، ممتد من نهاية
قصبات مدينة السعدية إلى سفوح جبال حميرين، مارًا بجانب
البحيرة الأيسر بخط مستقيم كأنه شقٌّ في صدر الأرض.

كان الطقس صافياً، والشمس في حزيران لا ترحم؛ الحرارة
بلغت 45 درجة، والهواء ساكناً، حتى النسيم رفض دخول
هذه الأجواء والطريق هرباً من لسعة الحر والسكون. مع هذا
الطقس المسموم كانت العجلة خالية من جهاز التبريد، لذا كنا
نضطر إلى فتح النوافذ خلال الطريق تجنباً للغازات النافذة
من العجلة وقلة الاوكسجين، السموم الحارة تلفح وجوهنا
الناعمة، والتي أحمرت وسودت نتيجة اللفح، تهجس بها
استوت في تنور الخبز.

خلال الطريق الترابي الذي مررنا به بدا السائق كأنه لم يُسلك
الطريق إلا ليعاقب زبائنه من الركاب. حفر، ومطبات
حجرية، وغبار لا يهدأ، بحيث تنتفض الغبرة من تحت العجلة
مع دوران عجلاتها، لرخاوة التربة واسفافها، تهجس بها
طحنتها عجلات المراكب والحافلات والشاحنات الثقيلة التي
تسلك ذات الطريق، اضحت ذرات التربة هشة، دقيقة
كالدقيق، تنتفض مع الريح والنسائم لأمتار عالية... مع دعس
العجلة ودورانها وهي تغطس في ثناياها الرخوة، كأنها تنث
ذراتها الناعمة لنتعطر بها، كأنها تنفخ من أعماق جوف
الأرض.

ما أن تهتز العجلة حتى نهتز باهتزازها. كان كل مطبّ عيار
عن أرجوحة نعتُّ به، يخض صدورنا قبل أن تخفق به

الإطارات. ترى الغبار يتصاعد عموديا كبركان ثائر تحت العجلات يلفح وجوهنا، يملأ جيوب أنوفنا، يتسلل إلى نظرنا وشعورنا، يختلط بريقنا. وكأن كل عجلة مرت عليه قبلنا، تركت غلها فيه، عمقت الجواء بالأرض، وكل شاحنة ساهمت في طحن ما تبقى من صلف وصلابة بالطريق.

كنا نضطر إلى فتح جزء من نوافذ العجلة لألا نختنق من شدة الحر وقلة الأوكسجين نتيجة عملية التنفس والغازات المنبعثة من محرك العجلة. نعاود غلق النوافذ لألا نختنق من كثافة الغبرة المحتضنة العجلة، بتنا في حيرة من أمرنا بين أن نختنق بالغازات المتدفقة وقلة الأوكسجين وبين أن نختنق بالغبرة.. تشبعت وجوهنا بعصف ذراته الصفراء، أصبحنا كبدا الرحل لاثمين رؤوسنا بقمصاننا وغترنا. حالة مزرية، لا تُحتمل، ولا سبيل للهروب من الطريق الطويل، سوى انتظار أن تنتهي الطريق ببطيء سيرنا.

المسرب الترابي بدا كأنه عُبد والنقر لا بالتسوية، زرع بشتلات الحفر والحجارة، كأنما وجد ليمتحن قدرة العابرين. عجلات الحافلات التي مرّت عليه أزاحت الكتل الحجرية الكبيرة عن مواضعها، وخلفت كتلاً صلبة مبعثرة على جانبي الطريق، وبعضها استقرّ في وسط المسار كشوكة في خاصرة الطريق. تلك الكتل المزاحة تركت أثارها في وسط المسار، أدت إلى إعاقة سير العجلات، بحيث صارت العجلة مضطرة أن تكفت بتلك الحفر، تهتز بنا كأرجوحة مع تدفق تلك الغبرة من تحتها، وصلت بنا المعاناة أقصى درجات القرف.

الحرارة تجاوزت حدها، فيما اشتدت كثافة ثاني أكسيد الكربون الناتج عن تنفس ستة أشخاص داخل العجلة، إلى جانب الغازات المنبعثة من المحرّك، ورائحة البترول المحترق المتشبعة في المقاعد، تلك الغازات اختزلت الأوكسجين من حولنا، حالة يرثى لها ولدت ضغطا غير طبيعيا على الجهاز التنفسي والأعصاب. أصبحت العجلة أشبه ببالونة مشبعة بالغازات والإعياء تكاد تنفجر من أدنى قدحة. هكذا غدت الحالة في تلك المسافة القصيرة حتى تمكنا من تجاوزها بشق الأنفس وبزمن قرابة نصف ساعة لبطء سير العجلات.

بعد أن تخطينا تلك المسافة؛ ذللنا باقي الطريق بهدوء حتى أدر كنا مدينة بعقوبة وصلنا مآربنا سالمين قبل أن ينتهي موعد اللقاء بساعة زمن، كنت قد نزلت في مدخل المدينة حيث تكمن دائرة أمن ديالى.

3- دائرة الأمن

وصلت لمركز محافظة ديالى مدينة (بعقوبة) بحدود الحادية عشرة تقريبا، نزلت قرب دائرة الأمن الكامنة على الطريق المؤدي لمركز المدينة.

الطقس هادئ، الأجواء صافية، الشمس ساطعة، بحيث يلين ما تحتها لشدة حرارتها، تكاد تصلي قفا الرأس. الحصار بدأ يفرز أزماته، لازال سيله لا يغطي سوى القدم، لازالت لنا القدرة على الحركة والمقاومة..

ما أن وصلت لبوابة دائرة الأمن؛ حتى استقبلني شرطي أمن كان يقف في مدخل البوابة الخارجية بلباسه المدني، كان يقوم بواجب الحراسة الروتينية واستقبال المراجعين، وكأنه على علم بقدومي.

قادني ذلك الشرطي في ممر متعرج لغرفة تحقيق صغيرة بحجم 3×3 م، والتي تحتوي على كرسيين وطاولة مكتب صغيرة وبعض الأوراق، الكتب مصفوفة فوق رف صغير ولوح اختبار ورقي A 4 (ليفكس) أسود اللون يضم مجموعة أوراق جاهزة للتدوين، مرمي على الطاولة. فيما تزين الجدار المقابل صورة كبيرة للرئيس صدام بلباس مدني.

في مدخل الغرفة استقبلني رجل أربعيني سمين، أبيض البشرة، عريض الجبهة والمنكبين، يغطي على وجهه شارب غليظ، تعالي هامته صلعة واسعة تغطي قفا الرأس حتى

الأذنين. كان يرتدي قميصا أبيضاً منقط بنقط سوداء مع بنطلون اسود..

ما أن دخلت الغرفة وأنا متوجس من المفاجئات الغير سارة؛ حتى استقبلني ذلك الرجل برحابة صدر، طالبا مني الجلوس على كرسي خشبي صغير، من ثم سحب كرسيًا جانبيًا ليجلس قبالي، طغت على وجهه ابتسامة عريضة مرحبا بي، قائلا:.....

- أهلا وسهلا بك، تفضل بالجلوس، شرفتنا.. أطمأن..
نحن أرسلنا عليك كشاهد عيان ليس إلا!

أمر الشرطي الذي يقف بباب الغرفة أن يقدم لي قارورة بيبسي كولا، قائلا:....

- حرارة الجو مرتفعة، أسترح، خذ راحتك، كن هادئاً،
أشرب البيبسي أولاً.

- ليس فقط حرارة الجو، أزمة العجلات في المرأب دفع السواق إلى استغلال الموقف بأجرة مضاعفة، إضافة لطريق البحيرة السيئ المعبأ بالغبرة.

. أخذت البيبسي منه شاكرًا فضله. ثم طلب من شرطي آخر أن يجلس خلف الطاولة لفتح ملف التحقيق..

إذًا، ها أنا هنا. هكذا قلت لنفسي وأنا أجلس قبالة رجلٍ يحمل ابتسامة لا تشبه المكان وهو يرحب بي. لكن خلف شفتيه تهتز أدوات التحقيق.

بابتسامته وترحيبه لي كان قد أزاح هالة الرعب من على قلبي، جعلني أطمأن على الرغم من إنَّ عصف الرعب لم يبرح حدود قلبي، لم ينقشع عن ملامح وجهي استغراب وجودي في ذلك المكان. أحاول أن أنسى المكان... لكن داخلي يتناسل فيه الرعب كما يتناسل الصدى القلق في ذهني، وفي كيفية الخروج من هذا النفق المغلق. رغم الهدوء؛ بقيت جوارحي تنزف رعبا طالما وطأة تلك البقعة الموبوءة بالشر والعقد.

لا أدري ما المطلوب مني تمامًا. لكنني أعلم أن الكلمة في هذا المكان ليست مجرد إفادة. إنها سهم، أن لم تصب المتهم فأنها تصبني أنا... إذا ما أنطلقه هنا؛ قد يرتد ويعود إلى نحري... يا ترى بماذا سأشهد؟ وضد من؟ تتوالد الأسئلة في رأسي كفيض النمل وهو في جحره. أسئلة نغصة ترتد نحوي كلما حاولت تجاوز أثرها قدر لحظة، اشعر باليأس تجاهها.. صرت أشرب قارورة البيبسي التي وُضعت أمامي، لا لأنها تُطفئ عطشًا... بل لأنها ذريعة صغيرة للسكوت وعبور نفق القلق. ففي داخلي كل فكرة تُعبّد طريقًا للرعشة.

وهكذا... قبل أن ينطق المحقق سؤاله الأول، كنت قد أجبت بداخلي عن ألف سؤال لا يسمعه أحد.

في حقيقة الأمر، ما كان يؤرّقني لم يكن مكان الجلسة، ولا نظرات الرائد الأصلع الذي جلس قبالي ببشاشة حارة، بل شهادتي كم ستكون بليغة وقاسية؟ كم من خرابٍ قد تُخلفه في جسد المتهم... في وجه أسرته؟؟ كم سترتد بوقعها على

شخصي في المستقبل. لأن الشهادة لا تنتهي عند حدود الإدلاء بها، بل تتعدها لما بعد ذلك بحسب تأثيرها وسنوات معاناة المعني بالموضوع، وقد تمتد آثارها لنهاية العمر.

تلك الأفكار الهجينة لم تنفك عن ذهني، بقيت تنقلب كفسار الذرى في داخلي دون أن تخمد النار قيد شعرة، أضحت فقاعات الحيرة تتفجر تحت قدمي وتلفح ذاتي دون أن أتمكن من تسوية أمر فكري. كنت كمن يعبر المسار بحذاء من قلق، يجره إلى حيث لا يعرف إلى أين يُفضي به الطريق.

هجست بذاتي مقيدة بالعقد، لا أستطيع تحريرها أو تجريدتها أو أن أتلصص من حيثيات الإجابة على الأسئلة التي ستوجه لي، لا أستطيع أن أتجنب الغاية المزرية في نفس ذلك الأصلع الذي جلس قبالي، وبرغم ترحيبه وبيئته المطمئنة، كنت أرى خلف القميص الأبيض المنقط بالسواد... فخًا نفسيًا يهياً لي بابتسامة.

كنت خائفًا... لا من الكذب، بل من الحقيقة حين تنطق، فربما لا تكون عادلة... ولا أنا قادر على تحريفها أو ترميم جوانحها وتعديل غايتها.

كنت أهجس بذاتي قد تلبست بقيود لا طاقة لي بها، تكبلت بوجل يفوق إرادتي، لا أعرف كيف ومتى سأنفك من تلك القيود التي عصمت فكري ولساني قبل أن تعصم يديّ وساقَيّ.

في أعماقي، كنت قد عاهدت نفسي أن أتوخى الحذر مهما كلفني الأمر. قررت أن أخفف من وطأة التهمة على المعني

كي لا أزيد عليه الغلة. قررت أن أبقى على السطح دون أن أجدش جلد البراءة، أن أتحدث بعموم لا يطعن، ولا يُبرئ. كنت أعني تمامًا أن من يستدعونه للشهادة هنا، هم ليسوا بحاجة لما يعرف- بل ليثبت ما يعرفون. وأنا، بكل ما أحمله من شك وتوجس، لا أرب أن أستخدم كأداة في ذلك التثبيت. ما أصعب أن يطلب منك أن تؤكد تهمة أنت غير مقتنع بها، عندها يكون قولك سكينًا في خاصرة الغائب. لأنني مؤمن بأن معظم الذين يدخلون دائرة الأمن هم أبرياء في النية والغاية.

لا أستطيع أن أزور الحقيقة. لكني أيضًا، لن أكون مطرقة في يد من وطني بهذه الشهادة دون أن أعلمني بصلب القضية. لن أدين نيابة عنهم. ولن أبرئ لتبرئة ضميري فقط. سأقول ما لا يهين، وما لا يجمّل، وما لا يزيد النار حطبًا.

قد يتطرق المعني إلى العبثية التي يجدها متفشية بين مخلفات الأنظمة القسرية والفسادة، قد يصدم بتعقيدات الشرائع، فيتهم بالانحراف والعبث.. هؤلاء المساكين هم شريحة واسعة من المجتمع وبالذات من الطبقة الفقيرة المسحوقة، يبغون تفسيراً لأوضاعهم، يبغون أن يتنفسوا هواءً نقيًا خالٍ من الشوائب، قابعون في جحورهم على ضفاف الأحلام والخيال وسط كم كبير من العقارب المحيطة بهم، يتأملون أطيافهم العابرة أن تصل دون أن تصل، وأطباقهم الخاوية تملأ دون أن تملأ..

هؤلاء حين تعبث بهم موجات الشد وسطوة قوانين الأنظمة المتعجرفة؛ تتحرك سنا بلهم بفعل الريح العابثة، فيستشعرون بالغبن والحزن، حيث تعجز قدراتهم على تدوير أمورهم

ضمن مجالات حياتهم البسيطة، فتجنح عجالات التفكير بهم خارج الإطار العام المحيط بهم، باحثين عن منافذ للحرية ينجيهم من عقدهم، خارج النمط المفروض من قبل تلك الأنظمة القسرية، بذلك تلفظ سنتهم ما يجول بقريحتهم، فتتهمهم السلطة بالانحراف عن المنهج المفروض وتدين أفعالهم..

فمن يبحث عن صوت الحق بين موجات السكون؛ لابد أن يقيد، أن يخرس إلى الأبد. تلك هي القاعدة الشاذة والسائدة المعمول بها للحفاظ على النظام القائم.

في عرف الأنظمة المتشددة؛ دائما ما تفرض الدولة سلطانها على رقاب الشعوب وبما تقتضي الحالة من وجهة نظرها، لتحافظ على جبروتها. عالم بلا منطق، مخزوق، مخنوق، ليس فيه نافذة للتنفس بعد أن كملت الأفواه؛ إلا بقدر ما تسمح به الدولة من جانبها، بحيث لا يكون لها تأثير على المسار العام الذي تريده، وبما لا يتعارض مع مصالحها واستمرارية بقائها.

الحرية ليست الفوضى، بل نظام يكفل للإنسان أن يكون ذاته كما الطير والشجر، لا أن يُرغم على أن يكون ظلًا تابعًا، أو عبدًا يتنقل بين الأيدي كما تُنقل الأوراق بين الموظفين بلا صوت.

لكن في عصرنا تخالنا صور الحرية التي نبحث عنها في داخل أنفسنا مبهوتة، مغشية بالهم والدم، بعكس ما نتمناها.

دائماً ما تكون قابعة خلف أسوار المستحيل، كلما سعينا نحوها، تنهأوى أمام أعيننا كضباب يتلاشى. نهجس بأن كوكب الحرية لا يدور في مجرتنا أبداً.

سألت ذلك الاصلع مستفسراً.....

- بالله أخبرني ..شاهد عن ماذا؟ وضد من؟
- قال: لا تستعجل الأمور، ستعرف كل شيء.

كان قد دون اسمي، عمري، وظيفتي، وعنوان سكني. سألني عن نسبي وعشيرتي، عن قوميتي، وعن تفاصيل لا تُذكر إلا حين تُساق الأقدار إلى حيث لا فرار. ثم رفع بصره عن الأوراق، نظر إليّ كمن يزن خطواتي، ورمى السؤال بثقل لا يُرد:.....

- في يوم 5\2 من شهر مارس الماضي، كنت برفقة حسن و داود خلال ذهابكم للمدرسة، متنقلين من جلولاء إلى خانقين، مستقلين باصاً صغيراً ذو اثني عشر راكباً. ماذا قال حسن خلال الطريق؟

كان السؤال بسيطاً، لكنه في داخله فخٌ مكشوف، حفرة بلا نهاية. أي كلمة قد تحمل وزرها، أي تردد قد يكون دليلاً ضدّي. رأيت عينيّه، جامدتين كقطع الحديد، تنتظران مني أن أُلقي بالكلمات في حوضه المعدني، ليدوي صدى الاعتراف عالياً في أذنيه. ليدون ما أقول....

الهواء أصبح أثقل، وكأن المكان بدأ يُحاصرني بأسوار غير مرئية، جدرانها ليست من حجر، بل من نظراتٍ تنتظر مني الإقرار.

كان عليّ أن أتماسك... كان عليّ أن أختار كلماتي بعناية...
كان عليّ أن أكون شاهداً دون أن أكون ضحية أو آلة حادة تبتز الضحية.

أحيانا الإنسان ينسى ماذا فطر في صباح يومه، فكيف بي أتذكر تفاصيل حَدَثٍ عابرٍ حَدَثَ قبل شهر بالتمام والكمال؟...
فتركت الفكر يجول في ذكريات أمس، يعوم في مستنقعات الذهن وأغواره عسى أن يلتمس ومضة لها علاقة بتلك الرحلة المشؤومة دون أن يحصل ذلك، دون أن أرسى على حجر.
حاولت قدر الإمكان أن أتذكر شيئاً مما جرى بيننا دون جدوى!. كأنني تهت في فلاة الرحلة... عبثاً حاولت أن أجد منفذاً في أدراج الذاكرة لأنفذ منه، كأنني تهت في محطات الصخب التي أغشت انتباهي.

بت أنبش الماضي بمخالب الفكر، دون أن أعثر على ما يبتغيه ضابط الامن لأرضي مبتغاه. دون أن أجد كمأة واحدة تحت غبار الخوف والزمن أقنع بها هذا الأصلع الجالس قبالي.
برحت أبحث في أغوار الصحف عن عنوان ما يشدني، عن غرة تكشف لي وجه الحدث المخفي، عن صرة تقنع ذلك الوحش بمكنونها.. لا جدوى، غطلت المسارات، كأن الأحداث تبخرت من الذاكرة، دون أن أستطيع تخطي حاجز العجز الذي تكبلت به. الغشاوة أظلمت فكري تماماً، أعمت بصيرتي،

كأنَّ وشاح القلق غطى على لوحة أمس بالتمام والكمال،
فمحي كل تفاصيل تلك اللوحة عن شبكة الذهن.

لم أدرك شتل عود واحد مما كان قد زرعه حسن في تلك
الرحلة اللئيمة، لم أتذكر شيء قط. كانت معاناتي في التذكر
واضحة لضابط الأمن، بقيت مترنحا على محراب الصمت،
مراوحا دون أن أبرح مكاني، لم تسعفني الذاكرة أمام جلجلة
الحدث والمفاجأة التي داهمني بها.

أجبت بهدوء مستغربا سؤاله:.....

- أخي الكريم أحاول أن أتذكر شيئا ولكن الذاكرة لا
تسعفني، إذا ممكن تذكرني بصورة ما..

حينها قال لي:.....

- ماذا قال حسن بخصوص انتخابات قادة الكرد؟..

(أول انتخاب حصل بين السيد مسعود البرزاني رئيس
الحزب الديمقراطي الكردستاني والسيد جلال الطالباني رئيس
الاتحاد الوطني الكردستاني قبل يوم أو يومين من الرحلة)

حينها قدحت في ذهني شرارة الانتخابات فاقتنصت شذرتها،
تذكرت ما قاله بخصوص نسبة الفوز التي ذكرها حسن، فقلت
له...

- نعم تذكرت.... لقد قال جرت الانتخابات بهدوء تام،
وقد فاز مسعود البرزاني بنسبة 50 وكسر، فيما فاز
جلال الطالباني بنسبة 49 وكسر.
- غير ذلك ؟

صارت الأحداث تطفح في الذهن وتتبلور وتتكور لتكون أكثر
بريقا ولمعانا، كاللآلئ المنثورة تحت سطح مجرى الذاكرة
بحيث تبرق حين تخطف ومضة من انعكاسات اشعة الخوف
عليها. وكأنه أفسح الغبار عن الذهن تماما. بدأت أجمع شتات
الكلمات وأرتبها في جمل تستطيع تبرز المعنى، بانئت لي لوحة
الحدث أكثر بروقا، أهجس بها كجدارية نفضت عنها غبرة
الزمن فالتمعت المواقع في ذهني، فبانئت فيها معالم الحدث
بوضوح.

سبحان الله، كم هو عظيم ومنظم العقل، بحيث تجد نظم جهاز
الذاكرة في جسم الإنسان أشبه بجهاز كومبيوتر مبرمج بذاكرة
لا تنضب، يعرض لك جملة صور لتنتقي منها تلك التي تكون
أكثر سطوعا ووهجا عن غيرها، لتسترد منها ما تحتاجه طبقا
للظرف والحالة...فقلت له:..

- أذكر نكتة لطيفة قالها..... قال لي أذكرها:..
- ذكرت النكتة له. ثم قال:....
- شيء آخر تكلم به؟

جال فكري في بانوراما الحدث، فاقتنصت آلية الانتخابات التي نوه إليها حسن، حين أستغرب من ادعاء جريدة الثورة بانتخاب بعض الاكراد للرئيس صدام حسين، فأجبته:....

- كان داود قد جلب جريدة الثورة معه، وكان معنون في صدر الجريدة مانشتت بارز وبخط عريض، تدعي الجريدة (بأن بعض الأكراد انتخبوا السيد رئيس الجمهورية صدام حسين)!... فهو هنا أنكر ذلك مبررا بأن الانتخابات كانت قد جرت من غير أن تدون فيها قوائم أسماء المرشحين، أنما وضبت وفق طباعة صورة السيد مسعود والسيد جلال الطالباني لتفشي الأمية بين صفوف الأكراد. موضحا؛ فمن غير المعقول أن تدرج صورة الرئيس صدام مع صورهم.

- غير ذلك ؟

- اعتقد هذا كل ما جرى داخل الباص.

- بخصوص السيد رئيس الجمهورية الله يحفظه، ألم يتهم عليه؟ ألم يسبه ؟

- يا سيدي أنت بذاتك قلت كنا جالسين داخل العجلة، هناك أناس تجلس خلفنا وآخرون يجلسون أمامنا، فمن غير المعقول أن يتجرأ على السيد الرئيس وإلا سيكون فرجة أمام الجميع، إن سكتنا فالناس لا تسكت.. ولا يمكن أن تصل به الوقاحة والجرأة إلى هذا الحد.

عندها علمت بأنه برتبة رائد حين دخل أحد المنتسبين للغرفة وفي يده رسالة، قائلا:....

- سيدي الأمر يقول دع الرائد حميد يطلع على هذه الرسالة....

عندها دعاني إلى التوقيع على مضمون اعترافاتي التي دونها شرطي الأمن، والتي لم استطع قراءة ما دون، نتيجة ضعف الخط من جهة، والارتباك المخزون في أعماقي من جهة أخرى.. إضافة إلى أنني لو قرأت الإفادة ودققت بما دون لربما أصفع من قبله، لتجراً وعدم ثقتي بهم.

ما أن أنهى تحقيقه معي حتى هجست كأنّ جبلاً من الهم قد أزيح عن صدري، ما إن وقعت على الإفادة، حتى شعرت وكأنّ الزمن انحنى قليلاً لييسر لي بالعبور لجهة أمنة. كأنني كائنٌ خرج لتوه من نفقٍ مظلم طویل لجهة النور، كانت فيه الخطوات مكبّلة بالخوف والصوت مغيّباً بالفزع داخل قمقم الوجس.

في تلك اللحظة هجست بشيء من الحرية، أفلت من قبضة قدرٍ كان يتهياً لالتهامي. الهواء الذي كان في غرفة التحقيق خل من الاوكسجين...

ما أن سمح لي بالمغادرة حتى هجست به فك عقدة الحبل عن رقبتني وساقني، دمائي التي كانت محبوسة تنتظر بصبرٍ حريتها، عادت لتنبض دون خوف، عندها أحسست بشيء من الراحة لا أظن أنني سأستشعر بها مجدداً.

لم أصدق نفسي وهي تفلت من ذلك القيد الثقيل، كأنني أُعيد تشكيل ذاتي من جديدٍ. سمحوا لي بالمغادرة، والأهم خرجتُ

سالمًا من ذلك القمقم دون أن تصيبنني عاقبةً لا تُرد. صرْتُ
أبحث عن أقرب طريق إلى الشارع العام يُعَدني قدر الإمكان
عن شبح تلك الدائرة المليئة بالكوابيس.

وبخروجي، هجست في داخلي وكأنني قد انسلختُ عن
الأصل، كأنني عبرت بوابة الميلاد من جديد. ومع ذلك، بقي
سيناريو الحدث يتكرر في ذهني بكل تشعباته، كأنَّ شريطاً
يُعاد عرضه دون إرادة مني؛ تفاصيله متشابكة كأنماطٍ حلمٍ لا
ينتهي، بداياته واضحة ونهاياته متفرقة تتجاذب بين الإدراك
والغموض.

لكن الشيء الذي ظل عالماً في فكري ولم أتمكن من انتزاعه،
هو الرابط الذي جمعني بغراب البين؟ وأكثر ما أثقل تفكيري
هو ذلك الغراب الذي أخفى وجهه خلف ستار الحدث، والذي
أوشى بي وجعلني شاهداً في قصته دون مقدمات. تخفى ذلك
الغراب خلف حاجز الشك، وهو يراقب الاحداث بصمت،
تاركاً أثره كظلٍ يتبعني أينما ذهبت..

لم أصدق ذاتي وهيَّ تفلت من القيد الذي تقيدت به، لأتمكن
من استعادة نفسي التي افتقدتها داخل دائرة الأمن. متأملاً أن
أمسك الشارع العام كي أفلت من العيون المتلصصة وشريط
الاحداث يعيد تقلب ذاته في مخي....

عندها تذكرت بؤس وجه داوود وهو يستمع لقلات حسن،
تذكرت هدوئه والحزن الكابد في ملامح وجهه الأملط.
تذكرتُ السطوة الشاخصة في وجه الرائد حميد، والجفاء الذي

يتميز به شرطي الأمن المُبلِّغ في ثانوية السعدية، وعطفة مدير المدرسة الناعمة. تذكرت بهجة حسن وفرحته بتحقيق الانتخابات وتفاؤله بالقدام من الايام، وكأنه أمسك بالعروة الوثقى، في الوقت الذي به كان الوطن يعاني من نكسة مذلة أمام العدوان الأمريكي وحلفائها بعد خروج العراق مكسورا من الكويت.

ما أن خرجتُ لفضاء الحرية، مبتهجا، معافى؛ حتى شطت غصة في القلب، هجست بذاتي قد تورطت في قضية لا أعرف أبعادها ولا عمقها ومداه ونهايتها، وأن كانت لا تمسني بالشكل المباشر، ألا أنها تترك ندبا في ذاتي وجرحا لا يندمل، من حينها بت احتاط من محيطي العبثي الذي لا يرحم...

ثم أنها مشكلة واضحة المنشأ، قضية ليس لها أساس دفين سوى قشبة غلظ وتلفيق أريد بها إذلال أستاذ حسن، لكونه فيما سبق كان قد ألغى انتمائه لحزب البعث الحاكم، أي أن المسألة في جوهرها كيدية صرفة، وفيها إنَّ.

إذا هناك من حفر الحفرة وعمق الهوة تحت أقدام حسن، شخص ما يختبئ تحت ظلال حقد دفين، لن استطيع تحديد هويته، مجهول الهوية، لا يود أن يظهر ذاته المريضة على الساحة أمام الملاء، فالكتمان والغموض سلاحه، وهما وسيلة وصوله للغاية المرادة....

في عالمنا اليوم، كثر الذين يسعون إلى ارتقاء سُلّم المجد على حساب هفوات الآخرين. أصبحت هذه الحالات دارجة في المجتمع، نتيجة الحقد والحسد والابتعاد عن نهج القرآن. هي ظواهر مشوبة بالتمغظ والمطاطية، تتبع درجات التربية الأسرية واليقين بالله، لا نعمة الإرشادات الوظيفية والحزبية التي يلهثون خلفها تحت سلطة وهمية زائلة.

تجد الشخص يتمطّط مع الحالة بحسب شدتها، وقد تكون مزاجية لها دور في بلورة نتيجة ما. فالأمور تمضي وفق ما تبتغيه المصلحة الذاتية والحزبية، لا وفق القيم والأخلاق السامية. وقد تتحول العملية إلى نكاية تُفرض على المنكوبين بها، تحت ذريعة إرساء الأمن في الدولة.

بمجرد أن تلقفت القدم مسار الطريق، بدأت السيقان تخطو خطوات لاهثة كمكينة الحرث وهي تجهد في تسليك مسارها. المهم خرجت من دائرة الأمن محلّقا في الفضاء كطير فلّ من قفصه، وددت أن أهرب بعيدا عن دائرة الخوف، أن أقطع الفيافي لأبعد ذاتي عن الوسائس التي تلاحقني، ابتعد بقدر ما في النفس من طاقة إيجابية، انزويت في ديجور النسيان، خلف ذاكرة النوى، مبتعدا عن الوجوه الكالحة، الناشفة، التي لا تعرف الرحمة.

ما جرث من أحداث أنفة هي نتيجة طبيعة لظرف قاس ولد تلك الضغوطات، لكنها أضحت تشكل خطر على البعض؛ كان ممكن أن تضع القيد في يدي دون أن اكون مذنبا، كوني في نظر قانون الأمن قد تسترت على مجرم يبغض النظام! لذا

مع خروجي من دائرة الأمن طفق شعوري يبتهج في عالم الحرية، ينتشي بزهو وبصعيد أحاسيسي المرهقة. مضيت تحت أشعة الشمس المستعرة أبحث عن أية عجلة نقل تعيدني إلى البيت وأنا ممتن لذلك الاصلع الذي لم يمد يده عليّ، بت أحسب حسابا لكل شاردة وواردة تخصني في الحياة...

بعد أن خرجت من الدائرة المشؤومة، قطعت الشارع العام للجهة المقابلة، لأمضي مع المسار إلى مركز المدينة، وبعد أن قطعت مسافة 200 متر تقريبا، واجهني باص صغير يسير ببطء بمحاذاة الرصيف وهو يود تكلمة عدد ركابه، كان أحد الركاب مبرزا رأسه من النافذة وهو ينادي:.....

- سعدية نفر واحد .. سعدية نفر واحد.

مدينة السعدية تجاور مدينة جلواء التي أسكن فيها، فهي لا تبعد عنها سوى عشرة كيلو مترات فقط. لذا أشرت له ليتوقف.....

ارتقيت الباص عند الواحدة بعد الظهر، غارقاً في صمتٍ مطبق، وكأنّ السكون اختار فاهي ملاذاً له. كان ذهني منشغلاً بكليته، يعيد عرض ما دار بيني وبين ضابط التحقيق؛ ويكرر صور ما جرت من وقائع داخل الباص. ذلك الحديث الذي ما انفك صار يطاردني، تفاصيله ترنّ في أذني كأنّ القضية لم تنتهِ بعد. لم تكن تلك سوى صفحة من كتاب الارتباك، إذ تسلّلت إلى ذاكرتي مشاحناتي مع حسن وداوود داخل العجلة

صباحًا ونحن في طريقنا إلى المدرسة، فكأنَّ الموقف يعيد تكرار نفسه، بتوتر وإرباك دون إرادة.

كنت أحلّل بعَمق علاقة المدير بالحدث، تلك العلاقة التي لم تكن مباشرة، لكنها تجلّت بوضوح حين باغتني بنظرة كشفت معرفته بأدق خفايا القصة. هكذا من شدة شرودي وانشغال فكري في تحليل العقد، بت لا أبرّء المدير، بتلك القصص شغلت نفسي حتى بلغت السعدية دون أن أشعر بطول الطريق أو بمشقة السفر كما في الذهاب.

في رحلة العودة، شعرت كأن وسيلة النقل خرقت حاجز الزمن، كأني ركبْتُ البُرّاق في رجوعي، كأنها وسيلة فاقت سرعة الصوت، كَشَطَّت المتاعب عن الذهن، عكس رحلة الذهاب المليئة بالشجن والتحسب، فبدا الطريق الإياب أقصر بكثير من طريق الذهاب، لسرحان فكري وإسهابي في البحث عن لغز المتاهة الدائر في خلدي.

فقد كان ذهني مبعثر في أمكنة مجهولة، يطارِد خيوط اللغز المتشابكة، على الرغم من أنَّ الباص كان أبطأ بكثير من عجلة تكسي الذهاب، إلا أنني لم أشعر خلاله بطول الطريق. خلال ذهابي لدائرة الأمن كنت أعاني من هم ثقيل أشقى كياني، بينما خلال العودة كنت انشغلت في سر العقدة التي حاكها غراب البين، ذلك الذي وشي بي دون حق. مع أن الباص توقف كثيرا خلال الطريق لنزول الركاب بأماكنهم، إلا أنني هجست به قد تجاوز سرعة الزمن، كأنه ود إخفائي عن الانظار.

عند وصولي لمrab السعدية وجدته فارغا كالعادة من عجلات الأجرة بسبب شحة البنزين، خلال أنتظاري وجدت أحد التلاميذ من الذين كنت قد درستهم في السنوات السابقة دون أن أتذكر اسمه وشكله، لكنه تعرف عليّ حين شاهدني مزروعا في المرأب؛ فحن عليّ ولم يتجاوزني، منعته تربيته وأخلاقه، فأبى إلا أن يوصلني لمأربي، فأوقف عجلته أمامي قائلا:....

- تفضل أستاذ عصام أنا ذاهب إلى جلولاء أوصلك في طريقي..

أقلني متفضلا لمدينة جلولاء دون أن يقبض أجرة النقل طبعاً، لا أعلم أن كان يعمل بسيارته الخاصة بسبب الحصار أم كان مارا بمحض الصدفة في الطريق..

رجعت للبيت ولم أكلم أحدا خلال عودتي، سالكا طريق الوادي الخالي من الزحمة كي لا ألقى ثثارا يكتم أنفاسي ويعكر مزاجي وأنا مصدوع نتيجة التفكير العبثي الملج في راسي وفي أصل القضية...

بعد أن وصلت البيت بقيت خانسا فيه بحيث لم أخرج لحدود الشارع في ذلك اليوم قط، مفتشا عن السكون في خضم تلك الفوضى الدائرة في بالي، محاول تذكر تفاصيل الحدث والبحث عن هوية غراب البين بين صفحات الايام، محاولا معرفة لغز مدير المدرسة ودرجة علاقته في القضية. مبتعدا عن المنافقين الذين يبحثون في القمامة عن العرة.

الفصل الثاني

1- قلق حسن

لم يكن حسن سوى إنسانٍ عادي، لكن إيمانه بالفطرة والإنسانية كان مطلقاً. يرى العالم بمنظار النية الصافية، ويزن القلوب بميزان طبعه، دون أن يشكك في المقابل أو يحسب ما تملّيه قوائين الحذر. لا يضع افتراضات مسبقة حول نوايا البشر، لأنه يؤمن أن العلاقات تُبنى على الصدق والنية، لا على الالتفاف والمراوغة.

في زحمة الفوضى، كان يتحرك بنقاء النية، كمن يسير وسط الضجيج دون أن يسمع شيئاً من حوله. ومع ذلك، كان يعلم في أعماقه أن هذا الصفاء قد يجعله عرضةً للخذلان. بساطته جعلته شفافاً، مرئياً لكل من حوله، سواء كانوا رفاقاً مخلصين أم عابرين في فرص العمل.

حياته لم تكن قائمةً على المراوغة، بل على الانسجام، مع فكرة أن الطيبة ليست ضعفاً، وأن الإنسان مهما تغير العالم من حوله، يبقى انعكاساً لما تربى عليه. يعيش بالكفاف، يقتات على رزقه المستور، لا يطمح إلى فائضٍ يشغله عن فطرته.

بقده الميأس، بطلته المعتدلة وابتسامته التي لا تفارق شذقيه تلك التي يوزعها بكرمٍ على من حوله، صار أشبه بأيقونة أصدقائه. حيث يعد اللطف لغةً في قاموسه، به يفسر عمقه للآخرين. لم يكن حسن يسعى لأن يبرز ويلاحظ في الوسط قدر تطبع طبع به، لكنه كان حاضراً كظلٍ لا يثقل المكان قدر أن يمنحه وجوده.

وفي قلب زملائه، لم يكن مجرد زميل، بل مرآةً تعكس الجانب النقي للعلاقات حين تخلّص من الحسابات الدقيقة والمنافع الخفية. ينسج علاقاته كما لو أن العالم خُلِق بصفاءٍ لا تشوبه الخديعة. لا يحسب خطواته ولا يقيس احتمالات الغدر، فهو ابن عفوية مطلقة، يبني جسور التواصل بنية صافية لا تعرف الالتواء.

يعد حسن بحسابات العلاقات الاجتماعية طفلاً بليداً بحكم اللين وال عفوية الزائدة التي يتصف بهما في تعاملاته مع الآخرين، كان قد أَسْتَنَد في حساباته المطلقة على النية والثقة الزائدة بالمحيطين به، لصفاته التي تسيطر على مجمل سلوكياته..

خلال فترة تعرفي عليه طوال مدة عملي في مجال التدريس في ثانوية خانقين ثم في متوسطة خانقين، لم أجده يوماً مهتماً بأمر يخصه، قدر اهتمامه باختصاصه وشيأكته الذي يعشقها كمدرسٍ للغة العربية والتزامه المستقيم بمنهجه الديني. كان ضالعا في اللغة ومتمكنًا من أسرارها، منغمسا بمعانيها، لقد أحب اللغة وتعمق بها كونها عماد الدين والتقوى.

لقد أتصف بعلاقة حميمة مع تلامذته، تركت صحبته فيهم والمبنية على أساس تبادل الألفة والمنفعة والمعرفة المسبقة احتراماً متبادلاً بينه وبين التلاميذ، ما عزز من مكانته لديهم، لجديته من جهة ولكونه من أبناء المنطقة من جهة أخرى، لذا ترفع بتلك العلاقة لدرجة الصحة والمرونة، فكان نموذجاً حسناً من وجهة نظري ونظر إدارة المدرسة وبقية الأساتذة..

ظرف الحرب مع إيران جعلته يقطن مدينة جلولاء بعد أن هُجرَ من مدينة خانقين قسراً، بعد تعرض بيته لقصف عشوائي من قبل مدافع القوات الإيرانية أبان حرب الثمان سنوات بين البلدين، حيث لا تبعد مدينة خانقين عن حدود إيران سوى بـ 5 - 10 كيلومترات فقط، بينما تبعد جلولاء بأكثر من 30 كلم.

حين قطن مدينة جلولاء بقي معزولاً، محدود العلاقات، منزويًا بين شلة من معارفه القدامى، وبالذات أصحابه من الوسط التدريسي والذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. معظم هؤلاء كان قد تعرف عليهم قبل أن تطأ قدمه جلولاء...

لذا دائماً ما كان يذهب لمدرسته في خانقين ويعود منها وحيداً دون رفقة أحد إلا ما ندر، وبعد عودته يكاد ينزوي في داره حتى صباح اليوم التالي بجوار طفليه وزوجته التي يعشقها ويكن لها احتراماً شديداً..

عرفت منه أنه يشغل ذاته بتحضير مادته وتجهيز أوراق عمل للتلاميذ وينشغل في تصحيح علاماتهم.. الخ من أمور يشغل ذاته بها، إضافة تحضير متطلبات البيت ورعاية أطفاله بالحسنى.

بعد معرفتي به بحكم العمل المشترك والصفوف المشتركة التي كنا ندرسها، وكوني من سكنة مدينة جلولاء قبل أن يقطن بها حسن، تطورت علاقتي به وارتقت من درجة الزمالة

لدرجة الصحبة نتيجة لتواتر لقاءاتنا داخل المدرسة وداخل مدينة جلولا؛ تعمقت علاقتي به بعد أن اكتشفت صفاء معدنه، عُمِدَتْ تلك العلاقة بمكوكية رحلاتنا الروتينية بين جلولا وخانقين خلال توجهنا للمدرسة.

لم يكن لنا عجلة خاصة نقلنا، فكانت الباصات الصغيرة ذات الاثني عشر راكبًا هي واسطة نقلنا للمدرسة، تحمل أحاديثنا الصباحية وأفكارنا المبعثرة بين محطات الدراسة والحياة. في ذلك المرأب نسجت خيوط النوم قبل أن تبدأ الرحلة، فسكون اللقاء نقطة انطلاقٍ نحو يوم جديد، ففسير معًا كما لو أن الطريق نفسه يشكّل جزءًا من حياة المدرسة حيث يمتد الحديث إلى عمق مشاكلها.

تكرار الرحلات قربني منه أكثر، لم يكن مجرد رفيق طريق، بل نافذة لرؤية ما خلف الدروس ومشاكل التلاميذ، صرت أقرأ في ملامحه ما لم تبح به الكلمات، وأدرك كيف ينتقي من حوله بحدسٍ خاص. لن يعبر عتبة بيته إلا حين يجد ضرورة لذلك، أو عندما تدعوه رغبةٌ داخليةٌ لكسر طوق الروتين الممل.

كان محاطًا بدائرةٍ من الأصدقاء الذين اختصهم بالقرب، كأنهم امتدادٌ لروحه، يشاركونهم تفاصيله في ساعات التجوال، على أرصفة المدينة وفي أسواقها، حيث تختلط الأصوات بروائح الأزقة والمحال، وحيث كان يجد في الحركة ملاذًا يخفف به من ثقل الأيام ورتابتها.

البيت بالنسبة له لم يكن قيدًا، لكنه كان حدودًا للاحترام، واضحةً بين الخصوصية والعالم الخارجي، لا يتركه إلا حين تدعوه الحاجة، أو حين يشعر بأنه بحاجةٍ إلى لحظةٍ خاليةٍ من الجدران، لحظة يتنفس فيها شيئًا آخرًا من الحرية.

خلال رحلة حياته كان يتأمل وضع أرقى وأنعم من تلك التي كان يعيشها كحال بقية العراقيين بالكفاف، الذين تأثروا بالحرب الطويلة وتحملوا نغصة الحصار اللئيم الذي كان في بداياته، لقد كثرت المصائب على رؤوس العراقيين بجماحتها وقروؤها وقرفها ومنغصاتهما وغاياتها، تلك الأوضاع انعكست على نفسية الفرد بالسلب مع تواتر الأيام وانحدار حالة الاقتصاد والأمنية، وبالذات مع تدهور عملة الدينار العراقي أمام الدولار الأمريكي وأثاره البائنة على اقتصاد البلد والقدرة الشرائية للمواطن. ناهيك عن بحر الدم الذي أريقَ على مدى سنوات الحروب، ذلك ما انعكس سلبا على تماسك المجتمع بعد أن صارت أسعار المواد لا تطاق مع استمرار انحدار سعر الدينار وثابت سلم الرواتب..

قبل حرب إيران والعراق كان الدينار العراقي يعادل ثلاثة دولارات وعشرين سنتًا، بعد أن خرجنا من حرب إيران صار الدينار يعادل الدولار في القيمة، كان رمزًا للقوة الاقتصادية التي تماسكت رغم العواصف. لكن مع انتهاء حرب الكويت ودخولنا نفق الحصار، انهارت العملة، أصبح الدولار الأمريكي يساوي ثلاثة آلاف دينارًا، وكأنَّ الزمن نفسه قُلِبَ موازينه، ليلقي البلاد في نفقٍ مظلم بلا نهاية.

تلك اللحظة كانت بداية التحولاتِ الكاسحة، لم تغير فقط المعادلة والعلاقة بين البشر، بل قلبت طباع الناس رأساً على عقب. أصبحنا نحاسب الأيام على القتر، لم نكن نعرف جلدتها وسخطها من قبل، نتساءل أين كنا وأين أصبحنا، كيف انتقلنا من القمة الألق إلى درك الانهيار؟ كيف صار الاقتصاد مجرد نبضٍ ضعيفٍ لا يقوى على مقاومة العجز المستشري؟.

لكن التأثير لم يكن مالياً فحسب؛ بل تسرب كحى شرسة إلى جسد المجتمع، شلّ قدراته وعواطفه، زعزع عقول أفرادهِ، واستحال إلى لعنةٍ ثقيلة جثمت على صدورنا. لم يكن مجرد أزمة اقتصادية، بل عدوى اجتماعية نقلت إلينا منغصات العصر: الفقر، القهر، التقشف، الضياع، والمأساة التي لا تنتهي. اجتمع كل شيء في كيان الفرد العراقي، حتى لم يبقَ أمامه إلا أن يُقاوم المد الكاسح أو أن ينهار.

تفككت العلاقات بشكل عام، صار الفرد يبحث عن نفسه بين الوجوه، توغل العجز في الذات والنفس ثم في الأزقة والأحياء. توسع الانفلات والاحتيال والنصب والدجل، حتى صار الغش أداةً للبقاء، وصارت الأخلاق رهينة الضرورة لا القيم. لم يكن الكره مغروساً فينا، لكنه نما كعشبٍ يقات على الفراغ الذي تركته الأزمات فينا.

ومع كل ذلك، تمددت أمراض العصر، النفسية والجسدية، كجذم تخرمش وجه الفرد في المجتمع، تترك ندوباً من الحزن واليأس لا تُشفى بسهولة، تسللت إلى الروح، صاغت الألم

بأشكالٍ عبثيةً، كأنها تعيد صب قوالب تشكيل الإنسان نفسه وفق معايير الانكسار والانهيار وما خلفه الحصار.

كانت العاصفة أقوى من أن تُقاوم، والبلاد باتت مختنقةً في قبضة الفوضى. صار الفرد يشبه وطنه؛ مهزومًا من الداخل، مرهقًا، تتصارع فيه التناقضات، الأيام لا تستطيع أن تُعيد تشكيل قطع أحجيته المبعثرة بين شجون العقد المتفجرة، كأنَّ الزمن بات سلسلة من تاريخٍ لا يريد أن ينتهي.

ذلك ما دعا حسن إلى أن يتعلق بكفاف العيش الكريم متمسكا بمرتبته، منزويا خلف كرامته وديمومة عمله في الحياة، ضمن واقع تلك الضغوطات، متمسكا بقناعة الرزق رغم شحة روافده، حفاظا على أسرته، ملمعا صورهِ في عيون رفاقه ومحبيه بالبساطة المعهودة التي أتصف بها، وبالطيبة التي يتغنى بها.

تحت وقع ذلك الظرف؛ بقي حسن مترنحا بين الفاقة والجلد دون رضا النفس، بقي يعالج أزماته وبما يستطيع، والتي ما عادت ثغراتها تسد، بل صارت تتوسع مع الأيام. ما عادت تنفع الجهود مع فلتان الأمور. في الحقيقة؛ الأزمة كانت مخططا مدروسا من قبل أمريكا مسبقا، كما قال الرئيس الفرنسي الأسبق جاك شيراك: من أن الرئيس بوش قد أبلغه بأنها ستكون آخر الحروب الصليبية، وكما نقل مسؤول مكافحة الإرهاب في المجلس القومي الأميركي ريتشارد كلارك حين قال؛ إن بوش قال بالحرف وهو يدخل مركز عمليات الطوارئ في ليلة 11 سبتمبر/أيلول 2001) we

يجب (are going to kick some ass). وهو ما معناها "يجب أن نبحث عن شخص أو دولة أو طرف نشبعه ضرباً". فالمخطط كان مهياً مسبقاً، ولكن دخول صدام الكويت أعطى مبرراً له لتدمير العراق الذي يُعتَبَرُ الرأس والحاجز الذي يمنع امتداد إسرائيل من التوسع في الشرق.

حينها أصبحت الحالة يرثى لها بعد أن قبع العراق بين المطرقة والسندان.. حينها تأزمت أوضاع الفرد العراقي داخليا بعد أن تحللت خارجيا بفعل أنزيمات العقد التي تخللت عروقه وجذوره، أضحى الفرد محدود الفكر والاتجاه، منصب باتجاه تدبير الرزق فقط، يعيش بالكفاف الممكن بعيداً عن الاحلام والتأمل.

كل تلك المنغصات والأزمات؛ أوقدت فتيل الحلم لدى حسن كشخص من القومية الكردية فكر بظفر قوميته على حساب الوطن، لقد تغير سلوكه، حاول إيقاد شمعة الانفصال وسط العتمة الطاغية.

كان قد تأثر بالمحيط السائد وبنظرية المستقبل للقومية الكردية في ظل أزمة الوطن، في لحظة انكسار هيبة الدولة والفوضى التي عمت أرجاء العراق بعد انسحاب قواته من الكويت وهو مثخن بجراحه من جهة، وتفاقم أثر الحصار على المجتمع الذي كان في بدايته من جهة أخرى.

لقد غرَّ بريق حلم عالق في ذلك السدم، انخدع بالبهجة المراوغة التي تشكّلت وفق ملامح الظرف، فانبثقت في ذهنه

صورة مشوهة للمستقبل، لم يكن يراها إلا عبر زجاج مكسور من الأمل الذي ظن أنه حقيقة قابلة للمس. وفي لحظة تيه، كان قد أفسد الأمر على نفسه؛ إذ لم تكن أحلامه سوى شرارة خاطفة اخترقت سماء ظنه دون أن تُضيء الحجاب الدامس الذي يحيط به.

كان ذلك في نهاية العام الدراسي 91-92، حين اختار أن يخلع عباءة الماضي، فقدم علنا استقالته من حزب البعث الحاكم بحجة أن الاكرد غير ملزمين أن ينتموا للحزب، كأنما أراد أن يقول بأن دوركم أنتهى لا اريد مواصلة دوري في مسيرة الحزب. باستقالته هجس كأنه يولد من جديد وسط واقع لم يكن مستعدًا لاستقبال استقالته.

كان إفاقة حلمه الوردي أقرب إلى المبالغة، كأنه أمسك بضفائر الوهم كأعمى متشبثاً به، غير واع بأن ذلك النجم الذي أبهره في السماء لم يكن نجما، بل كان شهابا حرق فكره حين حاول الإمساك به. لكنه في خضم هذا الإدراك المتأخر، أشعل رغبةً خامدةً في ذوات الآخرين، جعلته يتأمل للمرة الأولى أن يدرك حقيقة ما يجري حوله، بين السر والعلن.

ومع ذلك، لم تلبث تلك الومضة أن شطّت في ذهنه؛ فبهتت وسط السدم كفكرةٍ عابرة، تحولت إلى خيطٍ واهٍ في الأفق البعيد، تتقاذفها أمواج الظرف وتقلبات الواقع، وتعبث بها عواصف السياسة الداخلية والخارجية والعالمية.

كان الزمن حينها يحمل في طياته أوج الحنق الأمريكي – الصهيوني على العراق، يتبدّى بين الحين والآخر في قراراتٍ تُغيّر مسار البلاد. ففي عام 1991، وضعت الولايات المتحدة، بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا، حدًا لتحركات الحكومة العراقية بفرض خط الحظر الجوي عند خط عرض 36 شمالًا، فيما استقرت الطائرات الأمريكية المنفذة للحظر في قاعدة إنجريك التركية، ترقب المشهد من علٍ، كأنها تُعيد صياغة القدر بأسلوبٍ حسب ما تراه مصلحتها، من أسلوب لم يكن له أن يُقاوم.

تلك الوقائع لم تكن مجرد أحداثٍ سياسية، بل كانت كريح هبت في نفس حسن، حركت أفكاره الراكدة كما يحرك النسيم ذوائب سنابل الحقل. ارتفعت في داخله نشوة خفية، سُمِعَ حفيفها في المحيط من قبل البعض كنغمةٍ نشازٍ لم ترق لهم، كأنها نبضٌ خارج الإيقاع، يشير إلى خيطٍ من التمرد لم يُفصح عنه بعد.... وفي خضمّ ذلك كله، رسم لنفسه دون أن يدرك دلالة حنقٍ وبغضٍ في نفوس بعض زملائه، كأنه اقتحم بفكره المحظور منطقةً محرمة لم يكن ينبغي أن تطأها قدماء.

هكذا نما للحلم زغب في فكره، دفعه إلى بلورة الفكرة وزجها بين الملامء بشكل من الاشكال العبت والتطرف.. الخ، لتجد في المقابل معارضة كبلت يديه. كان قد شرع بالتغيير في داخل نفسه قبل الإحساس بالحدث، ودَّ تبديل اسماله الخشنة بأقمشة مداءة، خضلة، لينة، تقفه برد الشتاء...

تمسك بالحلم دون غيره، حاول تغيير اتجاه عقربة ذهنه نحو ناصية حساب يكفل له مجده، بقي يتأمل الومضة تسطع في العتمة، لقد أشهر تفاؤله في واقع ظنه وسلوكه، وكأنه لم يعجبه أن يبقى عراقي في الروح والنية.

ذلك ما كان واضحاً عليه وما كان يروج له في واقع محيطه دون الإفصاح عن ذلك بشكل علني، كان ينث تباشير فكره في عيون الغير دون أن يحسب لفعله ردة فعل، أرهق فكره وفكر الإدارة والحزب حين طلب إعفائه من تنظيم حزب البعث كونه من القومية الكردية- (بينما كان يشترط على أعضاء الهيئة التعليمية أن يكونوا منتسبون لحزب البعث، فيما عدا الأكراد خيروا بين الانتماء وعدمه).. تلك الرغبة المكبوتة في داخله كانت قد صرّت أذنيه، دفعته لفعل اهوج، فصار يتبع صخبها كالأعمى؛ حتى توحلت قدميه في مستنقع ظنه.

تلك هي الحقيقة التي سهى عنها، التي حاكت لغز الرواية وأوليات العقدة وابعادها وفكرتها، لقد تناولت القشور لبيان أصل عقدة الرواية. لم تكن أحلامه سوى تأويلات ساذجة أقنع نفسه بها ثم صدقها وحاول زجها في الوسط بطريقته الخاصة.

تأثر فكره باحتمال فكرة انفصال الأكراد عن العراق، فمضى يسلك دروبها الوعرة. تاه في مخمصة التفكير، ظل يدور في دوامة الشقاء، حائماً حول نفسه، عاجزاً عن إدراك مخرج ينقذه إلى برّ الأمان. بدلاً من فكرة الانفصال كان من الأجدى به أن يتشبث بالوطن، لكن ظناً منه أنه السبيل المستقيم، أوقعه

في المحظور. وفي الواقع، كان يجزُّ وراءه عربة الخيبة، لأن الانفصال لا يتعلق بالعراق وحده بل بالدول المحيطة أيضاً.

أنا أتكلم من وجهة نظر شخصية ليس إلا، وحسب ما توضحت لي معالم الصور قبل وبعد العقدة واسبابها الواضحة للعيان وكما سنرى طبيعة أحداثها بالتسلسل في نهاية الرواية.

وكان الرئيس العراقي الراحل جلال طالباني قد رفض دعوات الانفصال الصريحة، ودعا دائماً إلى التعاون العربي - الكردي. كان يرى أن حق تقرير المصير لا يعني بالضرورة الانفصال عن العراق. بل كان يفضل بقاء الأكراد كجزء من العراق الاتحادي الديمقراطي، مع التمسك بحقوقهم الدستورية الواسعة.

كان للظرف المحيط بالعراق أثرٌ عميقٌ في تشكيل اندفاعه، وكأنَّ الشيطان دفعه إلى ملامسة الحلم قبل اكتمال البدر، نافياً سطوة الشمس التي ممكن أن تجلي عتمة الوطن بلحظة. غابت عنه الحقيقة الواضحة، بل كانت مخفية تحت سطح الأحداث، فلم تزكم أنفه، ولم تدفعه إلى إعادة النظر في مساره إلا بعد أن تيقن أنه كان يعيش وهماً.

تلك التحولات لم تكن محض مصادفة، بل كانت النسيج الذي حاك فكرةً معادية لفكره داخل عقول بعض زملائه، كأنَّ البيئة نفسها تخألت من تناقضاتٍ صنعت له خصوصاً لا يعرفهم. أخطأ حين اعتقد أن بوسعه أن يكون بطلاً وقائداً ومبشراً لقضيةٍ تتجاوز حدود العراق، دون أن يدرك أن المسارات

التاريخية التي خاضتها البلاد لا تسمح لمن يسير فيها بأن
يظل محصناً من التجاذبات.

ظل يبحث عن اللغز، متشبهاً بمحور أجوف لا يحتمل أي ربح
عائية تعصف به إذا ما تحرك بيدق ما عن موضعه. كأنه لم
يقرأ صحف التاريخ، لم يدرك خطر العيون القانصة التي
تترقب، ولم يستوعب أن فكرة نزع ذاته عن الأصل قد تثير
حفيظة من حوله.

وهكذا، تورط في مخمصة لم يدرك مدى زنختها ولا
انعكاساتها، لا عليه فحسب، بل على مستقبله ومستقبل عائلته،
وكأن خطوته كانت باب عقد فتحه، دون أن يرى ما وراءه.

2- تحديات حسن

بدأت حكاية حسن حين قرر في لحظة صفاء وصدق أن ينسلّ من جوف حزب البعث، بعد سنوات من الانتماء القسري الذي فرضته الظروف وليس القناعة. قدم استقالته من الحزب في ربيع عام 1992 ، وكأنه بها قد أوقد شرارة الحقد والضغينة في نفوس بعض من تلوّنت ولاءاتهم وتكلّست قلوبهم على صيانة الحزب. لم ينظروا إلى مغادرته كحقّ مشروع حسب قرار مشروع للحزب والذي ينص " من حق المواطن الغير العربي من أن يستقيل من الحزب"، بل اعتبروا ذلك خيانة تستوجب العقاب.

من لحظتها ابتدأت الضغينة تكبر وتطفح على وجوه بعض كوادر الحزب، هؤلاء الذين يمثلوا دور المعالج والطبيب في المناسبات الحزبية، كأنّ حسن كان بمثابة الكشاف الكهربائي لفلزات المعادن البائسة التي تتغذى على شريان الحزب.. من حينها ظهرت لتلك الوجوه أنياب حادة خلف الأقنعة التي يرتدوها.... بدأوا ينسجون ضده التهم بصمت ونفاق، عندها انتقل حسن بينهم من خانة الرفيق والصديق إلى خانة العدو المرتاب منه. لم يعد مرحبا به ذلك الصوت ضمن العلاقات العادية، بل صار ضجيجاً يجب إسكائه وإبعاده. أصبحت علاقته بكوادر الإدارة فاترة، وخمه، هميمه، مقتصرة على صباح الخير والأعمال المدرسية الصرفة فقط. كأنّه ترك خلفه قروحا جلدية لن تندمل.

كان انسحابه كمن أزاح الغطاء عن مستنقع خفيّ، مستنقع كانت تطفو فيه طفيليات تستظل بمظلة الحزب وتتغذى على الولاء الظاهري تبعا للفائدة والمصلحة الخاصة. فبالنسبة لهؤلاء، الحزب لم يكن سوى وسيلة صعود السلم الوظيفي، أداة للتسلط، لا تعنيهم فكرة ولا مبدأ. ما أن خرج عنهم حتى فضحهم في تفعيل سلوكهم الوقح الذي أصبح واضحا كشوك يחדش من لا يواكبهم بفعل غلهم الدفون في الداخل.. وبما أنه فضحهم؛ لذا كان لازماً أن يُقصى ويعاقب.

على سبيل المثال حين يبتز أحد كوادر الحزب المتقدمة في الوسط الحزبي مواطناً فقيراً قبل أن يشرع بالعمل في دكانه الجديد.. يطالبه بدفع استحقاقات المنظمة الحزبية الشهرية على حسب ادعائه، ودون أن يحمل في يده كتاباً رسمياً أو حجة قضائية. فمثل هذا الشخص المتطفل على الحزب ومبادئه الذي يعيش كبكتريا العفن؛ هم من أساء إلى الدولة والحزب ومبادئه بشكل عبثي مقرف. ذاك ما جعل أبين الشارع يقرف الحزب والدولة.

أولئك الذين باعوا الذمم، لا تهمهم قيمة الإنسان، ولا جوهر الحزب بقدر اهتمامهم بتمجيد أنفسهم أمام القيادة، والتشبث بمصالحهم الشخصية والمادية. تاركين خلفهم أثراً لا يُمحى، وكأنهم يراكمون إرثاً من الجراح التي تنزف من شر أعمالهم، غير مدركين أن الولاء الحقيقي لا يُبنى على الخداع، وأن صورة السلطة التي يصنعونها لن تدوم لهم طويلاً.

لم يدرك حسن حجم الصدام الذي يقترب منه. فهو رغم رتبته التنظيمية كنصير متقدم، ظنّ أن استقالته ممكنة بلا عواقب، غافلاً العقلية السلطوية المسيطرة على الحزب آنذاك، حيث يُعتبر التخلي خيانة لا تُغتفر. ورغم أن القانون سمح للأكراد بالتوصل من الحزب، فإن الواقع كان أكثر تعقيداً من ورقة رسمية قدمها حسن لإدارة الحزب. فحسن، اعتُبر خائناً مزدوجاً: خائناً للفكر، وخائناً للوطن، في مرحلة كانت فيها الحكومة تراقب كلّ صوتٍ خارج الجوقة بعين الريبة، خاصة بعد حرب الخليج حيث بدء التمايز الجغرافي يطفح بين جنوب العراق وشماله تحت حماية المظلة الأمريكية، في الوقت الذي اتجهت فيه واشنطن إلى تحجيم سلطة بغداد عبر دعم مناطق النفوذ الكردي شمالاً والشيوعي جنوباً بالطيران.. الكثيرون من زملائه في الحزب كانوا يشاركونه الرغبة بالانفصال، لكن الخوف من العواقب جعلهم يلتزمون الصمت. أما حسن، فقد تجرأ وخاض التجربة وحده، معتمداً على براءة نواياه وسلامة موقفه وفطرته. عندها وجد نفسه محاصراً بشبكة من الشكوك والملاحقات الأمنية والمعنوية.

كانت استقالته متزامنة مع حراك القيادات الكردية بأجراء أول انتخابات رسمية بشكل علني، فنُسبت خطوته لغاية كدليل على نيّة انفصال دفيّة، رغم أنه لم يكن يحمل من ذلك الحراك سوى ظلال الحلم. لكن الحلم حين يكون في غير موعده، يُصنّف تهووراً، ويُحاسب المرء عليه وكأنه جريمة مكتملة الأركان..

تلك العقدة سحبت البساط من تحت قدمي حسن دون أن ينتبه، للطيبة التي كان يتصف بها. حينئذ التقطته كامرة المراقبة متلبسا بثرثرته المبالغ بها. بسلوكه العبثي كان قد خرج عن المألوف، هجس تصرفه لعبة يتسلى بها حتى شكته دبائيسها، عندها شعر بالألم والندم، أدرك مقدار انزلاقه وتهوره.

لم يكن حسن ناكصًا عن واجبه الحزبي، ولا متمردًا على النظام العام فحسب، بل كان عنيدا في موقفه دون مرونة رغم النصح الذي قدم له زملائه ومن قبل أعضاء من الحزب نفسه؛ إلا أنه ركب الموجة الجارفة حتى غص في تيارها...

لقد كان بطبعه المسالم ساذجا، لذا غص بساذجته في مستنقع العابثين من أمثال داوود الذين يعيشون على أكتاف الحزب كبكتريا العفن، صدّق ذاته أن من حقه أن ينتمي لمن يريد، أو لا ينتمي. لكن الطيبة لا تُغني في زمن الخوف، ولا الشجاعة تعفي من تبعات السقوط الحرّ. ومع تزايد المضايقات والتشنجات، بدأ يغص في تيه الأسئلة، دون أن يجد مرسى له في تيار بحره المضطرب.

الظلمة سائدة أغشت بصيرته، جعلته يتخبط في سيره، صار كمن يرطم رأسه بهذا الجدار وذاك الجدار، بحثا عن مخرج من نفقه المظلم، كأنه انتزعت منه عصاه السحرية، فوجد نفسه مضطرا للاعتماد على نفسه وظنونه في مواجهة عاصفة التغيير.

وبينما كان يظن أنه طوى صفحة نزاعه مع الحزب، باغتته
غربان الفقر وجحافل الشر من كل صوب، دون أن يشعر
بالهوة تتسع تحت قدميه، حتى هوى في غيب الجب.. ومنذ
تلك اللحظة، بدأ يدور في فلك الشك والحيرة، فاقدا ذاته تحت
سكرة التعصب والجنون.

لم يجد صبرا يعينه على جلده، ولا ندما يشفع له جريرته. لذا
انحدر مع القدر بلا حول، صخرة هوت لدرك صمته لثقل
قضيته. انهار عزمه، تلاشت أفكاره كسراب ظنه. غدا
مكسور الجناح، يرتجف تحت وطأة الخوف، تطارده أصوات
الشؤم وهي توشك إعلان ختام رحلته.

على الصعيد المهني، بقي حسن يؤدي عمله بتفانٍ. علاقته
بزملائه الطبيعية، صار يتصف بصمتٍ ثقیل، أكثر الأحيان
صار يتبادل النظرات مع زملائه دون كلمات. كان بينهم من
يقدّر موقفه، ومن يلزمه الحذر، ومن يراقبه خلسة بعين
الحزب. وحده الطريق بقي ثابتاً، يشق المسافة بين المدن، فيما
تشظت المسافة بين البشر.

3- لقاء الصدفة

في يوم 2 أيار 1992، بدا اليوم عادياً كغيره من الأيام، لكنه حمل في طياته لحظةً مفصليةً غيّرت مسار الأشياء. التقينا صدفةً في مرأب جلولاء؛ حين دخلت المرأب وجدت الأستاذ حسن ينتظر عجلة نقل ثقّله إلى خانقين، وما إن توقفت العجلة أمامنا حتى أنظم إلينا الأستاذ داود قادمًا من السعدية. اجتمعنا نحن الثلاثة في تلك اللحظة لنرتقي الباص ونجلس جنبًا إلى جنب في المقعد الثالث ما قبل الأخير.

كانت كراسي الباص مرتبة بأربعة صفوف، في كل صف ثلاثة مقاعد. المسافة الزمنية بين جلولاء وخانقين لا تتجاوز خمسة وثلاثين دقيقة، لكن ذلك الطريق القصير حمل في طياته أول لقاء جمعنا صدفةً معًا وآخره. وكأن اللقاء كان نقطة فاصلة بين واقع مألوف تخطيناه، وخيال بدأ يتشكل في الظلال، يرفض أن يسمح لتجمعنا أن يتكرر مستقبلاً.

ذلك التاريخ لم يكن مجرد يومٍ عابر، بل حدٌّ زمنيٍّ بين الصحبة العفوية والعداء النفسي، بين النية والبساطة والحسابات المكلفة. فيه تغيرت المعادلات، بدأت الأمور تقاس خارج نطاق السذاجة المعتادة بين الأصدقاء، صارت تقرأ، تدرس، ثم يعاد ترتيبها وفقًا لواقع جديد لم يكن يخضع للعفوية والطيبة. لحظات تجسد فيها ارتباكٌ ألغى بروتوكولات الصداقة وشرائع العرف. حالة وضعت القيد في المعصم، وأرغمت الجميع على إعادة تشكيل سلوكياتهم.

كان حسن الأكثر تأثراً بتلك العاصفة، إذ قابل تحديات قاسيةً أحجمت أفكاره وأطاحت بأحلامه، دفعت به إلى مطاردة ذاته التي فلتت من قبضة يديه، وكأنه فجأة صار بلا هوية واضحة. غدا العناء يشط بين عينيهِ، يهطل على رأسه كأجراس العذاب، يطوق ساقيه بالندم حتى استقى مرارته من كأس ذلك اليوم القاسي، ليعيد صياغة سلوكه وبلورة أحلامه تحت ضغط الواقع الذي فرض عليه عزلةً لم يخترها.

ذلك اللقاء العابر لم يكن مجرد لقاء؛ كأنَّ أعدَّ له في منهج البعض ليكون بدايةً مسارٍ لحسن لم يتوقعه أحد، مسارٍ فرض تغييراً علينا لا رجعة فيه، ترك أثره علينا جميعاً ليلتصق بالزمن الذي صنغته الصدفة.

لم يمضي الوقت كما عرفناه، بل أصبح مجرداً من الفرح، ثقيلًا، بليداً مفعماً بالعقد. في ذلك اليوم، انحرفت عقارب الزمن عن مسارها المعتاد، لم تعد تدور وفق النظام الذي ألفناه، بل استدارت عكس دورانها، وكأنها تمردت على روتين الأيام فلم تتخذ وجهة حقيقية لها، لما راغ فيها من عفص نفسي وحسي واجتماعي غير متزن، قلب الحسابات رأساً على عقب، أدخل حيواتنا في صيغة التنجيد والحذر والتبصر مما يحيط بنا، تحديداً فيما يخص حلم الأستاذ حسن، الذي بدا وكأنه وضع نفسه تحت المجهر أمام الجميع.

كانت الصدفة اللاعب الرئيسي في صياغة الأحداث، نسجت تفاصيل المشكلة بدقة، صاغت العقدة وعبثت بمكونات الفكر،

وانزلقت إلى حياة حسن العادية لتحدث بها شرخا لن يندمل، فأحدثت اضطراباً قويا في مساراته المعتادة.

لم يكن يوماً عابراً، بل حمل أثراً قاسياً على ارتباطاته العائلية، وعلاقاته الخارجية، وعلى دائرته الخاصة التي بدت فجأة كأنها فقدت توازنها. كان يوماً بليداً، معتماً أكثر من سابقه، كأنه نقطة فاصلة بين واقع كان سليماً، مستقراً، وبين حالة مجهولة توشك أن تتشكل من نوايا البعض.

التقيت بالأستاذ حسن وسط الفراغ القاتم الذي لف المكان، حيث كانت الساحة قد خلت من عجلات النقل المتجهة إلى مدينة خانقين. كان يحمل في يده كتاب اللغة العربية ودفتر التحضير، بينما كنت أحمل بيدي كيساً ممتلئاً بأوراق اختبار الرياضيات بعد تصحيحها وتدوين درجاتها.

مع قدوم العجلة؛ كان قد انضم إلينا الأستاذ داود، قادمًا من مدينة السعدية التي لا تبعد سوى 10 كم، يحمل في يده جريدة الثورة. لم يكن الأمر مخططاً له أبداً، لكن النية كانت مبيتة لحسن. جمعتنا الصدفة عند الساعة وسبع وعشرين دقيقة، لتبدأ رحلة غير متوقعة، رحلة لم يكن أحدنا يعرف أنها ستكون نقطة تحولٍ لمجرى حياتنا.

لم نمكث طويلاً في المرأب، ذلك المكان الذي يضج بالحركة في ساعات الذروة الصباحية، حيث يتسابق الناس لإنجاز أعمالهم والالتحاق بوظائفهم قبل أن يزدحم النهار بالتفاصيل

الثقيلة. لم ننتظر طويلاً، ما إن توقفت العجلة بجانبنا حتى امتلأت مقاعدها، لتنتقل بنا إلى المدرسة.

كان داود قد جلس وسطنا، إلى يمينه حسن، وإلى شماله أنا، كأنَّ الصدفة رتبت جلستنا بعناية غير مرئية لتحوك لنا القصة التالية.

كان داود يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً أسود، ينسجم مع حذائه المماثل ولون بشرته السمراء، وقد سَرَّح شعره الفاحم إلى الخلف بمادة الجل، مع لمعة من زيت إملا الذي زاده بريقاً. بدت جبهته العريضة واضحة في وجهه النحيف، وسمرته الناعمة منحت ملامحه هدوءً مميزاً، وكأنه على موعد مع لحظةٍ لا يعرف كيف ستتطور تفاصيلها.

أما حسن، فقد بدا أكثر بساطةً وألفةً، مرتدياً قميصاً أبيضاً من المخمل المطعم بالحرير، مع بنطالٍ بني يتناغم مع لون شعره وحذائه المربوط بأناقة. كان وجهه العريض الحنطي يفيض بابتسامةٍ دائمة، تلك التي تستقر على شفثيه دون أن تفارقها، يعززها شاربٌ بلون شعره، كأنَّ ملامحه تشكلت لتكون ثابتة في ذاكرة من يراه.

أما أنا، فقد كنت أرتدي بنطالاً أسوداً وقميصاً أزرقاً، لا أحمل في تفاصيلي مظهري تكلفاً، لكنني كنت جزءاً من المشهد، حاضراً كما الآخرين، دون أن أدرك أن تلك الرحلة ستكون أكثر من مجرد انتقالٍ عابر بين نقطةٍ وأخرى، فُدير أن تكون نهاية لتجمعنا.

انطلقت بنا العجلة نحو مدينة خانقين، والطريق بدأ يعد الكيلومترات بصمت وكأنه يعكس حال البلاد، السماء صافية، والشمس مرتفعة، لكن خلف هذا الصفاء اضطرابٌ خفي يتصاعد يومًا بعد يوم كغبرة تهجن المواقف والقيم والنفوس، وخاصة مع حصار جلف بدأ يشتد حره مع تقادم الأيام. درجة الحرارة تتراوح بين 30-35 درجة مئوية، فيما كانت كوكبة من الناس تملأ الشوارع، كلٌّ منشغلٌ بهمة، يسرع إلى عمله، وكأنَّ العجلة لا بد منها في تحركهم، وليست أداة نقل تقلهم ليتخطوا هروبهم المستمر من واقعٍ لم يعد يحتمل أواره.

لم يكن الزمن عاديًا تهجس بأن عجلاته صارت أبطأ وقعا مما كانت عليه، فقد بدأت فوضى الحصار تترك أثرها في كل زاويةٍ من المجتمع، تتغلغل في الأسواق، تتردد في المقاهي وبين أحاديث الناس، ترسم الوجوم على ملامح الوجوه، هموم لا تحتاج إلى كلمات لتُفهم. كان الجميع يحاول التكيف مع واقعٍ اقتصاديٍّ يزداد اختناقًا، لكن القدرة لم تعد بالإمكان مجارة الواقع. انحدرت الأحوال مع ثقل الغلاء، حتى باتت الأوضاع توشك أن تصبح كابوسًا يضغط على أعناق ذوي الدخل المحدود والطبقات الوسطى العاملة.

بات الحصار يمضي بلا هوادة، تاركًا خلفه شعورًا متزايدًا بالعجز، خاصة بعد أن تعاونت دول الجوار مع "الشيطان الأكبر" (أمريكا) في فرض القيود الخانقة على العراق. لم يعد الأمر مجرد أزمة اقتصادية، بل أصبح شبكةً متشابكةً من التحديات كبيرة، تسحب معها الناس إلى دوامةٍ من القلق

والترقب، كأنهم يسировون في طريق ضبابي لا يرى أحد نهايته.

مضينا بهدوء خلال الدقائق العشرة الأولى من الرحلة، كانت العجلة لازالت لم تتجاوز قصبات مدينة جلولاء، كنا قد وصلنا قرية حلوان ومنعطفات تلؤل وادي العوسج.. بعد تلك المسافة استغل الأستاذ داود الهدوء الدائر داخل العجلة بتصفح جريدته جريدة الثورة.

ما إن فتح الجريدة حتى انبسطت صفحاتها العريضة على افخاذنا، كأنها امتدت بأحضاننا بحثاً عن إجابة لضجيج الأيام. صرنا نسترق النظرات نحو العناوين البارزة، نبحث لا عن خبرٍ عابر، بل عن بلسمٍ يشفي ثقل الهموم التي باتت ملازمة للحياة.

لكن ما شد انتباه الأستاذ حسن لم يكن خبراً مألوفاً، بل عنوان يتصدر الصفحة الأولى، بخط النسخ العريض، يُعلن أن "بعض الأكراد انتخبوا السيد رئيس الجمهورية صدام حسين خلال عملية الاقتراع الحاصلة في كردستان". كانت الكلمات أماناً تُشبه لغماً انفجر بيننا، ليس بسبب محتوى الخبر فحسب، بل لما حملته من غرابة بالنظر إلى التعتيم الإعلامي السائد حينها، حين كان كل شيء يُصاغ بدقة ليبقى خارج مدار العيون مع غياب النت والموبايل في ذلك الوقت.

في تلك اللحظة، لم يكن الخبر مجرد سطور مطبوعة، بل أصبح ومضة تشعل الأفكار، تتلاعب بالمشاعر، وتضعنا في

مواجهة مباشرة مع ما كنا نظنه مستحيلًا. لم يصمت حسن، ولم يكن قادرًا على تمرير الأمر كما لو كان مجرد خبر عابر؛ على وجهه بدت ردة فعل غريبة، ابتسامة واسعة تحمل في ثناياها استهزاء صريحًا، كأنه بضحكته صار يفند كل حرف في الخبر دون الحاجة إلى كلمات.

أما أنا، فقد لامس الخبر مشاعري، لم يكن وقع المفاجأة سهلاً، خاصة مع التحولات التي تحدث في جسد الوطن دون أن تصل إلينا الأخبار بشكل مباشر. كانت دهشتي انعكاساً لصدى الصمت الذي أحاطنا للحظات، حيث لم يكن أحد منا قد توقع أن يواجه حدثاً كهذا في صباح عادي، تحت غطاء من تعقيم لا يتيح لنا أن نرى أكثر مما يُراد لنا أن نرى.

يا ترى؛ هل هناك انتخابات جرت وقعها في كردستان العراق؟ لم هذا التعقيم والتظليل الإعلامي الواضح من قبل وسائل أعلام الدولة المرئية والمسموعة والمقروءة على الشعب؟ يا ترى؛ ماذا يعني ذلك الخبر؟ ما مدى تأثير الحدث على العراق في المستقبل؟

حلت تلك اللحظة لتهز عرش الدولة، لتربك مكعبات أفكارنا بوقعها على مستقبل العراق من وجهة نظرنا البسيطة في حينه، هذا يعني حكومتان في جسد واحد لذا سترفق ذلك تناقضات تنعكس على حياة الشعب. ثم أن الخبر كان صادماً لنا، حل كلغم تفجر تحت أقدامنا دون مقدمات مسبقة. كان للخبر أهمية كبرى؛ كون هذه الانتخابات تعتبر هي بادرة تقسيم العراق من وجهة نظر البعض، وهي الأولى من نوعها

بين صفوف الأكراد تحت المظلة الأمريكية، هذا يعني بأنه سيتبع الانتخابات تفاصيل أخرى جديدة تلقى بظلالها على وحدة العراق، ربما تصل الحالة إلى ما يريده أعداء العراق من تقسيم وتفتيت وضعف الدولة.

كانت الحالة قد فرضت الأمر الواقع على العراق في تحد صلف لحكومة بغداد، التي ضعفت كثيرا عما كانت عليه قبل دخول مستنقع الكويت، وهذه تعتبر أول صفة مواجهة للرئيس صدام حسين بشكل مباشر بعد الانسحاب من الكويت، وهي رسالة تهديد صريحة بتجاه الانفصال. حتما هذه الانتخابات هُيئت لها منذ فترة طويلة، حُطِّط لها لاختيار صريح لرئيس حكومة كردستان..

الخبر لشدة وقعه علينا هزّ مشاعرنا، بحيث لم يصبر الأستاذ حسن على استكانة قط، أعترض بردة فعل قوية على صيغة الخبر، ناكرا صحة خبر الجريدة تماما، كأنه كان على دراية تامة بصيغة الانتخابات وما جرى بها.. مع ابتسامة استهزاء عريضة طغت على محياه من خلال صيغة التعجب الواضحة التي طغت على مشاعره المنافية لصيغة الخبر. لقد أظهر استنكارا واضحا بردة فعل مبالغ بها اتجاه الخبر، مكذبا جريدة الثورة وما دلت عليه، ما دل على أنه كان على علم بتفاصيل الحدث لإلمامه بأسلوب الانتخابات وأدارتها-- الخ.

لم تكن علامات التعجب والاستفهام على وجه الأستاذ حسن مجرد رد فعل عابر، بل بدت لنا كأنها تعكس تشقيهِ وفرحه المبطن بما آلت إليه حالة العراق المزرية. غير أن واقع الأمر

كان أكثر تعقيداً؛ كان يعلم جيداً ما وراء العناوين التي تُصاغ بخطٍ عريضٍ لتوجيه الرأي العام. أما أنا، فكان وقع الخبر عليّ مختلفاً، لم أكن امتلك المعرفة بما يجري في العتمة، هو ما أثر فيّ، بل المفاجأة نفسها اشعرتني بالذهول أمام حدثٍ لم أكن أتوقعه وأفكر فيه، وسط تعقيمٍ إعلاميٍّ حجب تفاصيل البلاد عن أنظارنا.

على النقيض من ذلك، أبدى داود سكيناً غير مألوفة، تقبّل الخبر دون تعليق أو انفعال، كأن الأمر لم يكن جديداً عليه، أو كأنه كان على درايةٍ مسبقةٍ بما يجري خلف الستار. كنت أنا الوحيد الذي انكمش داخل صمته، خائفاً على جسد العراق من أن يتفتت، من أن ينحدر إلى انفلاتٍ لا رجعة فيه، مقارنةً بالأوضاع الصلبة التي كان عليها قبل دخول الكويت. أما حسن، فقد كانت صدمته من نوعٍ آخر، صدمة لا تتبع من القلق، بل من السخط، إذ رأى في الخبر عازراً على الصحة، صياغةً لا تمتُّ للواقع بصلة، مما جعل ردّ فعله عنيفاً، يفيض بشيءٍ من الانتشاء، وكأنه يُكذّب الخبر بطريقةٍ تحمل في طياتها سخريّةً مرّة.

كان الخبر أشبه بفرقةٍ غير متوقعة، انفجرت في وسطنا، لتنتزعنا من لحظتنا العابرة وتجبرنا على إعادة النظر في ما يدور حولنا. شعرت بذلك الارتباك اللحظي ونحن ننتفض في مقاعدنا، وكأن الكلمات التي قرأناها قد غزت حسن بإبرةٍ من الكذب، اخترقت يقينه وأثارت غضبه المكتوم. لم يحتمل

السكوت، فانتفض معترضًا بشدة، وكأنما يريد أن يمحو الحروف التي وقعت أمامه من الجريدة بحدة رفضه.

أما داود، فقد كان مختلفًا، إذ انتفخت أوداجه بطاقة من الصبر والحيرة، كأنه بات يزن الأمور بعقلٍ تعود الهدوء، وليجمع ملاحظاته علينا كما يريد، دون أن يُفصح عما يدور بداخله.

وفي تلك اللحظة التي توتر فيها الجو بيننا، تساقطت أوراق حسن ليظهر حقيقة ما بداخله، مقتضبًا، أشبه ببالونة لم تحتمل حر الشمس، فانفجرت لتلقي علينا قرووها. علت وجهه علامات استغراب واعتراض مبالغ به، امتزجت صفرة البشرة باحمرار الألم، وكأنما الخبر قد أشعل فيه شرارة لا يمكن إخمادها بسهولة.

كشر حسن عن ابتسامة صفراء فيها استهزاء واضحًا، قبل أن يطلق كلماته بقوة، دون موارد قائلًا:....

- "كذب! كذب... والله العظيم هذا الخبر كذب! عارٍ عن الصحة، لا يمت للصدق بصلة! الاختيار في أوراق الاقتراع أعتمد على صور المرشحين، لا على اسمائهم، بسبب تفشي الأمية بين الكرد. لذا، لم تكن هناك إلا صورتا مسعود البرزاني وجلال الطالباني فقط. فمن غير المعقول أن تدرج صورة الرئيس صدام بينهم... ههههه."

كان يتحدث بموضوعية، وبنقطة مفردة تكاد تقترب من العمى، ثقة الواثق من نفسه كمن شارك في عملية الاقتراع بنفسه،

يعرف تفاصيلها دون شك. تكلم بحرفية وبحرقة، كأنه يدافع عن حقيقة يعرفها جيداً، ضامناً طمأنينته من جهتنا، نحن زملاؤه في العمل، كما ضامن صيغة قسيمة الناخب التي تحدث عنها وكأنها أمر لا يقبل التشكيك.

لذلك، بقيت مصغياً، متأملاً النقاش الذي بدأه حسن بحزم لا يقبل الجدل، داحضاً خبر الجريدة، ومفنداً تفاصيلها ببراهين ومبررات ملموسة ومقنعة، عارضاً الوقائع كما يعرفها، كاشفاً التناقض الصارخ بين العنوان الذي قرأناه وبين ما حدث فعلياً على الأرض. بأسلوب واضح، دون تعقيد أو تشتيت، شرح لنا آلية الانتخاب الحقيقية، كيف دبرت وسويت.

في الحقيقة كان قد اقنعني بزعمه وتفسيره تماماً، وأن خبر الجريدة لا تمت للواقع بصلة، فهي ليس لعبة أطفال ليطفح فيها عبث هنا أو هناك مثل ما تدعي الجريدة.

في وقتها كان قد غلبه فرح نجاح الانتخابات، كان منتش وهو ينقل لنا صيغة الخبر، كأنه قد أمسك بالعروة الوثقى، بصرة القبس، حيث بدأ يتحدث بإسهاب وحرية عن الموضوع بعد أن انفتحت قريحته، شارحاً الهدف من وراء الانتخابات وسلاسة جريبيها وحسم نتائجها..

لربما من حقه أن يفرح باسترجاع بعض حقوق الكرد الإنسانية التي يفتقدها كونه من أصل كردي، لكنه غال كثيراً في فرحه، مبدياً ابتسامة عريضة ملئت شذقيه حتى بانث نواجذه. ففسرت ابتسامته وسلوكه من قبل الاستاذ داود الذي

التزم الصمت والسكوت الحاد على أنها استهزاء وتشفي بأوضاع البلد وبوضع الرئيس صدام. وخاصة عندما قال حسن: بأن السيد الرئيس أكيد منزعج من هذه الانتخابات.... هذا يعني أنه قد تجاوز الحد المعقول.

وفي الحقيقة لم تكن تلك الأيام أيام فرح بعد أن خرج العراق من عنق الزجاجة وهو مخضب بالجراح يجر أذيال الخيبة والانكسار أمام قوات التحالف، بعد أن كبَلته الحرب نتائج مهولة جسيمة مع فرض حصار جائر عليه. ناهيك عن آثار الحرب التي أضرت بالبيئة والشعب، بعد أن دكت القوات الأمريكية والمتجفلة معها أسس عماد الدولة من كهرباء ومخازن وسابيلوهات ومعامل تكرير النفط ومصانع الحديد والصلب وصناعات الأخرى والجسور و... الخ؛ حتى جردته من كل شيء يعينه على إعادة توازنه وبالذات قوات جيشه. بحيث لن يتمكن من استعادة أنفاسه إلى عهد ما قبل الحرب بتاتا...

في الحقيقة كانت أمريكا قد أعادت العراق إلى فترة ما قبل عصر التطور، كانت القوات الأمريكية قد غدرت بالجيش العراقي بعد أن أتفق الطرفان على الهدنة والانسحاب من الكويت. وما أن بدأ العراق تطبيق قرار الانسحاب من الكويت؛ حتى شنت طائرات الامريكية هجوما كاسحا على الجيش المنسحب لتدمره تدميرا شاملا. فقتلت الآلاف من عناصر الجيش ودمرت المئات من الآليات الحديثة على مدى

عشرات من الكيلومترات، بحيث دمرت ما يعادل ثلث الجيش بالكامل.

تلك الأيام كانت أيام نكسة وانكسار وقهر، فقدت بها القيادة سيطرتها على إدارة الدولة بعد ردة فعل الشعب الذي أعترض على سلوك القيادة في انتفاضة عارمة شملت معظم محافظات العراق، أصبحت حالة مكونات الشعب وقيادته تحت عباءة الفوضى والعبث، تلك الحالة عبرت عن المكنون الداخلي للفرد بعد أن يبست أوراق تأملاته على شاطئ أحلام السنين العجاف، بانث الدولة في نظر الشعب كشجرة عريانة جرداء لا أوراق تغطيها ولا ثمار تجملها، لا تعرف كيف أن تنجد ذاتها وتنقض القيود التي تكبلت بها، تلك الأحداث ما كانت تحصل لولا عجرفة القيادة وغبائها في إدارتها شؤون الدولة.

لم تكن نشوة الأستاذ حسن مجرد لحظة عابرة، بل انعكاسا لم حصل وتوافقا لما أبدى من سلوك مسبق، تلك أغاضت الجمادات قبل الأحياء. كان لزاماً عليه ألا يبالغ في فرحه بانكسار الوطن، ألا يترك للانفصال والتقسيم موطئ قدم في نفسه، خاصة في ظرفٍ قاسٍ كهذا، حيث بدا كل شيء هشاً تحت ضغط الأحداث.

الأم لا تجوح ابنها إن أساء، بل تحتضنه، ترعاه، تحاول أن تعيده إلى رشده. كان على القيادة أن تتصرف بوصفها أمّاً، أن تستوعب الشعب لا أن تلفظه، أن ترى الاختلاف في وجهات النظر نجاحاً، بوصفه جزءاً طبيعياً من سلوكيات الحياة، لا

سبباً لصراعٍ يؤدي إلى طائفيةٍ وقوميةٍ تُزيد الشرخ بدل أن ترممه.

على الأقل، هكذا كنت أرى الأمور، وهكذا دونت ملاحظاتي، كأني أحاول أن أفهم ما يجري دون أن أنحاز لما يفرضه المحيط. أما داود، فقد بدا مختلفاً، غارقاً في تجهم وجهه وصمته المدقع، وكأن عقله يعيد تأويل ما قيل دون أن يجد له موقعاً في قناعته. لم يكن مقتنعاً تماماً بتفسير حسن، لذلك، بعد برهة من التفكير، توجه إليه وسأله...

- من أين استقيت هذه المعلومات يا حسن؟

كأنه ود إثارته، وبيان أبعاد ارتباط حسن بالقضية، هكذا تحسست المسألة، خاصة حين فرض حسن ذلك الانطباع على فكر داود، جراء تمادييه في فرحة وبهجته بأحداث الانتخابات.. فأجابه حسن بشكل سلس قائلاً:....

- الاعلام الدولي نشر الخبر، الانتخابات جرت في جو ديمقراطي سلس دون مشاكل تذكر وبمشاركة واسعة من قبل الشعب الكردي، لقد فاز مسعود بنسبة 50.1 بينما فاز جلال بنسبة 49.9 .

- إذا لماذا هذا التعتيم من قبل الدولة..

- لا أدري ما السبب، ولكن الخبر تناقلته وكالات الأنباء والإذاعات كافة، وخاصة إذاعة لندن ومنتيكارلو ...

لم يكن في حينها وجود أنترنت وموبايل، ولا سوشيل ميديا، هذه التقنيات ظهرت بشكل بدائي بعد عام 1994، ولم تدخل

تلك التكنولوجيا للعراق إلا بعد زوال نظام صدام حسين وبالتحديد بعد سنة 2006، أي لم تكن هناك سوى الإذاعات والتلفزة، ولم تكن الحكومة في حينها تسمح لنا بنصب أجهزة ستلايتات ودش لمتابعة قنوات التلفزة العالمية التي تبث برامجها عبر الأقمار الصناعية.. كان الأعلام مقتصرًا على أعلام الدولة العراقية فقط – كما كانت الدولة تمنع الاعلام المحايد، كي لا تنعكس أصداء الأخبار على أبناء الشعب.

حينها تمادى حسن في نشوته قائلاً...

- أكيد الآن السيد الرئيس صدام حسين منزعج من عملية الانتخابات ونجاحها، بعد أن أضحت حقيقة واقعة.

حاولت أن أنبهه على خطورة انزلاقه في الحديث كوننا نجلس في وسط العجلة، يجب أن يتوخى الحذر في كلامه، فقلت له..

- يا أخي وطئ صوتك، للحيطان آذن كما يقول المثل، نحن جالسون بين وسط غريب لا نعرف انتماءاتهم وولائهم ولا نعرف شيء عن توجهاتهم الفكرية، لا تجعلهم ينتبهوا على كلامك! لا تورطنا في موضوع لا نعرف عمقه ومداه.

- يا أخي انا لا اتكلم بشيء خارج العموميات، هذه هي الحقيقة الكل مسلمٌ بها.

التفتُ للخلف مركزاً على الوجوه التي تجلس خلفنا، كانت تجلس في اليسار امرأة عجوز بعقد السابع، يجاورانها رجلان

طاعنان في السن يبدون أكبر منها عمرا، كل منهم غارق في همه، فتطمأنت من جهتهم.. تجاوزت بحدقي الصفوف التي تجلس أماننا، تمعنت ببقية الركاب، فلم أتعرف على أحدا منهم، كل منهم منشغل بهمه وظرفه دون أن ينتبهوا لحديثنا الجانبي. إلا إني وددت أن نبتعد عن محطة الخطر، عن دائرة الشك والنار، عن مناقشة مسألة عفراء لا تضرع لبناء، مسألة تمزق الوشائج بدلا من أن تجمعها. خاصة كنا قد خرجنا توا من بوتقة حرب فظة لفظت غيض نارها بين أحضاننا. وكأننا لا نرعوي من أخطائنا وأغلاطنا، فلا زالت دماء الشهداء لم تشف من على جبهات القتال الإيرانية..

لشدة الوقائع التي مررنا بها وآثارها التي انعكست على أحوالنا، تَذمرنا من الحياة، حيث فاق تَذمرنا غزل الخيال، أصبحنا نتذوق أشكال المرارة بأنواعها، أصيبت مدننا بوابل البؤس والفقر والمرض؛ حتى نخر العظم ويبس الجلد. الخسائر كبيرة، توزعت على سنوات الشقاء التي تلت الحرب، ابتدأت بغصة الحصار ثم بالانحلال والتخبط ثم بالاحتلال، ثم بالخلل والتخلخل والعجز في مرافق الدولة.

الظلمة التي كنا نتحسس هبابها؛ صارت وشاح لنا ورهبة تحجب نور الشمس، فترة عمياء شلت طاقتنا، وبالذات فترة الحصار التي ساءت بها أحوالنا؛ حتى دنت في انحدارها من الهاوية، كان ميل انحرافنا قد أبتدأ منذ أن ركبنا قطار الحرب مع إيران. منذ ذلك اليوم حلكت سماء الدنيا بأعيننا، عبثت بنفاصيل حياتنا، أكممت أفواهنا ووصمت أذاننا، غُمشت

العيون وشظ البصر. الحالة جعلت آية الله تنطبق علينا " تَرَى
النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ "
صدق الله العظيم.

كان من الأجدى تجاوز تلك النغصة، كان علينا تخطي ما
نستطيع تخطيه، حفاظا على جمعنا ووحدتنا، كان ينبغي أن لا
نركض حفاة خلف وهم يتلألأ في أذهان العدو، ليبقى ذلك
العدو يمتص دمائنا.

القرارات الجائرة التي أطلقتها الأمم المتحدة بالجملة تحت
الضغط امريكا، قرارات جائرة لا نستحقها كشعب، أنهكت
كاهلنا، بددت أحلامنا، جعلتنا نسير في آخر الركب، أعادونا
لنقطة الصفر، لفترة العصور المظلمة دون كهرباء، صار
حال العراق كبقرة حلب أجهدت عليها مجموعة كلاب
شرسة من الداخل والخارج تبعا لمصالحها الخاصة...

أستمر حسن في تخويله دون أن ينتبه على أنفاسه التي
باتت تصبح نتيجة جريه، مما جعل داود يفسر سلوكه كمن
يود صب الزيت على النار عن قصد، حتى أضحت العقدة
بينهما تآزر السمع والمشاعر والاحاسيس.. حيث قال حسن..

- أخي ! أنا لم أخطأ، المسألة واضحة وضوح الشمس،
الانتخابات يعني أنشاء حكومة كردية في إقليم
کردستان، وهذا أكيد سيغيض السيد الرئيس.

حينها قلت له:....

- بالله إلا يكفي مجادلة في مسألة شائكة، ملتبهة، حيث لا ناقة لنا بها ولا جمل، أرجو أن نغير مجرى الحديث قبل أن تصينا شرارة منها ونحترق بلظاها.. أحيانا تصل بي المشاعر إلى أن أوصف ذاتي بحشرة تعيش في أخاديد عفنة، صيفنا ملتهب، وخريفنا مغبر، وشتائنا زمهريري، وربيعنا أجوف، سوف لن نحرز مقاصدنا ولو تجاوزنا كل العقد والهفوات.

فيما بقي داوود صامتا دون أن يعلق بكلمة، أو يدخل أنفه في معمعة النقاش والمجادلة، لربما كي لا يترك أنفه بصقيع الجو، كأنه قد تدرب تدريبا جيدا في صنف المخابرات الذي كان يعمل به قبل أن يُحال لمجال التدريس.. لقد كان عنصرا من عناصر جهاز المخابرات بصفة ضابط مخابرات لمدة ثلاث سنوات أبان ترأس السيد برزان التكريتي جهاز المخابرات، وقد أحيل إلى التدريس بعد أن جرد رئيسهم من وظيفته في بداية عام 1991- لقد كان لجهاز المخابرات تأثيرا واضحا على سلوكه وعلاقاته.

الخبرة التي تلقاها في جهاز المخابرات منحتة كياسةً وتأنيًا وبعد نظر، صقلت سلوكه بطريقة جعلته يتقن الإصغاء أكثر من الكلام، يحفظ ملاحظاته في ذهنه قبل أن يخطها على الورق، وكأنه درب نفسه على قراءة المشهد قبل أن يشارك فيه. لم يتأفف ولم يُظهر أي انزعاج ظاهري أمام تمادي حسن في غيّه، لكن في داخله كان بركائنا يغلي، يحتبس فورانه خلف

ملاح جامدة، لا تنطق بأي علامة تدل على الامتعاض. كانت الشجون تغرق في بشرته السمراء.

تلك السمرة اضحت ستارًا يخفي خلفها عاصفة من المشاعر، ولم يكن أحد قادرًا على قراءة صمته، لا أحد يعلم بصهرج الغيظ في أعماقه إلا الله وحده، تهجس في أعماقه بركانا يغلي دون أن ينفث قروءه.. بدا وكأنه يقيس الأمور بميزان دقيق، يختبر كل كلمة دون أن يمنحها رد فعل سريع. لم يكن تأخره في التعليق ضعفًا، بل حذرًا مُترسِّخًا، ينبع من سنوات تعلم فيها أن السكوت أقوى من ردود الفعل، وأن الصمت يكون أبلغ من الكلمات حين يدخل العقل في معركة داخلية لا يريد أن يكشف تفاصيلها.

كان يبدو في ظاهره كمستنقع آسن، بارك في أرضيته هشة، تغشي كل من ينظر إليه؛ كأنما يخفي تحت سطحه عالمًا مضطربًا لا يظهره إلا لمن يتجرأ على الاقتراب منه أكثر. كل من بلغ حدوده غاص فيه، ابتلعتة أعماقه دون مقاومة، وكأنَّ أقدام حسن، في لحظةٍ ما، وجدت نفسها تغرق فيه دون أن ينتبه على نفسه.

أما داود الذي يتقن لغة الصمت الأكثر تعبيرًا؛ لم يكن بحاجة إلى الكلمات ليعبر عن ما مشحون في داخله، فقد نطقت ملامحه بما يكفي ليفهم ما يدور في خلد. سمعته العيون بنهم، قرأت في قسماته ما لم يقله، كأنه تكلم بصمتٍ مدوّ، . تكلم بصمت بكل ما كان يجيش في أعماقه من لجج، بحيث أسمع القاصي والداني دون أن يسمعه حسن.... كانت تلك اللحظة

أشبهه بلحظة مواجهة صامتة، حيث الأفكار تتلاطم في داخله، لكنها لا تخرج على هيئة كلمات، بل على شكل شجون تبقى معلقة في فراغ الذاكرة، تنتظر أن يُفسّر صمتها لمن يجيد قراءة الإيماءات الغير منطوقة بحضره.

لم يعجبه سلوك حسن، رغم ذلك بقي محافظا على كياسته وهدوئه، ولم تعجبه المجادلة الفارغة والتي لا تعنينا بالشكل المباشر، كان استاذًا في صيغة تعامله مع الصدمات وخبيرًا بإدارة لعبته.. أنها لعبة القط والفأر لعبة السياسة القذرة.

كانت تكمن في صمته قوة خارقة، خرافية، سحبته من ذاته ومن علياء كبريائه ووجدانه لجهة الخصام، لبتّر خطوط الألفة والعشرة والزمالة بين الأثنين، للواقع السياسي المضطرب والعائم بالتناقضات والافتراءات.. بل أنه صار يتهرب من مجاملتي بعد أن أدخل ذاته في قوس العزلة، ضرب على نفسه طوق العزلة والوحدة، صرت لا أفهم سلوكه بعد أن تنحى عن الزمالة والتي كانت تجمعنا لقاءات وتودد. كأنه وقف خارج حدود الألفة كشخص يراقب الاحداث عن كثب.. فمنذ ذلك اليوم لم أعد أشعر به زميلا لي، بعد أن ألغى صحبتنا من جدول أعماله.

حينها لم أستطع أن أستوعب سلوكه جيدا، لم أفهم غايته ولغة برمجه الجديدة، لم أفهم تعابير وجهه المتقلبة، تلك التي أخفت في طياتها أسرار اللعبة إلى حين، بعد أن جرّأنا من البوم صداقته وزملته.

الإنسان لا يُهيئ ذاته لمسايرة الظروف، بل الظروف هي التي تصوغ تفاعله معها، تمنحه ألفة خاصة، سواءً في العمل أو في صناعة الهدف. يمضي الإنسان خلف الحرية، فتمضي أحلامه معه، متكئاً على تلك الصحبة النقية التي يولدها العمل الإنساني، ذلك الرابط الذي يجمع الأفراد في انسجام غير مصطنع، بل نابع من طبيعة الأشياء. وخاصةً في مجال التعليم، حيث يلتقي الإنسان بالعمل المقدس، ليكون المعلم أكثر من مجرد ناقل للمعرفة، بل واحة تنهل منها الطيور دون أن ينضب معينها. فالمعلم، في كل الشرائع الدينية والاجتماعية والعلمية والتربوية، يشكل حجر الأساس لبناء الفكر والمجتمع. لم يكن أحمد شوقي مخطئاً حين قال:...

"قم للمعلم وقِّهِ التبجيلا -

كاد المعلم أن يكون رسولا."

أعلمت أشرف أو أجل من الذي -

بيني وينشئ أنفساً وعقولا

ففي رسالته، لا يتوقف دوره عند حدود التعليم، بل يمتد ليكون مصدر الإلهام، مشعلاً للوعي، وجسراً يعبر به الجيل إلى مستقبل أكثر فهماً وعمقاً.

كان الاستاذ حسن قد وجد قريحته مفتوحة الشهية، ولإضفاء جو من المرح والسعادة على ذاته والحضور، كان قد قال مبتسماً:...

4- زلة حسن

حسن يُعدّ من بين أكثر مدرسي اللغة العربية كفاءة، رغم انتمائه إلى القومية الكردية، وهو أمرٌ لم يكن ليؤثر في مكانته بين زملائه. كانت علاقاته متزنة وحسنة مع معظمهم، عرف عنه مسالمة، كرمه الأخلاقي، واعتداده بنفسه بطريقةٍ تعكس شخصيته المستقلة.

أما داود، الذي التحق بالمدرسة مع بداية العام الدراسي مدرساً لمادة الأحياء، فقد جاء من "القرية العصرية" التابعة لمدينة السعدية، وينتمي إلى القومية العربية. لم يكن دخوله إلى ميدان التعليم مساراً تقليدياً، بل جاء بعد حل جهاز المخابرات الذي كان يرأسه السيد برزان، شقيق الرئيس صدام حسين، حيث أمضى فيه ثلاث سنوات لم تكن مجرد مرحلة وظيفية عابرة، بل تجربة صاغت ملامح شخصيته، وزوّدتَه بنظرة مختلفة للأحداث، وجعلته أكثر حذراً في الحكم وتأنيّاً في الخوض.

كان حسن قد انضم إلى حزب البعث قبل أعوام، متدرجاً إلى رتبة "نصير متقدم"، بينما بلغ داود رتبة "رفيق عامل"، في حين كنت حديث عهد بالحزب، أحمل رتبة "مؤيد". كان تصنيفي هذا نتيجة خيارٍ قسري، إذ خُيرت بين الانتماء للحزب أو فقدان الوظيفة بعد أن أتممت مدة الإنتداب، فاخترت الانتماء حفاظاً على استمرارتي المهني.

هذا يعني أقدمنا انتماءً للحزب هو الأستاذ داود، ومن ثم يليه حسن، ومن ثم أنا. حسب الدرجة الحزبية المناطة لكل منا. ومعروف سلم الحزب يتدرج كالآتي .. مؤيد ثم نصير ثم نصير متقدم ثم رفيق ثم عضو عامل ثم عضو فرقة ثم عضو شعبة فعضو قيادة.. أهمية التسلسل هذا يعطي صورة عن أهمية الحزب في نفسية كل شخص وحسب فترة انتمائه للحزب واهتمامه به.

انعزال داود لم يكن صفة طارئة، بل حصيلة أعوام من العمل في أجواء تتطلب الصمت والتأني. شكّته التجربة بطريقة أعمق، رسخت تحفظه وأبقت بينه وبين الآخرين مسافة حذرة. بدا وجهه كمرآة تعكس صدى ما يدور حوله، بوثقة مشاعر مضمرة، يحمل ملامح لا تُقرأ إلا بمن يعرف تاريخه.

في نظر العامة، بدا شخصية ثقيلة الظل، لا يسهل الاقتراب منها، كأنه وضع حاجزاً بينه وبين الآخرين لا يخترقه ضوء. عزوفه عن الاندماج لم يكن مجرد خجل، بل إدارة تامة لجدول علاقاته. ربما درع نفسي بحذر ليحمي ذاته من مفاجآت لا تُحتمل. أضحت عزلته جزءاً أصيلاً من إرثٍ يرافقه حتى في الزحام.

كانت استقالة حسن هي الزلّة التي وضعته تحت المجهر من وجهة نظري، لحظة فاصلة، لم تكن مجرد قرارٍ إداري، بل تحولت إلى فعلٍ له بعدٌ سياسي عميق في نظر مناوئيه. اختار أن ينسحب من الحزب في توقيتٍ حرج، تماماً مع بدء إجراءات الانتخابات الكردية قبل أسبوعين من موعدها،

مستفيداً من خصوصية قوميته التي لا يشترط انتماء أبنائها لحزب البعث كما اسلفنا، وكان هذه الخطوة وضّعت تحت أعين التأويلات السياسية.

في فكر البعض، لم تكن استقالته فعلاً بريئاً، بل بدت وكأنها تحمل شيئاً من التشفي والكراهية، أو ربما تخطيطاً مسبقاً - سواء كان ذلك بقصدٍ منه أو دون وعيٍ كاملٍ لعواقب الأمر. ارتسمت حول قراره ظلالٌ من الضغينة، وكأنها تجسيدٌ لمزيجٍ من المشاعر الملتبسة التي تراوحت بين الغثائية والخلاف والكره المستتر والمُقت والإحنة ترق في مخيلة المقابل. كان القرار ثقيلاً، حَجَرُ القاه في مياهٍ راكدة، فحرّك ما كان ساكناً وأثار أمواجاً من السخط والتأويل والتساؤلات.

لكن الأهم من ذلك، أن توقيت الاستقالة جاء في ظرفٍ شديد الحساسية، حيث كان الوطن يعاني من نكساتٍ متلاحقة وتقلباتٍ سياسيةٍ زادت من اضطراب المشهد العام، هذا يعني أعضاء الحزب كان في دوامة من الحركة والتيه والقلق، كخلية النحل تعمل في ترميم ما خربته الحروب. لذا لم يكن هذا الزمن يسمح بمثل هذه الخطوة دون أن تُحدث صدئٌ يتجاوز مجرد انسحابٍ فردي من الحزب، في الوقت الذي به كانوا يبحثون عن التكتاف الجماعي في صد ثغرات الظرف. لقد جاءت في لحظةٍ بدأت فيها التحديات تكبر، وتطفو على وجه السياسة، داخلياً وخارجياً، كأنها نقطة أخرى تضاف إلى خارطة التحولات التي لم يكن أحد قادراً على التنبؤ بتبعاتها بالكامل.

كانت لهجة التحدي والبهجة والبهجة التي جاء بها والسرور المبالغ به، أوقعته في شرك مناوئيه، وخاصة تلك التي أظهرها عقب الانتخابات، والتي أوقدت فتائل البغض والحقد في فكر خصومه، وكأنه قد أوقد جمر عذابه بيده وفي غير أوانها..

ذلك ما أعطى لصفة الاستقالة طابع التجرد عن الوطنية وعن المسؤولية، لمع صدفية التشفي بالانتكاسات التي تعرضت لها الدولة، حيث برقت تلك الومضة في أعين زملائه، بانته في صفحات تعابيره المقروءة، كشفت عن مكنونه الداخلي لمن أستمع له وأنتبه على حديثه، تلك العلامات غيرت من صيغة المعادلة، جعلتها غير متوازنة في تركيبة مخ حسن لميله الواضح للجهة المعاكسة.

لم يكن سلوكه الأهوج سوى غلطة تمسك بها، لمع حيثياتها بسذاجة، اسقطته عن مقعده، جرجرته لمصبب العناء والشقاء، أضى كآرجوحة تهزها ديناميكية الاحداث.

قد يكون الإنسان هو سبب تعاسة نفسه دون أن يدرك، لذلك عليه أن يحسن من سلوكه وألفاظه في الأماكن العامة، أن ينتبه على قراراته وأحكامه قبل المضي بها في بهجة فارغة لا ناقة له بها ولا جمل. كان عليه أن يتخلى عن فعل الظن الذي حرف مساره، كان عليه أن ينتبه على ما يجول في خواطر مناوئيه قبل أن يتحرك من مكانه، كان عليه أن ينتبه لنصح المدير له..

يذكر في يوم من الأيام نزلت امرأة بناقتها البسوس في جوار (جساس بن مرة) وكان من سادة قومه، وبعد أن أقامت عنده مدة؛ دخلت ناقتها (البسوس) في إبل (كليب بن وائل)، فرماها بسهم، فقتلها... وكليب بن وائل كان سيد قومه وكان رجلاً متجبراً، قاسياً، يأمر فلا يعصى له أمراً.

لما علم جساس بما صنع كليب؛ ثار لقتل ناقة المرأة فتربص لكليب ومن ثم قتله..

على أثر تلك الحادثة دارت الحرب بين قوم كليب وجساس أربعين عاماً، سميت بحرب البسوس. كان في قوم جساس رجل شجاع عاقل وماهر جداً في الحرب يسمى (الحارث بن عباد) الذي رفض مساعدة قومه في الحرب حيث لم يعجبه قتل كليب في مقابل ناقة وهو سيد قومه... وقال: - لن أشارك في حرب (لا ناقة لي فيها ولا جمل). فمضى ذلك مثل بين الأقسام منذ ذلك العصر.

فأستاذ حسن لم يكن واعياً كما كان الحارث بن عباد، بل أنه ود إشعال فتنة الحرب بين الحزب وبينه دون أن يتبع مصالحته ومصالحة عائلته. دون أن يقدر إمكاناته المادية والمعنوية الحقيقية التي تموله الدولة بها، معتمداً في سلوكه على البلبلة الرائجة والأخبار الشائعة والعبثية المعمول بها في الأعلام، فأدخل ذاته فيها دون أن تكون له بها ناقة ولا جمل...

أحيانا يضع الإنسان نفسه في مواقف حرجة لا يحسد عليها، تلك المعروفة بمواقف التقاطع، أشبه بتقاطع قطبي المقص، كان حسن قد أقترّب كثيرا من شواظ النار دون أن يدرك حدة اللسعة، فلم ينتبه على ذاته الأسيرة إلا حين سعى للطيران فأنّته على قوادمه وخوافيه التي لا تؤهله على ذلك حين لست.

هجست به قد هفا إلى وكر التهمة برجله، كالحشرات التي تهفوا نحو شعل المصابيح في العتمة، فلا تنجو من لسعة النار إلا وهيّ مسلوبة الإرادة... هكذا شعرت به قد أحرق جناحيه كتلك الحشرات، استقطبته أضواء الأعلام الفاشية نحو الانتخابات فأصطلى بنارها.

من يود أن يمخر عباب البحر فعلية أن يرتقي مركبا يحتمل الأمواج العاتية، وإلا سوف لن يدرك مرامه ولن يصل هدفه إلا وهو في عداد المفقودين، قد لا يدرك الإنسان ظله وهو واقف تحت أشعة الشمس، لكنه سيكون الظل واضحا لمن حوله، بارزا في الأفق... تلك هي مصيبة حسن الذي لم يرى ظله وهو يبرز عيوبه قط. كان في موقف شائك، حين أبرم خيوط العقدة على عنقه ومستقبله. استعجاله وعدم اتزانه أخلا بشواخص ظنه، فلاح له في الأفق نتيجة رعونة سلوكه..

مضت الأيام وهي تلتهم بعضها بصمتٍ، دون أن تحمل معها وضوحًا أو حسماً، خلالها توثقت علاقتي بحسن حتى بلغت حدّ الثقة المطلقة. لم يتغير نمط ذهابنا وإيابنا إلى المدرسة، بل

ازدادت بيننا الألفة والرفقة، كأنَّ الأيام كانت تصقل علاقتنا بدلاً من أن تتركها عرضةً للتآكل.

أما داود، فقد بدا مختلفًا، كأنه يُعيد تشكيل المسافة بينه وبيننا، متراجعًا إلى ظله الخاص. لم يعد لقاءه بنا كما كان، بل تكدر أكثر، وصار يختال بنفسه ويختار سلوكًا مغايرًا لما اعتدنا عليه. حذر، يراوغ لحظات المواجهة، يبتعد سواء داخل المدرسة أو خارجها عن لقاءاتنا، حتى غدت مستحيلة، لا نلتقيه حتى صدفة.

لم يعد يجلس في غرفة المدرسين كما كان في بداية تعيينه، صار يتجنب المساحات المشتركة معًا، ينتقي بعناية توقيت خروجهِ إلى الصفوف، وكأنما يدير خطواته بحيث لا تتقاطع مع خطواتنا. أحيانًا كان يؤخر دخوله الحصة خمس دقائق، فقط ليضمن أنه لن يلتقينا في الممر. كأنه أحكم عزلته، بنى حوله ذاته سورًا غير مرئي، لم يعد يظهر إلا عرضًا بين أروقة المدرسة. وإن بحثت عنه، تجده جالسًا في غرفة المدير، حيث بات مكانه المفضل بعيدًا عن الجميع.

الفصل الثالث

1- استدعاء حسن

عدتُ من التحقيق إلى البيت دون أن ألتقي بأحد خلال الطريق، مُحملاً بثقلٍ لا يُستهان به، كأنَّ يومي لم يكن مجرد ساعات استنزاف مرت، بل حقبة كاملة أعرت وجودي. الأمر كان أشبه بشيء تفوق حساسيته قدرة أيِّ عقلٍ على استيعاب الحدث، شيء تبطنت به كالظلال، متخماً بالجور والشجن، مُثقلٌ بأسئلة بلا إجابة.

انشغلت طوال النهار واتون الليل أفكك تفاصيل القضية، أقلب محتواها في رأسي بلا توقف، حتى خُيل لي أنني أحلم بها وأنا مستيقظ. ولم أستعيد ذاتي إلا عند منتصف الليل، حين اخترق الصمت الأجواء ربتٌ خفيفٌ على باب البيت الخارجي.

كان الطقس حاراً، الظلام الدامس، ممتداً على جسد البقاع حتى لامس الخيال. المدينة مستيقظة كما لو أن الليل لا يملك سلطاناً عليها. الناس لا تهجع لفراشها إلا متأخرة صيفاً، لكن الطارق هذه المرة لم يكن من العابرين أو المقربين وهو يحاول أن يضيء ذهنه في عتمة تلك الليلة.... فتحتُ الباب برفق، فوجدتُ أمامي الأستاذ حسن... واقفاً عند العتبة، شاحباً، خائفاً، كأنَّ ظل الخائف حل دون أن يحضر.. لم يأتي حسن هنا للزيارة، ولم يكن يحمل أي شيء سوى الارتباك المرتجف.

كان قد بُلِّغَ بما بُلِّغْتَ به، استُدعي إلى دائرة الأمن بنفس الطريقة، بنفس الكلمات، ربما من نفس الصوت. لم يكن بحاجة لأن يشرح لي شيئاً، ولم أكن بحاجة لأن أسأله... فكلانا كان يعرف الآن أن القضية ليست عادية، بل أن الشَّرك امتدَّ ليطال آخرين.

في داخلي لم أستطع أن أكفَّ جماح اللعنة على من ورّطني في هذه القضية العاقر، ولن أرضى يوماً على غراب البين الذي ادخل أنفه في معمعة غضن بها الجميع، لم يكن ينبغي لهذه القضية أن تُمنح فرصة لتتغذى على حياة إنسان، كان الأجدر أن تُرمى في مزبلة المناكفات والمقارعات، لا أن توقد فتائلها لتتوهج وسط هذا الهشيم المهترئ.

عدتُ إلى البيت مشحوناً بشيء ثَقِيل، لا هو غضبٌ خالص، ولا هو مجرد جزعٌ، بل حالة من الإنهاك والصراع النفسي الذي تسرَّب جماحها إلى عظامي، أثقل كاهلي، كما لو أنني عائد من معركة لم أُجهِّز لها.

كنتُ مجرد "شاهد"، لكنني لم أشعر بهذا العبور الهين الذي يوحي به اللقب، بل غدوتُ قطعة متورطة في لعبة أكبر مني. رأسي كان محمّصاً بمخلفات العقدة، مشبعاً بدخانها، كأنني كنتُ عالِقاً داخل محركات الزمن وهي تعيد تدوير العقدة بلا توقف. كل شيء يمكن تجاوزه، إلا العبث بأمن الدولة، إلا التجرؤ على القائد المبجل.... هذا أمر لا يُترك للصدفة، لا يُترك للزمن كي يُسوَّى، بل يُفتح له ملفٌ يُطوى فقط حين ينتهي كل شيء.

كأنَّ دائرة الأمن وضعت يدها على سرِّ مشتعِل، عقدة لا منفذ لها، لغزٌ طالبتني أن أقدم تفسيراً له، وأنا بالكاد كنت أستطيع أن أتلمس ملامح الفكرة في غبرة الذهول الذي كنت أعيش فيه. المفاجأة أربكتني، صرْتُ أبحث عن ثلثة صغيرة في جدار هذه القضية لأنفذ منه. لم تكن المسألة مجرد استدعاء، كانت شبكة متشعبة، فيها أزمة ثقة، فيها عدوانٌ مكبوت، فيها كيِّدٌ خفي، فيها خوفٌ مشحونٌ بصمت ثقيل.

في شهادتي، نفيت تهمة سب الرئيس. وكنت صادقاً، متأكداً من كلمتي، لأنني أعرف أن تلك التهمة إن ثبتت تودي بهلاكه. لكنه في عبثه الغير مبرمج كان قد استهزأ دون شعور. وهذا كان كافياً لجعله هدفاً في عين مناويله..

لقد أنصفته، ولكني لم استطع أن أمحي ما قيل عنه في التقرير المعد الذي لم أقرأه ولا أعرف محتواه. ومع أنني أدرك تماماً أن أحداً لن يراه إنصافاً، بل مراوغة وتجنّي. بعد إدلاء شهادتي؛ قررتُ أن أعود إلى البيت وأن لا ألتقي أحداً في الطريق. كي لا أسأل عن فحوى القضية التي استدعيْتُ من أجلها. أثرت العزلة، والانغماس في سبات الراحة، هروباً من الصفير والتحفيف. لا أرغب نظرات المتطفلين، ولا استسيغ أسئلة الفضوليين تتسلل إليّ بلا استئذان، ولا بأن أكون موضوعاً في مجالس الحمقى في المقاهي. وددت ابتعدتُ عن شلّة النفاق والثرثرة؛ أولئك الذين لا تعنيهم إنسانية الإنسان بقدر ما تعنيهم النقر في الطبول والصفير بالمزامير.

حين وصلت البيت، قررت أن أكون حبيسه، أغلقت رتاج الباب على نفسي كمن يهرب من عالم لا يملك فيه مكانًا. كان جسدي متعبًا، فيما رأسي كان معج بشظايا بركانا يشتعل بحلقات متداخلة من التفكير. في ذهني؛ دائما ما أعود إلى نقطة البداية مع كل محاولة هروب. دائما ما أدور في فلك الحدث، أقلب تفصيل العبث الذي دار داخل العجلة، أبحر في كل احتمال فيه ومضة، من يوم 5\2 إلى لحظة خروجي من غرفة التحقيق.

حاولت أن أمسك رأس الخيط، أن أقبض على الطرف الذي قد يقودني إلى الواشي. خمنت كل شيء، نقبت في ذاكرتي عن أحداث صغيرة، خمنت جعبها، بحثت عن صدفٍ مررت بها دون انتباه، عن كلمة قيلت أو لم تُقال. طرقت أبواب الواقع والمحال، ركبت موج الخيال، سافرت إلى دهاليز الذاكرة عبر بوابة الزمن ومراكب الاسفار، تمنعت بكل مشهد حضر أمام عيني... لكن لم أصل للهدف، لا شيء ثبت يدل على الجاني، ولا اسم ظهر أو خطر لي على البال.

وخاصة حين علمت أن داود قد استدعي هو الآخر للشهادة، أدركت أن الدائرة تتسع، وأن الحقيقة لا تزال تهرب من قبضتي في فراغ يتوسع كلما وددت أن أغوص بالبحث عن اللغز. لم يعد شيء واضحًا أمامي سوى مسألتين: اتهام حسن بسب الرئيس، والذي زجنا أنا وداود كشهود داخل دائرة التهمة.

عدتُ وفكري غارقٌ حتى الأعماق في البحث عن اللغز، يدور بلا هوادة حوله، كمن يطارد شبحاً في غرفةٍ زجاجيةٍ تشتط فيها الأضواء دون أن يقبض على الصورة الحقيقية. كنتُ أبحث عن الشرارة التي أشعلت هذه الفتنة. ترى من كتب ذلك التقرير المغرض؟ من ورّطني وورّط داود وحسن في هذا المستنقع الذي يصعب الخروج منه دون ندوب؟

كان كلّ تفكيري منحصراً في دائرة الغموض، في عقدة المعضلة ومصدرها. الأمر بدا جلياً: عينٌ تراقب، قلمٌ مسموم أدرج اسمي في ملفٍ قذر. الواشي كان بارعاً حدّ التلاشي؛ أخفى نفسه داخل تعقيدات اللغز، فلم أجد له خيطاً أمسك به. بدا كأنه يختبئ بين ظلال الذكريات، بين لحظات ظننتها تافهة وعابرة، لكنها كانت تحمل بصمته الخفية.

كان عليّ أن أستعيد كل شيء، كل كلمة، كل حركة، كل لقاء. أية تفاصيل يمكن أن تكون مفتاحاً لغايتي. لكن الذاكرة بطيئة، لا تعاونني، تحجب عني الصورة الأخيرة التي قد تربط الأحداث ببعضها.

وفي وسط هذا التيه، كانت الحقيقة الوحيدة الواضحة أمامي أن القضية لم تعد مجرد تحقيق، بل كمينٌ نُصب بعناية... ولا أحد يعرف من وضع اللغم في سلتنا.

خلال عودتي حاولت أن أتخفى عن الأنظار، أسير خلف الجدران مبتعداً عن الوجوه قدر الإمكان، كي لا يفتح صنبور البلاهة بأسئلته العقيمة بوجهي، مما أضطر إلى إجابته،

فالقضية لا تخص أحدا، ولا التهليل والتشهير من شيمي.. كنت منزعجا من الحالة جدا، وأهجس بذاتي مراقبة من قبل هذا وذاك، وبالذات من رجال الأمن الذين يتصرفون مع المتهم تصرف الكلاب المتوحشة.

في أعماقي وفي ذاتي المأسورة كنت يقضا أشبه بالقط، إلا أنني في واقعي منزعج جدا من الحالة، كونها حساسة، شبكية، ممكن أن تؤدي بي إلى مستنقع التهلكة.. في الحقيقة كنت مهزوما، مهزوزا في داخلي، مضطربا بجوارحي، لا أريد الخوض في معمعة الموضوع، لآلا أزيدها فسادا، فالعيب مع أمن الدولة ممنوع بتاتا.

كنت أشعر أنني مراقبٌ من جهةٍ ما، كنت أشعر بذاتي مراقبة من قبل جهة خفية مسؤولة عن ذاتي، مراقب من قبل الشيطان والحيطان والشوارع التي أمر بها، كأنّ الأعين تترصدني من ثقب الجدران، من نوافذ الطرقات، من التقاء الأرصفة. لم يكن الخوف مجرد انفعال؛ كان كأنّما يملك أطرافا وقدرات خارقة يخترق الذات، يملك أنفاسا، يملك عيوناً تنعكس على وجهي كلما مررت بجانب أحدهم.

الخوف له مجسات متشعبة تلامس قلبي، تنعكس على وجهي، أهجس به يتبع ذاتي كذئب يتربص بي، بلا استعجال، بلا خطأ، بلا رحمة. وازع شيطاني لا بدّ في عيون الناس، مرسوما على الجدران والحيطان التي أمر بها. كأنني قد تورطت في ورطة لزجة دون أن استطيع التخلص منها،

كغراء الفئران، بثّ اشعر بذاتي أنا فأر أود الافلات من قبضة
العقدة اللزجة، شَبَاكٌ لا استطيع الانفكاك منها.

العقدة الآن لم تعد مجرد اشتباه، لم تعد مجرد واقعة منعزلة.
صارَت شاسعة، تمددت، احتوت شريحة من المجتمع بأسره -
أنا، إدارة المدرسة، داوود، حسن، أسرة حسن، الأصدقاء،
الجيران، كل من مرّ ولو عابراً في محيط هذه الدائرة الغريبة.
لم أعد أملك فكرة عن كيفية الخلاص، ولم أجد منفذاً للهروب.
أيّما أذهب فأنا مكشوف للملأ، المنافذ أغلقت، والخطوة الغير
محسوبة تؤدي إلى مجهول، بت في حيرة من أمري، لا أعلم
إن كنت سأخرج من الفخ كما دخلت أم لا.

شعرت بذاتي خجولة جداً، كأنني فقدت بريقها، قطعة قماش
جفت تحت الشمس، حتى تبدى لونها وتآكلت خيوطها. لم أعد
أملك لمعائناً، لم أعد أعرف كيف أستعيد لذاتي رونقها. لطيبتي
أشعر بها غشيمة، لا تفقه شيئاً من أمور الدنيا، كنت غريباً
حتى عن نفسي، لا أفقه شيئاً مما يدور حولي، لا أملك خريطة
للهرب، ولا مفتاحاً للخلاص. كان اللايقين يحيطني كما لو
أنني في متاهة دون مخرج، وأي محاولة للفكاك منها تؤدي
بي إلى الفراغ ذاته. كنت أرى كل شيء متشابكاً، ضبابياً،
كأنه دخان بلا مصدر. كنت هشّاً، مكسور الجناح، خفيفاً
كأنني جزء من العدم نفسه.

أعرف أولئك المتطفلين الذين يتسللون في زوايا حياتنا كما
يتسلل العفن في الزوايا الرطبة. يقبعون في المقاهي
والشوارع، يتشممون أسرار الناس ويغوصون في تفاصيلهم،

لا لشيء سوى التلذذ بالخوض في شؤون الآخرين. ينقلون
الفتن كما ينقل المرض، يطعنون بالغيبة والافتراء، يثرثرون
بالأسماء كأنهم يمضغونها علكة بأسنانهم، يبيعون مشاكل
الناس على حبال المقاهي بعد أن يهّروها بالكذب والتزييف.

وأنا في البيت كنت مشتتاً في تفكيري، بحيث أنزلق بعيداً
وأعود برفقة الأنا متخبطاً في تفاصيل القضية، كمن يستشير
القمر والنجوم عن دروب الخلاص ولا يتلقى جواباً.

كانت الأفكار تأتي ثم تهرب، كالظلال العابرة في الليل. فكرة
تلهمني، طوية تلهيني، وقفة تُرهقني، جذوة تشدني، أصير هنا
وأهرب هناك، أقلب الأحداث، أعيد ترتيب خلخلة الظن بعيداً
عن لغو الناس، أعصر أوراق ذاكرتي، أقلب صفحاتها، لكنني
لم أجد فيها غير فراغ شاسع، خالية الوفاض، بلا قيح وبلا
قروح، لا خيطٍ فيها يقودني إلى الواشي. كما لو أنني أعيد
ترتيب الفوضى محاولاً أن أنتزع يقيناً من شظايا الشك.

كنتُ قد عشت الأحداث بكل تفاصيلها - مع داود، مع حسن،
مع ضابط الأمن، مع رجل الأمن المُبلّغ، مع المدير الذي أطلّ
للحظة ولم يُضف يقيناً، مع ذاتي المرتبكة التي غدت مرآة
مشروخة لا تعكس إلا هشاشة الفرضيات. وجدتُ الخطوط
كلها متشابكة... ووجدتُ نفسي أفقر من أن أفك الشفرة.

كل كان يقودني لوجهة ما، كل كان يسيرني على هواه، كأننا
جميعاً ندور في دوامة مبهمة ليس لها اتجاه ثابت، لكن الجميع
يصبم بإبرام العقدة التي أبرمها حسن بسداجة حول عنقه.

لا أعرف كيف أصل طريق الخلاص، لقد عشت الحالة العبثية بعيدا عن الروتين الذي لازمني قبل أن تطأ قدمي موضع الحدث، حيث منعتني الفكرة من أن أكون بطبيعتي المعهودة؛ فتغير سلوكي حتى مع أهلي في البيت. أشعر بأفراد العائلة التمسوا ذلك التغير الحاصل في سلوكي العام دون أن يستطيعوا تفسيراً للحالة التي أعيشها، وأظنهم قد ألتمسوا حالة القلق العابثة بذهني وسلوكي.

لم يستقر ذهني لحظة واحدة خارج صلب الموضوع، كنت غارقاً في السؤال الوحيد الذي يابى أن يُجاب: من كتب التقرير؟ من زرع الشك؟ من أشعل هذه النار؟ لابد أنه شخص قريب، ليس غريباً، ليس خارج الدائرة. يعرفني ويعرف حسن وداوود. يعرف كيف يتحدث عني بلغة تجعلني مادةً للشك. يعرف كيف يدخل إلى صميم القصة دون أن يُسمع وقع خطواته.

وأنا في شكّي، بدأت أراجع خطوة عن الجميع. لم أعد أنظر إلى الأصدقاء كما كنتُ أفعل، لم تعد صداقتهم تهمني وتحميني من الهواجس، بل صارت كل واحدة منها احتمالاً من الشك، صارت كل علاقة نقطة استفسار لا إجابة لها.

صرت أعيد قراءة أوراق كل واحد منهم، كأنني أبحث عن ندبة مخفية، عن علامة تدلني على الخيانة. أقممتهم جميعاً في الحسابات، في الاحتمالات، في المصيدة التي نصبتها لعقلي كي يكشف الحقيقة. فكرت في شلة الأصدقاء، بدأتُ أشك في هذا وذاك، في أخلاقه، في ثقافته، في طائفته، في قوميته -

صار كل شيء جزءًا من المعادلة، وكل معادلة غدت لغزًا، وكل لغز أشبه بباب مغلق لا يُفتح إلا بانفجار. كنت أحاول أن أعيد الأمور إلى نصابها، لكن الحقيقة أخذتني بعيدا في متاهة من الحيرة لفت معارفي في دوامة الشك.

كما صرت أعيب على نفسي ضعف ذاكرتي التي لا تسعني حين أحتاجها، أعيب على نفسي قلة علاقاتي حين تحاصرني الأسئلة. كنت أعيب على نفسي ضعف اندماجها في المجتمع، قلة حضورها في مجتمع أعرفه ويعرفني، لكنني فيه لا أشعر أنني جزء منه تمامًا. دائمًا ما تكون نفسي الأبية منطوية على حالها، إلا من بعض الزملاء المقربين الذين لا يزيد عددهم عدد أصابع اليد الواحدة، وكأني حصرتها في قوس زملاء الوظيفة فقط، كأنها متمردة على الاختلاط، حيث لا أصدقاء حقيقيين، لا دوائر تمتد خارج حدود العمل. لكن المفارقة كانت قاسية، كنت معروفًا للجميع، اسمي يلمع ضمن نطاق المجتمع، لكن عالمي الداخلي كان ضيقًا، لا يتسع، لا يشابه ما يراه الآخرون حين يتحدثون عني. أن تكون معروفًا لا يعني أن تكون قريبًا من أحد.

والآن، وسط هذه العزلة، وسط هذه القضية العالقة، وجدت نفسي أحسد أولئك الذين يملكون ذاكرة حادة، ودوائر واسعة، وانتماءً غير مشروط بالمكان. كنت أعيد الحسابات بلا توقف، أتساءل إن كان هذا الانطواء صنع مني فريسة سهلة للوشاية، أم أنه كان خطيئتي الأكبر حين ظننت أن قلة المعارف تعني قلة المخاطر.

أحيانا أجد نفسي صغيرا جدا أمام بعض البشر من هم أقل شأنا وشهادة وثقافة مني لاختلاف السلوك بيننا، لكثرة معارفهم. على مدى سنوات، كنت أعلم أن جارنا، السيد عبدالرحمن، يملك ذاكرة لا تشبه ذاكرة البشر العاديين. كان يعرف نسبي، عشيرتي، أقربائي، وظائفهم، اتجاهاتهم، حتى أولئك الذين بالكاد أعرف عنهم اسمين أو ثلاثة. كأنه مختار العشيرة الغير الرسمي، رجلٌ يُخزن الأسماء والتواريخ كما يُخزن المرء أرقام الهاتف. عد ذلك بالنسبة له هواية، ولكن على قذارتها كانت زنخة، على الرغم من أنها تنفع في أوقات الشدة. كنتُ أجدها مهمةً شاقّةً، بينما كان هو يمارسها كتسلية. أن تعرف كل شيء عن الجميع، حتى دون أن يكون لك صلة مباشرة بهم، هذا أمرٌ يفوق الحد الطبيعي للمراقبة.

قبل أيام، قابلتُ رجلاً بالصدفة في اسواق الأعظمية في بغداد. اسمه صالح لكنه لم يكن صالحا أبدا، بل كان طالحا. كان لقاءً عاديًا، أنا لا أعرفه، ولكن هو يعرف عني كل شيء، مع أنّ اللقاء هو الأول الذي يجمعنا، كان غريبا في سلوكه، ما حدث كان أشبه بصفعة مفاجئة تلقيتها من يد لا أراها. وجدته يعرف تفصيل دقيقة عني وعن أخوتي وزوجتي ووظائفهم، يعرف عن حياتي الخاصة أكثر مما أنا أعرف - يعرف اسمي واسم زوجتي واسم ابني، أين عشت وماذا أعمل، ماذا أهوى، أشياء يفترض أن تبقى داخل دائرة البيت. لكنه قالها كما لو أنها معلومات عامة، كما لو أنني كتاب مفتوح يقرأ منه ما يشاء. بصراحة كرهته جدا، كرهت طبيعته وأسلوبه الوقح. شعرت نحوه بنفورٍ غريزي وباشمئزاز لم

أحتج لتفسيره- كان أشبه بالجدري، مثيرًا للقلق، مخيفًا في بساطته التي تحمل تهديدًا غير منطوق.

في تلك اللحظة، أدركتُ أن بعض البشر لا يحتاجون إلى اختراق الحواجز، لأنهم ببساطة يعيشون داخلها دون أن يُطلب منهم ذلك.

ذاك ما دعاني أفكر جديًا بالأمر...يا ترى، لِمَ لم أتعرف على ركاب الباص؟ على الرغم من أن وجوههم تكاد تكون مألوفة إليّ - أراهم في الأسواق، في الطرقات، في رحلاتي الموكية للمدرسة، لكنهم بقوا مجرد ظلال تمر دون أن تترك أثرًا حقيقيًا في ذاكرتي.

لماذا لا أملك تلك الشجاعة البسيطة، أو ربما الأسلوب المناسب الذي يقربني منهم؟ ترى، هل الخطأ فيهم، أم فيّ أنا؟ أدركتُ أن العزلة ليست لحظة طارئة، بل شيء متجذر في داخلي، متغلغل في أعماقي أكثر مما أظن. لم أجهد نفسي يومًا في التعرف عليهم، لم أسعَ للخوض في قضاياهم، في حكاياتهم، في تلك التفاصيل الصغيرة التي تصنع العلاقات.

لم يكن ذلك قرارًا واعيًا، بل كان امتدادًا لنمطٍ غرس فيّ منذ طفولتي. التربية هي التي صاغت هذا القيد اللامرئي، جعلتني أنتمي دون أن أقترّب، أرى دون أن أعرف، أعيش بينهم لكن منفصلًا عنهم.

كنتُ أعيب نفسي لأنني لم أتورط بما يكفي في شؤون الآخرين، لم أخُض تفاصيلهم، لم أتعرف على ملامحهم

الحقيقية كما يجب. لهذا، كنت عاجزاً عن شمّ نتن البعض المندس بيننا، واكتشاف عبق أولئك الذين يراقبوننا بصمت، بلا حركة، بلا تصريح واضح بالنوايا.

كنت دائماً أقف في موقف المتفرج، متجنباً الانغماس في المعمعة، اترقب الانسحاب من خوض التجارب، اراقب الوضع عبر مسافة. لم أتعلم أسلوب النصب والاحتيال، لم أمارس الغش، لم أتقن فنّ المراوغة أو التظليل، لم أجيد لغة الصياغة التي تجعل البعض يقف على قمة المشهد بينما يبقى غيرهم يترنح على الهامش.

وبالتالي كنت أعتمد على الآخرين حتى في أدق التفاصيل، كمن يمنحهم مفاتيح الأبواب دون أن يتأكد إن كانوا سيحفظونها له أم يغلقونها في وجهه يوماً ما.

التمسكن والطيبة وحدهما لا يصنعان إنساناً متوازناً، بل يجب أن يرافقهما قليلٌ من الحنكة والحيلة، قليلٌ من الدهاء، قليلٌ من الدراية. ليس لخداع الناس، بل لحماية النفس من أنياب الذين لا يرون في النزيه غير فرص لاستغلالها.

أنا لا أريد أن أكون ذنباً أو ثعلباً، وأيضاً لا أريد أن أكون حملاً بين الوحوش، لا أريد أن أكون اقصوصة أو لقمة سائغة في عالمٍ يُقدّس القوة ويحتقر السذاجة.

لهذا، قررت أن أتعامل مع الحيلة كأداةٍ لا تُستخدم إلا حين يحتاجها الميزان، حين يكون العالم مُختلاً فلا بد أن تُعيد التوازن لنفسك. لا أستعملها إلا في لحظات التحديات، في

أوقات الحرج، في لحظات الهرج والمرج التي تجعل الإنسان يقبع في زاوية تُقَيِّد سلوكه.

في ذات اليوم الذي عدتُ فيه من دائرة الأمن، وعند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، سمعتُ ربتا دقيقا على باب الدار- ربتا خافتا، متكررا، كأنَّ الطارق لا يريد أن يفز الشياطين. لم أتوقع غريباً في تلك الساعة المتأخرة من ليلة مظلمة، ثقيلة، لا قمر فيها ولا كهرباء بعد أن عطلت منظومتها الطائرات الأمريكية. كان أول ما خطر لي أن يكون الطارق أحد إخوتي أو أقاربي، قادمًا من رحلة طويلة، يحتاج إلى مأوى ولو لوهلة.

الباب الخارجي يبعد عن الداخلي قرابة خمسة وعشرون مترًا، المسافة تكفي لتخلق سؤالاً بين الطرقات والنهاية. ذهبت لاستطرق من يكون، فقلت بصوتٍ حذر:

— من الطارق؟

أجابني صوتٌ خفيض، متردد، محمّل بالخوف:

— أنا... أنا الأستاذ حسن.

فتحتُ الباب بهدوء. لم يكن عليّ أن أرى وجهه لأعرفه، صوته وحده فضحه - صوت أجشّ، مختنق، يكتنفه ارتباكٌ يضيق عليه المسافة حتى لو وقف في العراء.

الكهرباء مقطوعة. القمر لا ذ خلف الأفق كما لو أنه هو الآخر يرفض أن يكون شاهداً. جاء مهزوزاً، لكن لم يكن وحده. كان

برفقة أخيه، وكان برفقة وجل يزدهم في قلبه وفي الهواء من حوله، قلق يغشي فكره.

جاء يبحث عن ذاته التائهة بين ثنايا تفكير المشعشع، بعدما لسعته نواميس الأمن المقلقة، بعد أن خرش فكره وشم أعطب ظنه، عندها أدرك أن الحقيقة التي كان يبحث عنها، ليست أكثر من مخصصة رعب تحيط به.

الخوف كان راجاً في كلامه، طافحاً في فكره، سليلاً في نفسه. لذا جاء يبحث عن منفذ للهروب في جعبي.

لقد جاءني في وقت غير عادي لأمر جل سلب ثقته بنفسه، جاء يستجد بي عسى أن أنجيه من سطوة الغرق، لأنني بحكم الظرف كنت قد سبقته بشهادتي لذات الأمر، إذا لا بد أن أكون قد علمت بتفاصيل الحدث الأهوج والمجهول بالنسبة له.

كان عليه أن يواجه موظفي دائرة الأمن عسى أن يتملص من إسفاف العقاب أن أمكنه ذلك، لقد أتخفوه بأثري، كبلوه بالعقد، بلغوه بضرورة الحضور للإدلاء باعترافاته أمام ذلك الأصلع....

الظلمة كانت كاسحة، ثقيلة، تُطبق على الشوارع كما لو أنها تنفت العتمة من زواياها وجادتها. لم يكن هناك شيء يتحرك سوى فراغ موحش داكن، سوى سكون يُخيّل إليك أنه عالم أجرد ليس مجرد هدوء، بل كيان متربص، يُراقب دون أن يرى، يفيض في النفس الرهبة.

مصاييح أعمدة الشوارع مظفأة منذ زمن، غارقة في سبات العتمة كحال مدن العراق الأخرى، تلك التي خمد فيها الضوء منذ أن أعطبت مصاييحها قوات الغزو الأمريكية في معركة (أم المعارك أو عاصفة الصحراء) التي اقتلعت الجيش العراقي من الكويت.

حتى القمر في تلك الليلة لم يكن كما عهدناه- لقد أنزوى خلف الأفق مبكرا، كأنه وشل طاقته من النور، كأنه تعب من مراقبة الناس وهم في تيه من أمرهم يدونون عقدهم التي لا تنتهي على صفحاته البيضاء، يكشفون أسرارهم وإرهاباتهم التي تتجدد كل يوم وكأنهم لا يعرفون الخلاص طريقًا. تهجس بالليل المغشي بالعتمة مُطارداً من العتمة التي تفيض من الأرض وتلك التي تهطل من السماء...

للهدوء الدائر في تلك الساعة؛ لا تسمع سوى أزيز الحشرات الرائجة بين الأدغال والأحراش المبتوثة في الحقائق، فيما تطرق مسامعنا نباح الكلاب السائبة وهي تهز السكون بين الأحياء، تلك التي تخترق صفوة الصمت لتتذر الحالمين والصوص بالخطر، نباح تخرش السكون، ربما تفيض من الوحشة الدائرة والجوع الذي اصاب كاهلها جراء وقع الحصار، فالحصار جار على البشر والشجر والحيوان. موجاتها تحرك ملأة السكينة الهدالة في الأفق، تعبت بالأمان كعبث النسائم بستانر النوافذ المفلجة، فتبتث الوجس في مزامير النفوس الساكنة.

حلّ حسن جاء وفي جعبته عنزة تمعمع، مرتعدا مما يحيطه به من شك وظن بما آل له ظرفه، معقود بحبل الخوف، حاملا في عينيه الف سؤال واستفسار عن سبب استدعائي، يستفسر عن سر العقدة التي ارتبطنا بها سوى. يود أنير له مسلكه الذي أنحرف عن أصله، ود أن أقشع الضباب عن عينيه..

سألني خانعا عن سبب استدعائي لدائرة الأمن، عن المغزى والغاية المرادة، ود الاطمئنان على نفسه بعد أن بُلغَ هو الآخر في ساعة متأخرة من الليل بضرورة حضوره لدائرة الأمن في بعقوبة صباح اليوم التالي... حيث قال في أرتباك:....

- صباح اليوم تم استدعائك لدائرة الأمن، وقبل ساعة من الآن بُلغْتُ بضرورة تواجدي غدا صباحا في دائرة أمن ديالى.. يا ترى؛ لِمَ استدعيت؟ ما هي المشكلة والموضوع المشترك بيننا؟ هلا أخبرتني وريحت بالي؟.

في قلب العتمة، تنعدم الحدود بين الليل والخوف، في أوج العتمة كانت الظلال تتمدد حولي وتعانق همسات القلب، اشتدت كما لو أنها كائنات تتنفس هواجس صمتٍ متواطئ. كان السر يثقل صدري، لا يساعدني على النوم، يسافد عقلي، كأنا يحاول يفل من شرك تفكيري ومن شفرة لساني، أن ينسلت من رعشة أصابعي، أن تخونه خطواتي المرتبكة.

الظلمة لم تكن وحدها من تحاصرني. كان هناك حضور خفي لكائنات من وجس شياطين الأمن تهجس بها بلا ملامح،

تتسلل من بين زوايا الحقائق، تراقبني، تنتظر اللحظة التي أضعف فيها. أشعر بأن للأمن جواسيس تجوب في تفاصيل حركاتي، كالنجوم التي تضيء السماء بصمت، كأنها تُحصى أنفاسي، تُدَوّن ارتبائي في سجلات لا تُمحي.

رجال الأمن ليسوا هنا أو هناك، لكن أثارهم تدل عليهم في كل مكان، كأنّ صدى صراخ الضحايا لازال معلقاً في الهواء. أعلم أن الخطأ ليس خياراً، فالخطأ قد يُغلق الأبواب، لكن العتمة شجعتني أن أبوح لحسن بالسر هامسا له، وقسوة الأيام تُخبرني أن العيون تعرف أكثر مما يفترض بها أن تعرف. لازلت لا أعرف هوية الذي وشى بنا للأمن. لذا كنت متهيب من جوارحي والمكان والظلمة وتلك النجوم التي تراقبنا بصمت.... رافقتني ذلك الإحساس نتيجة القسوة والعنف المستخدم من قبل رجال الأمن ضد العامة من الناس...

ما شجعتني أن أبوح له بتفاصيل ما جرى، هي الحالة المطبقة على الأجواء، الهدوء المصفر في البقاع، الرأفة التي اشتتت بصدري، كأنها جنود تقابل الخوف المتصيد في المياه العكرة، الفرصة جعلتني أهتز وأخضع لطلبه، أفرغ مخزون ضعفي وانكساري أمامه...

لا بد أن يعلم بتفاصيل الحدث كي يستطيع إدارة فكره في حل لغز عقدته، كي يدبر أمر ذاته بنفسه، كي ينقذ ذاته من شباك التهمة المتهيئة له، كي يهرب من ثلم العقدة إذا أمكن.. ذلك ما يخصه ويقدر موقفه بنفسه.

لذا كان عليه أن يجد مخرجاً لأزمته، لينزع عن ذاته الرهبة الدائرة حول، والعاثة بفكره، المثيرة لأنزيمات جسده، تلك التي لاكت خلاياه فصبت الرعشة في أطرافه. تلك الخلطة الحامضية التي زاغ بها الجسد، زعزعت أعصابه، أرهقت قلبه، أعمشت عيونه.. إذا لا بد من تليينها وإعادتها لطبيعتها.

لا بد من منحه فرصة التفكير والمراجعة، ولملمة أوراقه المبعثرة قبل أن يشرع التحقيق مع ذلك الأصلع، قبل أن تُفلت براءته من يده وتطبق تلك الافتراءات عليه ومن ثم يغرق في سباته.

قلت له مذكراً برحلتنا معاً للمدرسة...

- هل تذكر اليوم الذي التقينا به في المرأب أنا وأنت وداود حين ذهبنا معاً للمدرسة؟.
- نعم أذكر.
- هل تذكر الحديث الذي جرى في الباص حول الانتخابات الكردية.. بعد أن تصفح داود جريدته؟ حين ذكرت بأن السيد مسعود قد فاز بنسبة كذا والسيد جلال الطالباني فاز بنسبة كذا! وأن الانتخابات ليست فيها قسائم أسماء ليدرجوا اسم الرئيس صدام فيها؛ إنما هي عبارة عن صورتان لمسعود وجلال الطالباني... الخ من حديث حول الانتخابات.....
- نعم أتذكر التفاصيل..

- من أين أتيت بتلك المعلومات؟ كيف استقيتها؟ هم سألوني بها، وكذلك سألوني أن كنت قد تهجمت على السيد الرئيس أم لا؟
- وماذا قلت بهذا الشأن؟
- لم أقل شيء، هذا الحديث الذي جرا بيننا، واكيد نفيت فقرة التهجم على الرئيس صدام لأنه فعلا لم يحصل ذلك.. ذكرت لهم المجادلة التي جرت داخل العجلة وان هناك أناس يجلسون خلفنا وأماننا، لا يمكنه أن يتجاوز على سيادة الرئيس..
- أني سمعت تلك الأخبار عن طريق الإذاعات (إذاعة لندن وإذاعة منتيكارلو) ووسائل أعلام كثيرة نقلت الخبر وتحدثت عنه.
- أذا كانت الإذاعات عنيت بذلك وبثت الخبر فالمسألة عادية في رأيي، أظن ليس لديك مشكلة كبيرة، لأنه لدى أجهزة الأمن دراية تامة بتلك الأمور عبر قسم التنصت والتحليل، فأنهم يتبعون كل شاردة وواردة تخص الوطن وأمنه.
- أنا خائف من أن أذهب! بماذا تنصحنني؟.. هل أهرب إلى كлар أم أذهب للمواجهة ؟

في سؤاله كأنه قد وضعني بين شفرتي كماشة، بين أن أميل لنصحه وبين أن أجرد نفسي العقدة التي قد تلتف حبالها على رقبتني. ثم أن المسألة من المفوض أن تُدرَس جيدا، ما نتائج الهرب وما نتائج المواجهة؟ هو يحسن تقديرها لأنها تخصه. العقدة تكمن بأننا كلانا لا يعرف طريق الخلاص، أين تكمن

الخطورة، ومن الذي شرع بحياكة العقدة؟ ماذا دون في التقرير المغرض، وماهي أبعاد العقدة وخطورتها؟ كنا لازلنا في تيه من أمرنا، لازلنا تحت وقع الصدمة، لم نفق منها بعد. لازالت الدوشة تطرق مسامعنا دون أن نستطيع الهرب منها. في وسط تلك الدوشة وظلمة كنا لا نعرف أصل العقدة ورأس الخيط المقطوع، وما هو السبيل لتجنب الانزلاق نحو الهاوية. فقلت له مبينا الموقف:...

- يا أخي لا أعرف كيف أجيبك على السؤال، عليك أن تقرأ الحدث جيدا بنفسك، وعليك أن تقرر مصيرك ومصالحتك جيدا، فأنت أدري مني بسلامة وضعك من المشكلة. برأيي المواجهة أفضل من الهرب، فأنت موظف ولديك زوجة وأطفال هم بحاجة لك ولمعونتك وراتبك، برأيي مواجهة المشكلة أفضل من تعليقها، حيث دائما ما تؤدي المواجهة لحل سريع للعقد والمعضلات المرافقة، فلا توجد حلول سحرية بالهرب....

أن كنت نظيفا، وتلك الأخبار المتداولة هي عامة وليست خاصة، فأظن المواجهة ستكون أسلم لك من وجهة نظري. لأنها ستزيل عن كاهلك كل شائكة وشائبة تتعلق بك، ستزيل التهمة والخوف عنك وعن عائلتك - بينما خلاف ذلك ستبقى أسير الخوف والهرب والتهمة طوال حياتك، وقد تتضاعف الأزمة والمعاناة مع الهرب. حيث لا تعرف متى ستنتهي تلك الملاحقة من قبل رجال الامن. بالإضافة إلى أنك

ستخسر الوظيفة وستقطع دابر الرزق الجاري، ستبقى
تعيش كل حياتك منزويا خلف الرعب والفقر والعوز
والعناء إلى أجل غير معلوم.

المسألة تمس شخصه بالمباشر؛ لن استطيع أن أفتي
بمصلحته وخدمته قدر ما وضحت له مما جرى معي ... ثم
أنه يجب أن يحلل المعطيات على ضوء ما هو عليه وما لديه
من معلومات تخصه؛ لن أستطع أن أخدمه فيها قدر أن يخدم
نفسه بنفسه، حتما هناك أسرار متعلقة بالموضوع لا أعرفها،
أسرار مرتبطة بذاته وبإدارة المدرسة وحجم خلافاته معها
وبالمحيطين به، ربما لكتاب الاستقالة من الحزب له دور في
الأزمة.. كل تلك الأمور لا استطيع أن أدخلها في صلب
الموضوع كوننا لازلنا نعيش تحت وقع الصدمة، لازالت
الحالة غامضة علينا، لم نتفحص اساسها.

وفي الحقيقة لن أستطع أن أخمن حقيقة ما سيحدث له، ولا
أعرف بالضبط أن كانت المسألة هي مجرد تحقيق أم تهمة
لاصقة به.... ثم قلة الخبرة والوعي في هذا المجال يجعلنا
مكتوفي الأيدي أمام اتخاذ أي قرار عاجل، وخاصة نحن
لازلنا نجهل أساس ومصدر الشكوى وطبيعة وعمق الشكوى،
لم تكن تحت أيدينا أية دلائل تثبت التهمة أو تنفيها، أنها كانت
مجرد أدعاء من وجهة نظري.

المعادلة واضحة أطرافها، وهي موضوعة بين يديه، يجب
أن يخمن بدقة ويكيل وزنه قبل أن يتصرف ويسلك سلوكا
غير حميد، كان عليه ان يعرف أن كانت النتائج تميل لجانبه

أم لا، كل أنسان أدري بنفسه وارتباطاته، يعرف حقيقة توجهاته، فأسرار الناس لا تدرك، بذلك يستطيع أن يقرر في الخطوة القادمة أين يجب أن يكون موضع القدم، وفي أية اتجاه.

يا ترى؛ هل جاءت هذه الأحداث معاكسة لما تحركت به رمال العاصفة التي افتعلها بذاته؟ أليس من المفروض أن يدرك مسببات العقدة وحجم تأثيرها وقوة عصفها؟...

على سبيل المثال؛... ألم يتعرض لمضايقة ما من قبل إدارة المدرسة بعد أن قدم استقالته من الحزب؟ ألم ينصحوه بالتريث قبل ذلك؟ ألم ينبهوه على خطورة الحالة؟ ألم يمارسوا عليه ضغطا ليتراجع عن قراره الغير صائب في وقت غير مناسب.. ثم ما الهدف من تقديم الاستقالة؟ لِمَ كان مصرا على الاستقالة من الحزب دون زملائه المدرسين من ذات القومية؟... الخ من تساؤلات لا بد أن يكون له دراية بها مارا بها أو مرت عليه أو نوقش بها...

لا بد أن حصل شيء من هذا القبيل معه، كان يجب أن يراجع نفسه ويضع المقاييس الصحيحة لكل المنغصات التي رافقته، كان عليه أن يجد حلولاً للعقدة والمطبات قبل أن يطير بأجنحة ضعيفة لا تحمله فوق البحر، كان عليه أن يضع النقاط على الحروف، لتكون عباراته الفقهية مفهومة المعنى.

كان عليه أن يعلم بأن الخطوة محسوبة عليه، والسرعة محسوبة، والتأخير في القرار يعني تأخير النتائج، كما أن كل

كذبة أو غلطة في التحقيق سينعكس عليه، بل سيزيد من الطين بلة. كنت قد نبهته بكل التفاصيل، وما على الحر سوى البلاغ، اللهم أشهد أنني قد بلغت.

ثم ودعني وانزوى في جوف العتمة عائداً لبيته، محاطاً بخلاخل الخوف تجلجل أذنيه، غيرت معالم فكره. مضى ينزف هلعاً من الجسد وجزعاً من الروح، جراء الصدمة التي هزت كيانه. يا ترى؛ كيف سيمضي ليلته العسيرة وهو أشبه بالمسطول، ترى أية طريق سيسلك؟ المواجهة أم الهرب؟..

بين الكبوة والنجاة، كان يسير مثقلاً بالحيرة، يلاحق ظلالاً من الأحداث تتراقص أمامه ثم تختفي، وكأنها تسخر من عجزه. تراوده الأسئلة كعاصفة، تحاصره بخيوط من الشك والقلق: هل هناك مخرج؟ هل ستكفيه حكمته لينجو من تهمة اشتدت قبضتها؟ أم سيبقى رهيناً لكبريائه، يتشبث بسلاح لم يعد يصمد في وجه قسوة العيون ذلك الأصلع؟

وقف ساكناً، يحاول أن يزن خطاه، وقد سقط في فخ صنعه بيده. لم يعد المراقب فحسب، بل بات فريسة في قبضة الوحش. ورغم ثقل الانتظار، كانت روحه تسعى لقرارٍ يحررها من العتق، ليُفرغ ما تراكم في صدره من طاقة مشبعة بالأسى.

لكن، أليس لكل عتمة بارقة ضوء؟ أليس لكل وقوف بداية انطلاق؟ ربما القرار القادم ليس نهاية، بل بداية فصل جديد لم

يكن بالحسبان. ذلك السؤال المهم، ماذا بعد المقابلة؟ ظل
يتردد كصدي في فكره.

تركته يحسب حساباته مع الأحداث التي مرت به وكيف
ينجدها ليحمي ذاته من الفتنة والتهمة.

2- مواجهة حسن

في اليوم التالي كان لزاما عليّ أن التحق بالمدرسة لروتينية العمل وخاصة كنا أيام عمل والاختبارات نهائية، الجهد يكون مضاعفا، وكنت في داخل نفسي محرجا من استفسارات الزملاء التي لا بد أن تطرح من قبلهم على طاولة الفضول، للاطمئنان عليّ من جهة، ولمعرفة تفاصيل العقدة من جهة أخرى.

ما أن دخلت المدرسة؛ حتى تجمعوا الاساتذة حولي كالدباير، يستفسرون عن سبب استدعائي، حينها كنت في وضع لا أحسد عليه، مرتبك، خائف من إفشاء السر من ناحية، وخجلٌ من عدم الإجابة على اسئلتهم من ناحية أخرى.. حينها كنت أشعر بأنني واقع تحت مجهر دائرة الأمن، مراقب من الشيطان، لا أستطيع تشخيص نواياهم، وخاصة لازلت أجهل حيثيات العقدة والشخص الذي وشى بنا وورطنا بالمشكلة.

لحساسية الموضوع الذي يمس شخص الرئيس تجنبت الحديث مع الجميع، لا أستطيع البوح بماهية العقدة، ولم أتفوه بأية كلمة لسريتها، ثم ربما تذهب كلماتي بتفسيرات وتأويلات جديدة تنعكس سلبا على شخصي، تأخذني لأبعاد أخرى أنا في غنى عنها، تزيد من لفائف العقدة فأتورط بها فعليا، فقلت لهم:....

- الأمر لا يخص أحدا، وأنها مجرد استفسارات عامة والتحقق من معلوماتي الشخصية...

- بذلك حاولت تجنب الخوض في الموضوع، والتملص من نظرات أعينهم اللوححة التي تحمل الكثير من الارتياح والظن الخاطئ. كنت أسمع همس بعض الألسن النمامة وأراقب لصلة العيون اللامة، أهجس بها تدور حول محور جوهر القضية، راغبة بمعرفة لغز العقدة. ابتعدت عن تلك الشلة، خوفا من أن يجرني الحديث إلى ما لا أرغب، لذا جنبت نفسي إرهابات اسئلتهم وفحوى الاخبار، تلك التي قد تؤدي بي إلى التهلكة.

كنت لأزل أقف على جرف هار، بين هوة الشك وقمة اليقين، لا أعرف سلامة موقعي ولا أين تكمن مصدر الخطورة في لب القضية التي لم تحسم بعد، ولم تتكشف عناصرها، وخاصة المدير لم يوضح لي سر القضية.

فإذا كان المدير على علم ودراية تامة بتفاصيل القضية، هذا يعني هناك آخرون أيضا على علم ودراية بها، فأني تصرف مشين من قبلي سيحسب عليّ ويعود بمردوده المعاكس على شخصي، ستسجل نقطة سوداء في سجلي، لازال الموضوع راقدا تحت غطاء مموه، لا أعرف من يقف وراء الحدث، ولا من يدير الدفة ويريد الشر لي.

آن ذاك كانت لاتزال اولويات القضية غامضة، فكري منشغل بوجوه ركاب الباص الذين ركبوا معنا، محاولا تمييزهم والتعرف عليهم، أهجس بهم وجوه غريبة عليّ، لا أعرفها حقا ولا أستطيع الابتعاد عنها. بقي ذلك الأمر يشغل فكري

الذي بقيّ يدور في فلك الباص، محاولاً رسم ملامح تلك الوجوه بشكل ما لأقحمها في الحدث واقربها من ذاتي، عسى أن أجد خيطاً يوصلني بالفاعل الحقيقي الذي شخبط على أوراق سمعتنا بكتابة تقريره المغل علينا.

ثم الاستاذ داوود هو الآخر زاغ في المجهول، كأنه منح إجازة مفتوحة، أختفى من المدرسة تماماً. صرت لا أشاهده إطلاقاً على فترة عشرة أيام الامتحانات، على الرغم من أن المدرسة قريبة عن داره. كأنه غص في معمعة الشهادة كونه الطرف الثاني كشاهد على القضية.

ترى من الذي تجرأ وكتب ذلك التقرير المغرض، من الذي ورطنا في المشكلة؟ من الذي تسنط علينا في داخل العجلة وأفرغ سمه في كأس الأستاذ حسن؟ من الذي رسم تلك العلامة الفارقة من الكراهية بيننا ليفرقنا كألفة، في محاولة دج أستاذ حسن في معمعة هلاك لا تعرف آخرها؟...

قد نختلف في الرأي، وفي وجهات النظر وتلك هي حالة طبيعية وإيجابية؛ لكن أن تتحول لحقد اسود بغيض ولقطيعة وامتهان؛ فتلك مسألة أخرى غير مقبولة، فيها الكثير من الريبة، المسألة أضحت ضحلة، مراقبة، صادمة، فيها من العقد ما لا يستهان بها، غدت جارحة وعدوانية بين حسن وكاتب التقرير.

هكذا بانّت لي العلاقة، تستند على رجلٍ واحدةٍ آيلةٍ للسقوط، وعلى قدر المصلحة الذاتية، هكذا فهمتها من خلال إشارة

مدير المدرسة لي، والذي بين لي من خلال تطمينه لي بأن
العقدة شائكة ولها أطراف أخرى...

ولكن الفكر البصري بقي منصب فقط على هؤلاء الذين ركبوا
معنا الباص خلال رحلتنا المشؤومة، يا ترى من منهم يعرفني
معرفة مقربة، ليدرج أسمى وأسم داوود كشهود ضمن دائرة
الاتهام؟ كيف عرف أسمى وأنا لا أعرف أحدا من هؤلاء
الركاب؟.. حينها بدأت أتساءل.. يا ترى؛ كيف عرفوا أسمى
داود وهو الغريب عن الديرة والمنطقة ليدرجوا اسمه كشاهد
معي؟...

كان داود يجلس في الوسط، عن يميني، وقد سمع تمامًا ما
سمعتُه من حسن. لا شك أن ما حدث لي قد وقع له هو الآخر؛
فلا بد أنه فهم تفاصيل المشكلة كما فهمتها، واستُدعي كذلك
إلى دائرة الأمن للإدلاء بشهادته. لذا، من الطبيعي أن أستفسر
منه عما جرى، علنا نجد سويا خيطًا يقود إلى من وشى بنا،
وربما ألتقط من حديثه ما يعينني على فهم طريقة تفكيره.

كان ينبغي أن أطرق بابه، وأن أستوضح ما مرّ به. غير أن
داود، رغم قسمات وجهه المتجهمّة، بدا وكأنه يسعى إلى
التنصل من علاقة الزمالة التي تجمعنا، مدفوعًا بكبريائه
ونزعتِه النرجسية، وقد يكون سببها تقدمه علينا في المرتبة
الحزبية. لهذا، كان يتجنب التواصل مع بقية المدرسين في تلك
الفترة، وكأنه يرسم لنفسه مشروعا خاصًا، بعيدًا عن
الآخرين.

ومع ذلك، كانت علاقتي بداود مختلفة عن علاقة باقي زملاء به. فقد جمعتنا القضية نفسها، وأصبحنا شريكين في الشهادة، مما فرض نوعاً من التقارب بيننا، على الرغم من المسافة التي حرص على إبقائها. وقد افتقدته خلال فترة امتحانات التلاميذ، ثم أعقبتها عطلة الصيف التي انقطع فيها المدرسون عن الدوام لمدة شهرين. وخلال فترة المراقبة، بدا وكأنه يتجنب لقائي عمداً؛ إذ انتهت مهامنا في ثانوية السعدية دون أن أراه قط. ربما نسق هذا الابتعاد مع إدارة المدرسة. وعندما استفسرت عنه لدى المدير، أجاب بأنه في إجازة بسبب مشاركته في دورة حزبية.

ترقبت لقاءه في الأسواق، مترقباً أن تكشف الأيام القادمة تفاصيل القضية التي بدت لي غامضة، ضبابية، تكتنفها الأسرار. لم أستطع أن أرى أبعد من حدود خطوتي، ولم ألتفت إلى من حولي أو إلى الأفكار المتناثرة في ذهني. لم ألجأ إلى معارفي، رغم أن البعض كانوا يرون الأمور بوضوح أكثر مني؛ فالمراقب من بعيد غالباً ما يكون أكثر قدرة على تشخيص الأخطاء وأشد دقة من أولئك الذين يعيشون الحدث.

لم أستطع تمييز العرّة عن الأحجار المتلائة في قاع النهر، رغم أن الجميع كان يراها بعين غير التي أبصر بها. فالناظر يرى الأشياء بعقله لا بهواجسه؛ يراها بلونها، بانتفاخها، وبريقها... أما أنا، فقد استعصت عليّ الحكمة، ولم أرَ إلا

غشاوة واحدة أحاطت كل شيء بلونٍ قاتم، كأنما أصيبتُ بالعمش فجأة.

كما الخوف من الأمن جسّ نبضي، منَع الآخرين من البوح بأرائهم؛ فلم يجروْ أحدَهم على كشف الغطاء، لينزع عن عينيّ تلك الهالة التي غلّفت رؤيتي بالضباب.

اهتم معظم الأساتذة بالأمر؛ كلٌّ منهم، ومن منظوره الخاص، حاول أن يستخلص الزبدة ويصل إلى جوهره القصة. رأيت ذلك بوضوح في وجه تحسين، إبراهيم، فتّاح، أكرم... وغيرهم من الأساتذة. ومع ذلك، لم أستطع أن أكشف لهم عن التفاصيل بما يرضي خواطرهم. كل ما أفصحت به كان مجرد قشور، كي لا أفسد للود قضية.

وفي ذلك اليوم كان الأستاذ حسن قد تغيب عن حضوره للمدرسة، لابد أنه قرر المواجهة وربما تسلل لمدينة كلار خفية خلال دجى الليل كما أوحى لي بنفسه...

لا أعرف بالضبط قراره، الاحتمالان واردان، لكنه لا بد أن يسير بخط ما، وحتماً أنه سر المقربين منه بأسرارهِ، أو سر أحد زملائهِ المقربين من المدرسين، أمثال الأستاذ تحسين الطيب، ليكونوا على دراية بجوهر القضية وتتبع مصيره مع إدارة المدرسة، ذلك ما هجست به من خلال اهتمام زملائهِ بالمسألة كونهم من قومية واحدة... ومن خلال الحديث المتداول بين أصدقائه، علمت بأنه قد فضل مواجهة الأمن

على الهرب ليقينه ببراءته من التهمة، وتلك هي الصفة الحسنة التي تمسك بها.

ولكن ما هي ردة فعل ضابط الأمن تجاهه؟ ما هي النية المبيتة من قبله تجاه حسن؟ وما حجم التهمة المدونة امامه؟ فعند مقابلتي له طرح عليّ بعض الاستفسارات للتأكيد فقط، فلم يبين لي حجم القضية المحاكمة. المسألة ليست متعلقة بحُسن النية وحتمية البراءة؛ أنما بحجم البغض والكراهية المدسوسة في أسلوب التقرير المكتوب، والذي لا يعرف مضمونه سوى إدارة الأمن وكاتب التقرير. ربما هناك من عرف هوامش من القضية كمدير المدرسة.

تلك هي العقدة التي وددت أن أفك لغزها، المعضلة التي صرت أبحث لها عن حل في صرة الفوضى التي تفشت بيننا، عليّ أسفط من بين الأفواه المللعة كلمة حق استخلاص منها نفسي وتحديد الغرض والمغرض بها، معونة معنوية أجدها لدى هذا أو ذاك ألمح بها فكرة أمتطيها أو ضوء أستنير به دربي، عسى أن أمسك برأس الخيط المنحل ليرتد هاجس الخوف لمحلّه..

بدأ الشك يتسلل إلى خيالي، وامتد إلى كل من يعبر بمحاذاة ظلي أو يرمقني بنظرة يغمرها الترقب والشفقة. أصبحت أتنصت لهمسات الجن وأميز فحيح الأشباح التي تومض في مخيلتي. لقد تغيرتُ كثيرًا عما كنت عليه قبل أن أكون شاهداً، إذ انقلبت طباعي وسلوكي رأساً على عقب. حتى الطيور لم تعد كما كانت في نظري، أرى وجودها في سمائي لغرض

مدسوس، فأصبحت أتحاشى رفرفتها فوق رأسي، وأتوخى
الحذر إذا حطّت بجواري. هكذا ظل مزاجي معكراً طوال تلك
الفترة التي قضيتها في البحث عن سر لغز ذلك التقرير
المغرض بحثاً عن الواشي.

3- لقائي ب داوود

في اليوم الثالث لم يلتحق الأستاذ حسن بالمدرسة، كأنَّ سنارة الصيد قد تلفقته، كأنَّ قدمه لزبت بجلي صمغ الفئران.. صار الكل يستفسر عن سر تأخره، علمت من الاستاذ تحسين أحد زملائه المقربين بأنه لم يعد من دائرة الامن في بعقوبة (مركز محافظة ديالى).

كثرت الاستفسارات من الجميع حول طبيعة المشكلة وأصل القضية، فوجدت نفسي مضطراً إلى شرح جوهر القصة وتفاصيل ما جرى لي لرفاق حسن. كنت قد بُحثُ بما في صدري لأستاذ تحسين الطيب عن الين الذي يستوعب القصة، لماله من روح نقية وصلات صادقة وعفوية مع الجميع، ولأنه الأقرب إليَّ من حيث المودة والثقة. أخبرته بما دار بيني وبين حسن عندما زارني في البيت ليلاً قبل ذهابه للتحقيق، ليكون ملماً بكامل الصورة ويُجنَّبني ضغط تساؤلات زملائه الذين أصبحوا يفتشون عن مصيره ضمن قوائم التهمة. لا شك أن لهم صلة بأهله وذويه، فأردت أن يكونوا بالصورة، بعيداً عن وشايات القيل والقال، والتأويلات التي أُقحمت فيها دون إرادة مني، لأتجنب وسوسة الشك في نفوس حسن وأسرته وأصدقائه. وهكذا، وضّحت كل ما في الأمر لأستاذ تحسين، علَّ في ذلك راحة لي وتوضيح للحقائق.

من خلال نظرة البعض الدونية وخاصة المقربين من حسن؛ هجست في خواطرهم لعنة الذنب تتقصّدي، تضعني في قوس التهمة، كأني أنا الذي وشيت به، أنا الذي قيدت يديه. كانت

حواراتهم مسمومة ونظراتهم فيها ألف إنَّ وإنَّ، تلاحقني، كأني مشترك بدرجة ما في حياكة التهمة وأبرام الصفقة مع جهة الأمن ضد حسن. ذلك ما خُيِّلَ لهم وما ذهبت إليه نفوسهم المريضة وما هجست به، دون أن يدركوا بأنني مُتَوَرِّط بصلب القضية كصاحبهم مع اختلاف الأدوار.

في ضيافة العتمة، لم يكن يدرك حسن أن تلك اللحظة ستكون فاصلة بين عالمين، بين الحياة كما عرفها، وبين غموض سقط فيه دون إنذار. القيود زينت معصميه، جمدت حركة أصابعه، ذكرته بأنه الآن في ضيافة التحقيق، ضيفٌ لدى من لا يعرفون الرحمة.

يا ترى! كيف استقبلوه؟ كيف عاملوه؟ هل احتراموه؟ هل ضايقوه؟ إلى أي مدى استخدموا معه العنف والقسوة؟ حتما كانت القضية مدسّته، مبيته، وإلا ما تمسكوا به تمسك الاعمى بعصاه. حتما لم يقتنعوا بمبرراته، أكيد رفضوا ادعائه بكل حيثياته. لن يتمسكوا به إلا إذا كان ما دون في التقرير شيء أكبر من الادعاء بالتهمة..

حتما كان الاستقبال بارداً، لا كلمات ترحيب تُقال في رحاب اللقاء المنتظر، فقط نظرات جامدة تزن مقدار التحدي في ملامحها. هل توقدت فيها شفقة؟ هل توردت فيها مرونة؟ أم كان وجوده بينهم مجرد إجراء روتيني؟ الأسئلة تومض في ذهنه لتنعكس فتنتها براحية يد الضابط مع الاجابات الباهتة، تصورت اللقاء سيكون بهذا الجلد تاماً، كالغرفة التي جلس

فيها، هميمه، فارغة، إلا من ظلّ يمثله، يتقلب تحت ضوء المصباح الوحيد.

أيام تمر، أو ربما ساعات؛ الزمن يتلاشى حين يصبح يومه مختزلاً في الاستجواب المتكرر، في النظرات المشككة، في الاستفزاز الذي ينتهي إلى صمتٍ قاتل.... هو يعلم أنه بريء، كما يعلم أن هذا لا يكفي. البراءة هنا ليست حقيقة، بل قناعةٌ يجب أن تتسلل إلى مخ ذلك الرجل الأصلع، الجالس خلف المكتب، العاكف على قراءة تقريرٍ أقوى من كلمته.

المعركة لم تكن بين الأدلة والتهمة، بل بين الشك واليقين، بين سلطةٍ تفرض واقعها وبين صوتٍ يحاول النجاة. أكيد حسن ثبت على موقفه، لم يستسلم، كانت كرامته هي السلاح الذي لم يستطيعوا انتزاعها، حتى عندما توالى الأيام وبقي القيد في معصمه شاهداً على أن الحرية لا تُمنح بسهولة.

لم يكن حسن مجرد رقمٍ في تقرير أمني، بل كان شخصيةً عالقة بين الشبهات والتكهنات، بين تفاصيل لم تُكشف، وبين أسرار ظلت خارج نطاق التحقيق الرسمي.

فمنذ لحظة اعتقاله، لم تكن التهمة وحدها هي محور القضية، بل كانت هناك خيوطٌ دفيئة أخرى تُنسج خلف الكواليس ليست لها صلة بالتقرير. استقالته من الحزب وانتمائه للأحزاب الكردية ربما جزء من القضية.

لم يكن التحقيق يبحث فقط عن صحة الادعاءات، بل كان يغوص في ما هو أعمق: في توجهاته، في مواقفه الساخرة

التي ربما لن يمر مرور الكرام، في علاقاته الغامضة التي لم يُصرِّح بها.

بدأ يفهم أن الأمر يتجاوز قضية عابرة، إنها شبكة معقدة من المصالح والخفايا والأسرار، حيث تُصنع الحقائق وفقاً لمن يملك القرار. القضية لم تكن لإثبات إدانته أو براءة، بل تعدت لتكون جزءاً من لعبة أكبر، لا تُكشف قواعدها إلا لمن هم خلف الستار قابع في العتمة، أدرك حسن أن الحرية لها ثمن باهض.

لقد غص بقدميه في وحل التهمة، تجرع السم، لا يستطيع الذود عن نفسه، الوحوش تدور حوله ولا تسمح له بالتفوه. فكم من الثلم خزقت فكره وأزدرت خياله. أكيد تبدل طبعه وتخلّى عن عجرفته وكبريائه، أكيد شتى خياله وشطّ ذهنه وظنه، بل نشز سلوكه وهو دائر في وسط فوضى الأسئلة المحيرة والتهم باتت تبلل ساقيه وتهطل على رأسه.. كيف؟ ولماذا؟ ومن؟ ولم؟ ومتى؟ وأين؟. وووووو.... الخ لمعرفة دوافعه الغير معروفة.

وسط غرفة التحقيق الضيقة، حيث الضوء يتساقط كالشظايا فوق ملامحه المتعبة، وقف حسن أمام أسئلة لم تكن تبحث عن إجابة، بل عن ارتباكٍ يعمّق الشكوك ويثبت التهمة التي لم يفهم كيف التصقت باسمه.

حاول أن يرسم مساراً واضحاً لإجاباته، أن يبني جداراً من المنطق أمام العصف الذي ينتظره، لكن شخصية مهتزة مثل

شخصيته لا تحسن المراوغة. كل كلمة كانت تُوزن، كل إيماءة كانت تُسجّل، حتى ترده أصبح دليلاً ضده أكثر من صمته.

عندما انفجر السيل الأول من الاستجاب، أدرك أن صبره لن يصمد طويلاً. كان مهلهلاً، مثل خيطٍ بالٍ يتأكل عند أول شدة. لم يكن العنف هو التهديد، بل تلك النظرات التي تطلّ من وراء الطاولة، تبحث عن ثغرة، تنتظر لحظة انهياره كي تثبت ما أُعدَّ مسبقاً.

بين ارتبাকে ويأسه من النجاة، بقي لديه شيء واحد متمسك به: يقينه بأنه بريء، حتى وإن كانت البراءة مجرد فكرة لا قيمة لها في تلك الفوضى من الأسئلة. ليس كدفاعٍ عن نفسه فقط، بل كمقاومةٍ أخيرة في وجه لعبةٍ لم يحسن فهمها، كانت ضده منذ البداية.

يا ترى؛ هل تمكن من الصمود أمام ذلك المد العالي من موج الأسئلة الموجهة له؟ هل تحمل الرهبة التي تملكت قواه؟ هل تمكن بجداله المُربك والضعيف إن يلين فكر وظن ضابط التحقيق، الذي واقف على رأسه وينظر إليه بعين الصقر، وكأنه يود افتراسه، ذلك الذي لا يود الحقيقة قدر أن يرق اعتراف مع التقرير المصاغ، ذلك الذي تهجس في عينه تحدٍ وشكٍ لا يستطيع أن يفلت من قبضتها.

أنها ساحة النزال الأصعب في حياته، ساحة مراس دون أن يمارس مثيلها من قبل، لا بد له من فطنة وذكاء وتجربة وقدرة

ومرونة تعين ذاكرته على فض عقدة التهمة والصمود أمام تحدي ذلك الأصلع له..

يا ترى؛ كيف رتب أجوبته على ضوء تلك الأسئلة الحادة التي تحوي في أسلوبها قسوة مغلّة، تلك المطروحة أمامه على طاولة التهمة؟.

.. كيف؟ وكيف؟ ولماذا؟

أكد أنه قد دخل في محنة صيغ الكيف؟ ولماذا؟ ومن؟ ولمن؟ وأين؟. وووو... الخ التي لا نهاية لدوامتها...

في لحظات الشدة القاسية، يجد الإنسان نفسه في حالة من الارتباك والتشوش، حيث تفقد الصورة الحقيقية وضوحها، ويغدو كل شيء مشوشاً أمام ناظريه، خاصة حين يكون محاصراً في عزلة قسرية. في مثل هذه الظروف، قد تتغير الألوان وتختلط الحقائق، ويصبح إدراك الحدود والمعالم أمراً بالغ الصعوبة، كما تتعقد عملية تفسير الأحداث وتسلسلها المنطقي.

لهذا، فإن الوصول إلى الفهم العميق لحقيقة التهمة وأصلها يتطلب وقتاً إضافياً، يحتاج فيه الإنسان إلى لحظة تأمل وتريث، إلى مساحة من الصفاء الذهني والهدوء الداخلي، حيث تتكشف الأمور تدريجياً، وترسم الملامح بوضوح في عدسات الفكر والعين بعد التعرف على نسيج الخيوط، ليتمكن أخيراً من إعادة ترتيب الأحداث وفق رؤية صحيحة ونزيهة. لكن حين تُسلب منه هذه الفرصة، يصبح البحث عن الحقيقة

كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، لذا تظل الصورة ضبابية أمام عينه فترة أطول.

ذلك ما كان يحتاج إليه حسن وما كنت أحتاج إليه أنا أيضا. الوقت ضاق علينا، الحالة استعصت علينا، كانت العقدة قد حلت على رؤوسنا بشكل مفاجئ، لم نكن مهئين لها، لم تسنح لنا فرصة التفكير والمراجعة وتدقيق الأمر لمعرفة أسس المشكلة وأبعادها؛ فلم نتحسس خطورتها إلا بعد أن تحصنت وتعددت أمورها، أضحى التفكير في مراجعة حيثياتها غير ممكن ومن المستحيل..

في أجواء يسيطر عليها التوتر والترقب، يدخل الضابط بوقع خطوات حازمة، وجهه صارم ونبرته لا تحتمل التردد. يرمق حسن بنظرات تخترق الصمت، كأنها تحاول انتزاع الاعتراف قبل أن ينطق بكلمة.. يقترب من حسن مباشرة، كأن المسافة بينهما لا تحتمل التفصيل:....

— أنت حسن؟

— نعم، سيدي.

وقبل أن يتم إجابته يتلقى صفعة على وجهه.. تآك — الصفعة لا بد أن تكون مفاجئة وغير متوقعة لتأتي بثمارها، تفقده صوابه، حينها يسقط أرضا والدنيا تدور في رأسه، مذهولا، لا يسمع سوى طنين يغشى فكره لتمسح عن ذاكرته كل ما ود أن يتلفظ به، وما كان قد أعده مسبقا دفاعا عن نفسه وبراءته،

يتوقف ذهنه عن التفسير إلا من تلك الالفاظ النابية التي تطرق
إذنيه كوابل المطر، ألفاظ فيها لغط ومسبة جارحة.

- يا كلب، يا خسيس!! تصل بك الجرأة والوقاحة أن
تتجاوز على فخامة السيد الرئيس؟..

- لالا... لا والله سيدي لم أتجاوز عليه، لم أذكره
بسوء... أنا بريء من التهمة. هذه تهمة كيدية.

يعالجه بصفعة أخرى.. تاك ...

- سيدي لا تضربني.. أنا بريء.... أنا ..

- اجلس هنا يا نتن سنتبين أن كنت بريئاً أم لا، كل
المؤشرات تثبت التهمة عليك. هناك شهود شهدوا
عليك أن كذبت فلا تجد مني سوى السياط..

لم تكن الكلمات مجرد استفسار، بل مقذوفات مشحونة
بالقسوة، كأنها لهب يتطاير بلا هوادة. لا مجال للحوار أو
التفهم؛ فالمشهد محكوم بسطوة الصوت الجاف الذي لا
يعترف إلا بالقوة. لحظة واحدة تكفي لتختلط الحدود بين
الحقيقة والاتهام، حيث تُرسم الصورة وفق إرادة اليد الأقوى.
هكذا يسير اللقاء في مسار متوقع...

الصفعة المباغطة تقطع أنفاسه، تتركه غارقاً في دوامة من
الطنين والذهول. لا يبقى سوى وابل من الشتائم يطرق أذنيه.
يحاول أن ينطق:

- لا والله، سيدي، لم أتجاوز... أنا بريء.

لكن الرد يأتي بعنفٍ مضاعف، ليُحكم عليه بالجلوس في زاوية التحقيق، حيث تُمارس السلطة أسلوبها المعتاد: الضغط، التهريب، وانتزاع الاعترافات. هنا، لا تُطرح الأسئلة بحثًا عن الحقيقة، بل تُصاغ كأفخاخ، تُرغم المتهم على الاستسلام.

في غرفة التحقيق، الضوء خافت، والجدران محملة بأصداء القهر. يتحول الاستجواب إلى مسرح للقسوة المقتننة، حيث يُستخرج الاعتراف كما يُراد له أن يُكتب، لا كما هو في الواقع. العدالة تغيب، والولاء للنظام يصبح المعيار الوحيد.

أُكيد بعد تلك المقابلة العنيفة تنهار معنوياته، تضعف ثقته بنفسه، يفقد القدرة على المواجهة، قد يلجأ إلى الاعتراف ليتجنب القسوة المفرطة، حينها يكون قد علم بأنه متورط ومكبل بالتهمة، لا يمكن أن يفلت منها.... هذا هو أسلوب الامن مع المتهم بشكل عام.

أُكيد تهاوت عليه الأسئلة كنبال الحرب، أُكيد سحقت أفكاره وأثقلت ذهنه، حيث ترهقه حتى يشعر وكأنَّ عقله يتصدّع تحت وطأتها. كل استجواب ليس مجرد كلمات، بل صفة تحمل في طياتها لغزًا ومغزى خفيًا، تُلقى بظلالها على إدراكه، ويتجلى أثرها في نبض قلبه ونظرة عينيه.

بين تلك الحدود التي لا ترحم، يصبح التحقيق أكثر من مجرد إجراء قانوني؛ بل مسرحًا للقسوة المقتننة، ابطالها ضابط التحقيق والمتهم، حيث تُستخرج الحكايات كما يُراد لها أن

تُروى لتجاري رغبة المسؤولين. وفي النهاية تدون الأقوال وتُرفع الأوراق إلى الجهات العليا، بناءً على حقيقة كاذبة، تميل نحو إرادة القوة.

ربما كان ذلك ما تعرض له، كما سمعنا عن أمثاله من قصص، كتلك التي تتسرب إلينا عبر أفلام السجون أو تُجسّد في أفلام السينما. لا شك أنه حين دخل غرفة التحقيق، استقبله ذلك المحقق الأصلع بعجلٍ، وقبل أن يتمكن من استرداد أنفاسه، وقبل أن يستفسر عن سبب وجوده. هكذا يبدأ أسلوب التهريب المعتاد. طريقة تُجبر المتهم على الاعتراف، سواء كان مذنباً أم بريئاً. قد يتلقى الضرب قبل أن يُسأل، ربما تأتيه الضربة الثانية والثالثة، ليجد نفسه في دوامة الصدمة. وحين يفيق منها، يجد أن الاستسلام للأمر الواقع هو الخيار الوحيد أمامه؛ فهو الآن متورط وعليه مواجهة مصيره.

إنه مشهد تتعاقب فيه القسوة والخضوع، حيث يصبح الإنسان المقيد هدفاً لسلطة تبحث عن اعتراف بأي ثمن. تُمارس عليه الضغوط الجسدية والنفسية، تُزرع في ذهنه فكرة أن المقاومة لن تزيده إلا ألمًا، وأن الاعتراف- مهما كان زائفاً- هو الطريق الوحيد للخلاص من سيّاتهم ونظراتهم الجهمّة.

في ذلك الموقف، تتلاشى الحدود بين الاستجواب والعقاب، بين العدالة والانتهاك. يبدو الأمر كما لو أن المتهم ليس سوى أداة لملء الفراغات في ملفات التحقيق، وكأن الحقيقة ليست الهدف بقدر ما هو إغلاق القضية لمواجهة المصير، حيث سيُحكم عليه بناءً على ما استُخرج منه بالقوة، لا بما هو حقٌّ

وعدل. إنه اختبارٌ أقسى من احتمالهِ، فكيف يصمد فيه العقل والقلب؟ لأن مهمة دائرة الأمن هي نزع الأدلة من المتهم وتحويله لدائرة القضاء لا محاسبته.

الولاء والعدالة في منظومة الأمن محسومة لجهة النظام، تُدار التحقيقات أحياناً وفق منظورٍ لا يعترف ببراءة المتهم أو إدانته، بقدر ما يركز على انتزاع الاعترافات بأي وسيلة ممكنة. فالمحققون يعملون لكسب ثقة رؤسائهم، ورجال الأمن يقيسون نجاحهم بمقدار ولائهم للنظام. وبهذا، تصبح العدالة فكرة هامشية، لا تحظى بالأولوية أمام ضرورات الأمن السياسي.

- هل تفوهت بكلمات مسيئة بحق رئيس الجمهورية؟
- لا سي...دي...

لم تكتمل كلماته، إذ تباغته صفة حادة على وجهه، لتقطع سيل أفكاره وتتركه غارقاً في ألم مفاجئ، يطغى على كل ما سبق من شكوك أو إنكار. يتبعها لسعة قاسية من كييل يلهب ساقيه، فتتلاشى بقايا الصبر ويتبدد الأمل في أي تبرير منطقي. تتداخل مشاعره بين الاعتراف والإنكار، ولا يعود للأمر معنى، هل هو مذنب حقاً أم مجرد ضحية في لعبة أكبر منه؟

- يأتيه السؤال مرة أخرى، بصوت حاد لا يحمل سوى الإصرار:
- هل أسأت إلى الرئيس بالكلام؟

المتهم محمرة العينين والدم ينزف من فمه، لا يدري كيف يتصرف ويجب فيهز رأسه بالإيجاب درئاً لتكرار الضرب.

- أريد أن أسمع صوتك
- نعم سيدي... تهجمت....

حينها يصفع على وجهه مرة أخرى أشد من الصفعة الأولى، مع الركل يسمعه كلاماً بذيئاً:.....

- يا كلب، يا حقير أنت الجربوع تتجاوز على فخامة الرئيس؟ إذا سألت منك.....
- سيدي ماذا عليّ أفعل؟؟؟؟ إن أنكرت أضرب، وإن اعترفت أضرب، ماذا عليّ أفعل لتكف الضرب؟

حينها يكف عنه ويدون اعترافاته ويوقعه عليها من ثم يتركه في زنزانة انفرادية.

يُقتاد السجين إلى زنزانة خاصة تُعرف بـ"زنزانة التنعيم"، حيث يخضع لجلسات من التدليك والدعك بالسياط، يُعوّد على هذه الصيغة كتمرين صباحي يومي حتى ينقل لسجن آخر تمهيداً لمحاكمته. عندها يُصنّف كخطرٍ وفقاً للتهمة الموجهة إليه. وقد يُوضع في سجنٍ انفرادي، بلا تهويةٍ أو بلا سريرٍ يريحه، حتى يوم النطق بالحكم، حين يُقرّ العدل.

لن أنسى زميلنا الذي أتهم بانتماؤه لفرقة صوفية من مبادئها تكفير الأحزاب، وبعد اعتقاله بفترة زمنية قصيرة، أطلق

القضية التي تورطنا فيها، كونه شاهداً رئيسياً في صميم الموضوع. حاولت جاهداً أن أفك لغز هذه المسألة التي تبدو معقدة ومبهمة، فقلت له بصوت منخفض:...

- أستاذ داوود، هل لديك معلومات عن الشخص الذي وشى بنا وزجّ اسماءنا في القضية؟ هل تعرف أي شيء عن الموضوع، أو من الذي تجاوز علينا؟

أردت أن أصل معه إلى الحقيقة، أن أفهم دوافع هذا الفخ الذي وقعنا فيه، وأن أحدد من كان وراء ذلك.

كل الدلائل كانت تشير إلى داوود، إلا شكوكي أنا، بقيت حائرة تدور في فلك بعيد، كالرحى تطحن بالناس المقربين والبعيدين دون أن أتبين الحقيقة، شكوكي لم ترحم أحداً، لكنها ظلت بعيدة عنه، كأنها تخشى الاقتراب منه، أو كأن الحقيقة تختبئ خلف ستارٍ لا أجرؤ على بيانها.

يقول المثل " الذي يخفي في جعبته عنزة تمعمع " ذلك ما ينطبق على داود تماماً، فكانت عنزته تمعمع ويسمعها الجميع دون أن تشد انتباهي إليها، دون أن أركز على هذا الصوت الخفي الذي ينطلق من جوفه بكل وضوح، الذي بدأ يسمعه القريب والبعيد، ظل بعيداً عن إدراكي. فقد أغلقت أذني بشمع الشهادة، وطمس بصري بضبابها، دون أن تفتح لي أبواب الحقيقة لأرى ما أمامي بوضوح.

تحولت ملامحه، وانزاح عنها بريق الزهو، لتتلبسها صفرةٌ تنطق بما يعتمل في داخله. غضبه يفيض، يتجلى في انقباض ملامحه وفي تلك النظرة المغمورة بالكآبة والتي تسكن وجهه وروحه على حد سواء.

صوته، لم يعد مجرد صدى داخلي، بل انفجر في زعيق مسموع لمن حوله. لم أعد أتجاهله، ولم أعد أصم أذني عن نبرة العنزة التي باتت تتردد بلا انقطاع في رأسي، كأنها تؤكد على اضطرابه، تدوي في وجداني حتى أصبحت جزءاً من المشهد ذاته. لقد تغيرت ملامحه، ما جعلني أنتبه على زعيقه المسموع للآخرين.

في البداية كنت أعتبره متورطاً مثلي في القضية كشاهد، فحالاه لا يختلف عن حالي من الوجهة القانونية، فمثلاً كنت أرى الصخب دائر حولي، كنت أميسه العذر في عدم مخالطة الآخرين والتتحي خلف عزلة تجنبه ويلات المغرضين، كنت انظر له بذات المنظار الذي انظر به إلى نفسي، دون أن أتهمه في صلب القضية من قريب أو بعيد، لذا ابتعدت شكوكي عنه في تلك الفترة.

عندها قال لي رداً على سؤالي:....

- علمي علمك أنها فعلاً مسألة محيرة!..... ولكن لم أنت مهتم بقضية حسن ومنشغل في أموره أكثر من اللازم، دعه يأخذ جزاءه، أنه كلب من كلاب جلال الطالباري.

ثم أخذ بعضه وأستاذن مني عائداً إلى مدينة السعدية مع شلته دون أن يتوسع معي في النقاش، تركني أدور حول محور حقه والقضية بعملية تركيب معقدة دون أن ينتشلني منها، كما تركني أعيد جملة في ذهني مرات ومرات حتى بدت شكوكي تلتصق به وتذمه، تركني في حيرتي التي زادت حيرة بسلوكه وحكمه القاسي على الأستاذ حسن.

ترك المكان، لكن الأسئلة لم تغادرني، بل ضربت بجذورها في أعماقي، تنبش في كل كلمة قالها، تحتني على إعادة النظر، على هدم الفناعات التي كنت أتمسك بها دون أن أوجه له الاتهام صراحة. تلك الكلمات التي تشرّبت الحقد، خرجت منه على هيئة سم قاتل، تراقصت على ثنايا وجهه، تفصح نواياه وما لم يقل.

لماذا يريد التخلص من حسن؟ لماذا يتمنى له الموت؟

هناك أمر مريب، المسألة ليست بالبساطة التي كنت أظنها، لا بد أنه متورط بشكل أو بآخر. لا بد له علاقة بالتقرير المشؤوم... وإلا، كيف عرف مدير المدرسة بأني شاهد في القضية؟

تلك الأسئلة باتت تتغلغل في أعماقي، تتشابك في مخيلتي، يقيني، وجودي، وكياني كطيور تحلق بلا هواة فوق رأسي، لا أملك سبيلاً للإمساك بها، ولا حيلة لإيقافها عن الدوران في فضاء شكوكي.

لا أستطيع الجزم بتورطه في القضية، لكن شيئاً ما بداخلي
يصرخ بأنه ليس بريئاً كما كنت أظن. إنه شاهد مثلي، لكن
هل هو مجرد شاهد؟ أم أن الظلال التي تتراقص حوله تحمل
حقيقة لم أجرؤ بعد على مواجهتها؟

كأنني أعمى من جانبه، أرى فيه ما ليس له علاقة بالقضية،
بصير، أتعثر بوضوح الصورة المشوهة أمامي، أحاول فك
شفرة الغموض الذي بدأ يحيط بكل شيء، دون أن أجد حجر
يقين أستند إليه.

بعد ذلك اللقاء، بدأت الحقيقة ترتدي اللون الرمادي بين الشك
واليقين، تتسلل إلى جوارحي رويداً رويداً، تتكشف أمامي كما
لو أن ضوءاً خافتاً بدأ يسطع في عتمة شكوكي. لم يعد الأمر
كما كان، لم يكن إجماعي عن اتهامه سوى قيد فرضته
الملابسات، لأنه كان مدرجاً بصفة شاهد في ذات القضية، مما
جعلني أتعامل معه بحذر، أراقب دون أن أحسم، أشك دون أن
أنهم.

كنت بحاجة إلى هزة قوية تخلخل أوضاعي وتعيد ترتيب قطع
الأحجية من جديد، لتتكشف الصورة أمامي بوضوح بلا
ضباب، تمنحني يقيناً قادراً على إزالة الغشاوة التي ما زالت
تخيم على رؤيتي. لحظة الإدراك كانت قريبة، لكنها لم تكن
مكتم

الفصل الرابع

1- عثمان شمس الدين

بعد أن سمعت من داود تلك الكلمات الغامضة، لاحظت ذلك الحقد الدفين الذي أبداه تجاه حسن، بدأ الشك يتسلل إلي جوفي. تزعزعت القناعات وتبدلت موازين الإدراك في داخلي؛ ذهبت مداركي إلى أبعد من أن يكون زميلاً لنا، أو شريكاً وشاهداً في القضية. هجست به كحجر خال من الإنسانية والعاطفة، مجرداً من المسؤولية الأخلاقية. بدا لي مكسواً بكبرياء أجوف تفوح منه رائحة فكرٍ فاسد وثقاس أمارة بالسوء وقلبٍ مثقلٍ بالغل. بدا عطنه كافياً لإشعال شرارة الاتهام، ولأوقن بأن له يدًا خفية في خيوط القضية، بل لعله هو من ساق حسن إلى مصيره المحتوم.

ومنذ أن اتضحت تلك الصورة أمامي، تغيرت الأولويات في رأسي، وعدت برأيي إلى نقطة الصفر، حيث ما زال الدليل مفقوداً. بدأت أردد في داخلي أنه ليس إلا شاهداً متورطاً كحالي، وهذا ربّما ما دفعه إلى إظهار ذلك الحنق على حسن. خُيِّل إليّ ذلك بينما كان الضباب يغشي بصري، وكأنني تجاهلت صراخ العنزة التي فضحته، في حين كنت أراه، بهواجسي، ممسكاً بطرفي العقدة بين أصابع يديه.

حيث لم يكن ذلك الحقد الذي أنبرى بين عينيه بمحض الصدفة، إنما لأبداً من أبعاد جزلت القصة ليكون لها دلالة وهدف، لابد من أياد خفية انشغلت في حياكة شبكة العقدة، خططت ودبرت التهمة، وقد يكون داود ضليعٌ معهم إن لم يكن سيدهم...

أعود أكرر مرة أخرى: لم يكن سوى شاهد.. مجرد شاهد لا أكثر.

تلك الصفة وحدها كانت كفيلة بأن تجعله يتأرجح بين التبرئة والاثهام، إذ لم يختلف وضعه عن وضعي كثيرًا. القضية كانت وما تزال معقدة، تثير الحيرة أكثر مما تقدم أجوبة. لكنه زادهما التباسًا، حين غض الطرف عن المشكلة، كأن الأمر لا يعنيه في شيء. شعرت بعدم اكتراثه بمصير حسن، بل وبالقضية كلها. أدار ظهره، تاركًا إيَّاي أواجه التيار وحدي، أبحث عن طرف خيط يوصلني إلى الجاني.

لم يُبدِ أي اهتمام لمساعدتي، ولا حاول أن يوضح أين تكمن العقدة. لم يسعَ إلى تفكيكها، بل أسهم في تعقيدها واشمئزازها. أضحت العقدة كأفعى تلتف حول رقابنا جميعًا، مع تواتر الأيام تزداد سُماً ووحشية، بينما هو يكتفي بالمراقبة عن بُعد، متوارٍ خلف فوضى المشهد، كأنه لا شأن له بها.

لم يُبدِ أدنى رغبة في نقاش القضية، ولا في حل لغزها... وكأن العقدة لا تهمه إطلاقًا.

أعود وأكرر؛.. أنه مجرد شاهد!.... مجرد شاهد.....

والحقُّ أنني كنتُ نائهاً في متاهة الطرق والتأويلات، لم أحسن فهم أبعاد نوايا داود وعلاقته الملتبسة بخبايا القضية. كأني، في تلك اللحظة، أصبْتُ بعقدة بلادةٍ خانقة، عمّت على فكري فحجبت عن عيني كل ما يستوجب الشك والتساؤل. لم أرَ فيه سوى وجه الحياد، ولم ألتفت لظله الذي كان يذرّ غبار التهمة وراءه في كل خطوة، وأنا غافل تمامًا عن أثره المريب. لقد

غابت عني دلائل كثيرة: علاقته الوثيقة بالمدير، درجته الحزبية العالية، خدمته السابقة في دائرة المخابرات، رغبته المستترة في التخلص من حسن، صمته الغامض في السيارة وخارجها، انعزاله عن الآخرين، قطعه لأواصر الزمالة، وخصوصاً ما بيني وبينه وما بينه وبين حسن، كبرياءه وتعاليه الغريب على زملائه في المدرسة... كل تلك العلامات، كانت واضحة، جلية... ولكنني، ويا للمفارقة، لم أشر إليها يوماً بأصبع الشك.

ولكن!!!!... ربما لأنني كنت أعيش حينها صراعاً مع الذات والضمير في محاولة البحث عن لغز المعضلة، عن خيط يهديني لفك خيوطها فتغاضيت عنه، أنصب تفكيري في زاوية أخرى معاكسة لجهة داود أو خارج حدوده.
كنت أسأل نفسي؛....

يا ترى، من أين له كل هذا البرود الذي يتحلى به؟ من أين جاء بهذه الكياسة التي لا تتأثر بمحيطه الخارجي قيد أنملة؟ كيف به لا يهتم لعلاقاته المباشرة مع الزملاء، مع إننا ندير حلقة واحدة تخص التلاميذ ورفع مستواهم الدراسي؟ ترى من يملك مفاتيح القضية؟.

أيمكن أن يكون على علم بفحوى القضية ومفاتها؟ هل تحت يديه معلومات تغنيه بحيث تجعله يكون مطمئناً وبارداً بالشكل الذي يظهر على سلوكه؟؟؟؟

الزمن كفيل بالإجابة على هذا السؤال.

إن جوهر القضية لا يمسننا نحن الأطراف الطارئة بقدر ما ينهش كيان زميلٍ لنا، بات اليوم يواجه أزمة تتعدى حدوده الشخصي لتطال أسرته ووجوده كله. دون اختيار أو إرادة منا، وجدنا أنفسنا في قلب معركة لا نعلم كيف نشبت، لكني أصبحت على أحد طرفيها، وداود على الطرف الآخر. السؤال الذي يثقل ضميرنا الآن: ما الذي يمكننا فعله؟ بأي شكلٍ يمكن أن نمد له يد العون قبل أن تفترسه ذئاب الظلم والتجني؟

إنها ليست مجرد قضية عابرة، ولا مأساة فردية تنتهي بانتهاء الحدث؛ إنها مأساة تتسع دوائرها لتلتهم عائلة بأكملها. أم عجوز مفجوعة، وأب يقاسي الهواجس، وزوجة تنوء بالحمل وحدها، وأطفال لا يدركون أن عماد بيتهم يتهاوى أمام أعينهم. حتى الجيران، أولئك الذين عاشوا معهم سنوات التشرد والنزوح من خانقين إلى جلولاء إبان حرب السنوات الثمان، يتكسرون ألمًا لما يحدث. تلك الحرب التي لم تُبقِ على يابسٍ أو أخضر، دفعتهم إلى الفرار نحو الأمان. واليوم، بعد أن ظنوا الخطر صار خلفهم، عاد ليدق أبوابهم في شكل آخر.

في جلولاء، انطلقت الأسرة في نسج حياة جديدة، امتزجت فيها خيوط الود والصداقة مع أهل المدينة، وشكّلت الجيرة الطيبة روابطًا إنسانية قوية أصبحت مع الزمن ملاذًا للأمن والتضامن. وسط هذا النسيج، تألق اسم الأستاذ عثمان شمس الدين؛ صديق ورجل نادر في دماثته، رفيع في تعامله، بسيط

في حضوره، نبيل في جوهره. تحوّلت صداقته إلى ركنٍ دافئ في حياة الأسرة، وكأنّها امتداد طبيعي لدفع تلك المدينة.

حين اشتد غموض القضية وأصبحت لغزاً يؤرّق عائلة حسن، دعاني الأستاذ عثمان إلى جولة في شوارع جلّولاء لمناقشة خفاياها، وأصرّ أن أرافقه في هذه الرحلة، إيماناً منه بأن الحوار المفتوح قد يكشف المخفي ويضيء جوانب الغموض. كان هدف اللقاء أبعد من مجرّد استفسار، بل كان محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بحثاً عن طرف خيط الذي تماها في العتمة، والذي قد يقود إلى الحقيقة التي ضاعت منذ اختفاء حسن قبل عام، حين لم يعد من دائرة الأمن، اختفت أخباره تماماً عن الأهل والأصدقاء.

في تلك اللحظة، كنت قد عدت توا من اليمن، حيث قضيت عامّاً في التدريس فراراً من الحصار الأمريكي الخانق على العراق، ذلك الحصار الذي أنهك البلاد والعباد معاً. ظننت أن العودة في العطلة ستكون للراحة واللقاء، غير أن الأحداث كانت تنتظرني لتفاجئني، فطفحت الأزمة على السطح من جديد، كأنها لم تدرس لتُحلّ في غيابي.

كان عثمان برققة أخ حسن، أوضحت لهم جوهر القضية بالتفصيل، مستعرضاً ما حدث خلال رحلتنا في العجلة وما جرى معي في مديرية أمن ديالى. كنا نتجول في شوارع محلة الطليعة حيث ترفل بشجيرات الزينة والدفلة والقصب والأس، بينما كانت الزهور المبعثرة تنث عبيرها مع نسيم المساء الهادئ. وبينما كنا مستغرقين في الروائح العبقّة،

انشغلنا بمناقشة قضية حسن. تحاورنا، تجادلنا، وشرحت لهم كل صغيرة وكبيرة، آملاً أن نصل معاً إلى حل اللغز، ليتمكنوا من فهم المشكلة بوضوح، ولأبرئ نفسي من التهمة التي تكبلت بها.

عندها سألت أخوه عن مصير حسن! أن سمحوا لهم بزيارته وملاقاته، قال..

- لا نعلم شيئاً عن مصيره ولا عن مكان سجنه، ولا أحد يقدم لنا مساعدة بهذا الشأن.

من خلال النقاش أحسست بأن أخوه يضرر في ذاته حقداً تجاهي، كأني لي ضلع في تهمة أخيه، لم يقتنع بأي ضحية خبث كما هو أخوه حسن، ولكن مع اختلاف الأدوار، ربما لأنني ليس لديّ ما يشفي غليله من دلائل تفسر له توضح عقدة الأمر بشكل دقيق وناضح، دلائل تبين تفاصيل أعمق بعداً وأكثر نضجاً ولمعانا مما كانت لدي، لصقل الحقيقة وتبينها على ماهي..

ربما المسألة لازالت فيها جوانب مظلمة، غامضة، ضبابية، حينها كنت لازلت أبحث عن الذي بز غله في كأس شرابنا، عن ذلك المارد الذي ذك بحنق أعناقنا، عن الذي كتب تقريره الخبيث وورطنا، عن الذي عكر صفوة الأجواء بيننا. كنت لازلت أود معرفة؛ كيف عرف مدير المدرسة بأني مجرد شاهد في القضية ولست متهما بها؟ فهو لم يكن معنا في الباص في حينه!....

فأوعزت ذلك إلى كونه مديراً للمدرسة التي نعمل بها، إضافة لمكانته الحزبية والوظيفية؛ فلا بد أن يكون ملماً بمشاكل مدرسيه. يعود ذلك إلى طبيعة دوره الإداري والحزبي، حيث تتوفر له قنوات متعددة للحصول على المعلومات ذات الصلة، سواء من خلال دائرة الأمن، أو الجهات الحزبية، أو المؤسسات التربوية المعنية. ومن المحتمل أن يكون هذا الإلمام جزءاً من إجراءات تضمن استمرارية العملية التعليمية، لا سيما مع وجود مدرسين أساسيين ضمن القضية، مما قد يستلزم اتخاذ تدابير مسبقة لتعويض غيابنا من خلال التنسيق مع مديرية التربية لضمان سير الدراسة وجودة التعليم المقدمة للطلاب.

في تلك المرحلة، كان أكثر ما استوقفني هو تجاهلي التام لتلك العنزة الصغيرة التي كانت حاضرة كأنها شاهد صامت على واقع مريب. لم يبدأ عليه أي قلق عن مصير حسن، وبدأ كمن يرتدي قناعاً من اللامبالاة. كانت تصرفاته تتماوج بين الغرابة والتناقض، بين صرامة موقفه وهدوء يخفي اضطراباً داخلياً، ربما نتيجة تداخل سلطة الحزب بتاريخه الأمني الغامض.

شيئاً فشيئاً، تسلل إلى داخلي شعور بالاشمئزاز من واقع صار يُدار بأنياب الحصار وأدوات القمع. لم يكن الأمر مجرد ضائقة اقتصادية، بل كانت مرحلة انحلال جمعي، نهش الفقر النفوس قبل الجيوب، وخنق الأرواح بخوفٍ مبرمج وإملاق لا يرحم. تساقطت الأقنعة، وبدأت ملامح الإنهاك ترسم على الوجوه خطوطاً عناء لا تزول.

هبوط العملة صدمة تختصر كل شيء لفهم الواقع. كانت معي ستة آلاف دينار تعادل ستة آلاف دولار، لكنها في السنة الثانية من الحصار تحولت قيمتها إلى ما يعادل ١٨٠ دولار فقط. هذه الأرقام مخيفة، لم تكن مجرد خسارة مالية، بل رمز لتدهور عميق بات يهدد بقايا الكرامة. بدا الوطن كمن يسير نحو المجهول، وما عدت أجد في هذا الخراب غير فرصة هروب، لأنسحب بصمت نحو الهامش، بحثاً عن بصيص أمل في اليمن... ذلك الملاذ الذي لم يكن سوى قارب نجاة أمام الانهيار.

كانت رحلتي هروباً من صخب التوتر وضغوط الحياة، شعرت خلالها وكأنني طائر يحلق بحرية دون قيود. الطبيعة احتضنتني بأجوائها الساحرة، حيث نسيم الهواء، وصفاء الماء، وامتداد الأرض الخضراء. هناك، وجدت نفسي في عالم بعيد عن التعصب والانشغال بالمصالح الضيقة، أدركت أن الحرية ليست مجرد غياب القيود، بل هي شعور ينعش الفكر ويهدئ القلب. ربما أراد الله أن نتعلم من الطبيعة كيف نحيا بصفاء، لكننا غالباً ما نغفل عنها وسط مشاغلنا ومشاكلنا اليومية.

المفارقة اللطيفة، خلال عودتي للعراق كنت أشعر بالغربة فيه لما أشاهد من فقر وبؤس منتشر بين صفوف المجتمع، وخاصة بين الطبقات التي تعتمد في معيشتها على رواتب الدولة، حيث بعد سقوط قيمة الدينار أمام الدولار الأمريكي تراجعت أحوال الناس كثيراً وارتفعت الأسعار حتى وصلت

قمتها عطفة لا تطاق، وصلت لنقطة يعجز الفرد على أن يرقعها بعد أن توسع فتقها، صعب مواكبة درجتها أو مسايرتها، مما دعت البعض إلى الانحراف عن منهجه الخاص أو تخطي حالة العجز بالهرب من حاجز الوطن، شعرت بالضغط النفسي الذي قد طال جميع شرائح المجتمع؛ حتى الذين فلتوا من سور الوطن، لأنهم لا يمكن أن يتخلوا عن جذورهم.

كما أنني بعد عودتي شعرت ولأول مرة بأني أعيش خارج الضغوطات النفسية والحزبية التي كانت تلاحقني، تخلصت من خفارات الحراسة الليلية التي كنت أجبر على خوضها وأتناوب عليها مع رفاقي، تجردت من الواجبات التي كانت تناط لي، صرت سيدا مبجلا ومحترما في نظر أعضاء المنظمة الحزبية وغير متابع من قبل عناصر الحزب، على الرغم من أن السيد (رشيد زيولي) كان قد كتب تقريره الخبيث عني، مدعيا بأني هارب من الحزب ومن العراق.

ذلك ما عرفته بعد عودتي للعراق حين استدعيت للمنظمة الحزبية، لأجيب عن استفساراتهم الخبيثة، عن سبب مغادرتي العراق لليمن بشكل مفاجئ، كأنه يمنع على المواطن السفر.

حين كنت في اليمن، ظل فكري يئنّ من وطأة القضية التي حُشرت فيها أنياب الخبث عنوة. لم أكن يوماً ممن يسعون لصناعة ضجيج أو التورط في مشاحنات الشك، لكنني وجدت نفسي في وسط دوامة نُسجت بخيوط غيري. شعور الغربة

عن الحدث وعن تهمة طاردني، أثقلتها التفاصيل وغموض النوايا.

أكثر ما شغلني هو الزمن بين الثاني من أيار، حين وقع الحدث، والثالث من حزيران، حين تم استدعائي. شهر كامل يفصل بين الحدث والتحقيق في تهمة خطيرة: قذف رئيس الجمهورية بالسب. هل كانت التهمة فعلاً حاصلة وعاجلة؟ أم أن في التأخير إشارات لما هو أعمق من مجرد إجراء رسمي؟

تسرب لي شعور بأن الأمن لم يتأخر عن تقصير، بل عن تقدير. كان عليهم أن يوازنوا بين الحدث وظروف المدرسة التي كنا فيها؛ وقتها كانت الإدارة منهكة بالامتحانات، ومغادرتنا في ذلك التوقيت كانت ستحدث فراغاً لا يُحتمل تربك الإدارة والتلاميذ والامتحانات. وقت لم يكن وقت فوضى.

أما عن صاحب البلاغ، فاستبعد أن يكون قد توانى. من يملك الجرأة على الإدلاء بتهمة بهذه الخطورة لا يُخاطر بتأخيرها. التأخير كان ممن بيدهم القرار ليدرسوا القضية، ليتريثوا، أو ليتأكدوا أن الضربة لن تُربك إدارة التعليم.

وفي داخلي ظل السؤال يتردد: لماذا أنا؟ ما علاقتي بكل هذا؟ كل ما أردته هو أن أخرج من هذا الطوق... وأعود كما كنت: مجرد إنسان يؤدي عمله بقلبه، لا لاعباً في مسرح سياسي لا علاقة لي به.

لم تخرج القضية عن بالي قط، وفي لحظات الفراغ أجلس في وحدتي أراجع حيثيات القضية متهما بها كل رفاقي ومعارفي، لم أبرء أحدا قط، محاول حل لغز القضية دون أن أصل لنتيجة مرضية. بت أشك بكل شخص يسقط نظري عليه، بكل من يلمع اسمه بذاكرتي وبمقدار بعده وقربه من صلب القضية. تشابكت خطوط الطول والعرض في ذاكرتي بحيث جمعت كل رفاقي الذين أرتبط معهم بصلة في بوتقة واحدة دون تمييز، دون أن أصل ببحثي إلى يقين يشعرنني بالأمان ويزيح عن ذهني هوام الشك.

عدت أدراج فكري لقرار تركي البلد، وعلمت بأنني قد اتخذت القرار الصحيح في ذلك الوقت، لما آلت إليه الأوضاع بعد أن تحولت أحوال الناس من سيء إلى أسوأ ومن انحطاط إلى تدهور جراء قيد الحصار، وقد أخذت بالآية الكريمة لتذلل الصعاب (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)، صدق الله العظيم.

على أية حال كلما بعدت ميلا أعود واصطدم مجددا بقضية الأستاذ حسن، حتى أنني استغربت كثيرا من فترة حجزه الطويلة في زنازينهم دون محاكمة. وقبل أن أعود إلى اليمن كنت قد التقيت مجددا بالأستاذ عثمان شمس الدين طيب الذكر، الذي نقل لي أمتعاض أهل حسن من بلادة دوري في حياكة القضية ضد أبْنهم، وعرفت بأنني موضوع في دائرة الشك والاتهام الصريح من قبلهم، وذلك بتوريط حسن في التهمة المنسوبة إليه.

لم يخطر ببالي يوماً أن أشك ولو للحظة في الأستاذ داوود،
ذاك الذي انكمش في عزلته كجمرة تستعر تحت الرماد، متقد
الذاكرة، واع لما يدور حوله، غارق في صمته العميق،
متوارياً عن الأنظار. الجميع أجمع على ضلوعه في صياغة
سيناريو القضية، الكل اتهمه بتضخيم المأساة... إلا أنا. كنت
وحدني أغرّد خارج السرب، منحنّهُ تساهلاً لا مبرر له، حسبته
مسكيناً تورّط شاهداً كما تورطت أنا، ولم يخالجنني شك واحد
في نواياه... حتى جاء الأستاذ عثمان، ونفض الغبار عن
بصيرتي، حين قال لي...

- هو؛ هو لا أحد غيره، هو الأستاذ داوود من كتب
التقرير ضد حسن.
- كيف تجزم بذلك؟ مستحيل أن يكون هو، أنه مجرد
شاهد في القضية مثلي، ثم كيف يكون كاتب التقرير
شاهداً في القضية؟
- نعم هو، لا بد من أن يكون في القضية شاهدين! فأن
تعسر وجود شاهدٍ ثانٍ، فسيكون كاتب التقرير هو
الشاهد الثاني على الحدث.
- أحسنت يا صديقي، أحسنت يا عثمان، الله ينور عقلك
مثلما نورتنني، كيف غفلت عني هذه الفقرة، لقد نورت
فكري، بارك الله بك، كيف غابت عن ذهني هذه
النقطة.... الآن جعلتني أقرأ الحدث بوضوح، الآن
أصدقت القول يا عثمان. شكراً لك... يا الله.... كم كنتُ
غافلاً عن هذه النقطة طوال تلك المدة المريعة، الآن
بان الحق وزهق الباطل، لهذا السبب أشعر به يتهرب

من مواجهتي، لهذا السبب قال لي دعه يأخذ جزائه هذا
الكلب الحاقد على العراق، هذا الجاللي (أي ينتمي
لحزب جلال طالباني) إذا هو.. هو فعلا هو الذي كتب
التقرير، وهو الذي ود التخلص من حسن....

كأنه بتوضيحه الفكرة لي قد قطر في أذني وعيني قطرات
الصحو، حينها طرقت أذني صوت عنزته وهي تمعم بأعلى
صوتها، حينها فهمت غايته بعد أن طنت أذني بمغزى ما
أطراً نقاشي معه حين قال لي:-..

- " لم أنت مشغول بقضية حسن، دعه يأخذ جزائه، أنه
كلب من كلاب جلال الطالباني".

قال عثمان:....

- اراك صافنا؛ هل تذكرت شيئاً ما؟ هل ذكرتك بموقف؟
- نعم...في موقف سابق حين سألته أن كانت له دراية
عن كاتب التقرير الذي ورطنا، قال لي.. "أنسى
الموضوع، دعه يأخذ جزائه، أنه أحد كلاب جلال
الطالباني".

- ماذا؟ هل قال ذلك؟
- أنسى الأمر... نعم هو.. أنه هو .. لا أحدا غيره يتجرأ
ويتفوه بهذا الوضوح، كما تقول أنت، هو الذي له يد
طويلة، لقد تعلم الخبث من جهاز المخابرات.
- هذا دليل واضح على أنه هو من كتب التقرير، ولكن
لأنك مكبل بالقضية اضحيت معصوب العينين.

الغشاوة جعلتك لا تبصر الحقائق كما هي، وكما يراها
غيرك.

- فعلا هذا صحيح، نعم هذا صحيح، وهذا ما أشعر به،
وإلا كيف عرف مدير المدرسة من أني شاهد في
القضية لولا تقربه منه.
- أحسنت. حتما أتفق مع المدير أو أطلعته على تقريره
قبل أن يخبر دائرة الأمن.

بعد هذا اللقاء الذي هزني، جعلني أسترجع أحداثا سابقة لم
أهتم بها في حينها، وبالذات لقاءنا في العجلة ونحن ذاهبون
للمدرسة، تذكرت سكوته وقوة صمته وعمق حنقه البائن على
قسمات وجهه العابس. تصفحت صفحات الذاكرة التي لم
استدرجها، محاولا استنكار كل صغيرة وكبيرة جمعتني
بداود، لقد تسللت لدهاليز الذهن، تجاوزت محيط الحدث
والدوائر المتشابكة، صرت أفسر جيدا معمة العنزة التي لم
أركز على عزفها بشكل فطن سابقا. أخيرا عرفت من هو
غراب البين....

2- منغصات القضية

في حكاية تقول:....

كان الغراب يعيش في ظلال الغابة، يتأمل العندليب وهو يغني بصوته العذب يطرب الطيور، ويكسب محبة جميع الحيوانات. شعر الغراب بغيرة دفينه، فقد تمنى لو أنه يملك مثل هذا الصوت الساحر ليكون محبوبًا بين الطيور الأخرى. دفعت الرغبة الغراب إلى تقليد العندليب، لكنه لم يدرك أن صوته الأجش لا يمكن أن يضاهي نغمات العندليب الشجية. حين أطلق الغراب صوته محاولاً الغناء، ارتبكت الطيور، ثم سرعان ما طارت مبتعدة، متجنبة زعيق ذلك النعيب المزعج. بدلاً من نيل المحبة، أثار الغراب استياء الحيوانات، التي اجتمعت وقررت طرده من الغابة. وهكذا، وجد الغراب نفسه وحيداً، يعيش في الصحاري والأراضي المفتوحة، بعيداً عن الطيور التي كان يسعى لمودتها.

هجست بداود ود أن يقلد ذاك الغراب في سلوكه وتصرفه ونشزه رفاقه قبل أعدائه، أدانه الكثير، وحنق عليه أقرب ناسه ورفاقه. فمنذ ذلك اليوم صار يعيش في عزلة تامة وهو ماقت الجميع والجميع يمقتوه، باتوا رفاقه لا يأمنوا على أنفسهم من غدره، وبقت تلك العنزة تمعمع في حجره يسمعها الجميع إلا هو، وستبقى تورقه حتى يوم أجله حين تُطمر قذارته.

يا ترى! كيف غفل حسن عن نعيب الغراب، عن ذلك الصوت الخفي الذي كان ينفذ من مسامات جلده ومن وجهه وحدقات عينيه التي تسبح في بحر من الريبة، كان ذلك واضحا لمحيطه، بائن في أعماق مشاعره وهو يشهر بذاته دون أن ينتبه على قرقرة معدته الناشزة؟ ربما لأنه حديث العهد بيننا.

أيّة غشاوة ركبتنا وأطبقت على ذهن حسن بالذات؟ بحيث لم نفكر ولو للحظة بلون المكر المتجهم بوجه داوود، لم نسمع ذلك النداء الخفي الفاضح الذي مثل شخصيته وعبر عن مكنونه، لم ننتبه على قبح الصفرة الذائبة في سمرة وجهه ولا على رائحة الحنق الزنخة المنبعثة من الفاظه.

يا ترى! من يتجرأ أن يكتب تقريراً في موضوع حساس، بحيث يعرض به حياة أسرة كاملة للخطر أن لم يكن عديم الإحساس والضمير؟ أن لم يكن متطفلاً في حياته ونواياه على فضلات المناصب والرفعة التي يرتجوها من اسياده؟ ليجد لشخصيته المهزوزة مكانة في المجتمع. أنه كذلك بلا هوية من وجهة نظري، فالشخصية تبنى بناء بالسلوك والثقافة والإيحاء والمواقف ضمن الاعراف، ولا تكتسب بالغش والنفاق والتصرم والمنصب وبسرقة أرواح الآخرين.

من يستطيع أن يكتب تفاصيل حدث ما برمته، وبالدقة المتناهية التي كُتب بها التقرير دون أن يكون جزء من واقع الحدث؟ دون أن يكون مشارك بالفعل في الحدث؟ بحيث فصل القضية وركب أجزائها لتكون ملائمة على شخصية حسن كما

يبدع الرسام في تجسيد فكرة اللوحة. ذلك الشخص الموارب،
هو الشيطان بعينه.

كل الدلائل تشير إليه، تتهمة بإيقاد فتيل الفتنة، كل الوقائع
تبصم بجرم قلمه.

حمدت ربي بعد أن وصلت للقناعة التي ابتغيها والتي
وضحت لي الحقيقة الغافلة عن ذهني، ففي داخلي كنت قد
شكرت الأستاذ عثمان شمس الدين من أعماق قلبي والذي
هجست به بمثابة مصباح الطرق الذي أنار دجى دربي، فأنا
ممتنا له لمى قام به من دور بحيث قلص المسافة بين العين
والذهن، لقد كشف لي عن مساحة شاسعة تكمن خلف النوايا
والذاكرة لم أكن منتبها عليها. لقد أوقد فتيل الذاكرة لأعيد
ترتيب الأوراق وأقرأ الحقيقة بطريقة سهلة، كأنه كان بمثابة
الوحي، حين رفع عن صدري تلك الغمة، تلك التي أثقلت
كاهلي وعرقلت مسيرتي في الحياة.

في الحقيقة الشخص المغموس بوحل العقد لا يرى تفاصيل
الحدث مثلما يراه آخرون من منظار المراقبة، مثل الأرض
التي نعيش عليها، لا نتحسس طبيعتها الكروية إلا إذا ابتعدنا
عنها لنشاهدها كما تصورها الأقمار الصناعية. تلك هي
الحقيقة الناصعة التي جسدها الأستاذ عثمان في المشهد دون
أن أفطن عليها، لقد جعلتني أنظر للأمور بشكل مغاير عما
كنت أتوقع..

بعودتي إلى عجلة الباص التي أفلتت من مرآب جلولا
لخائقين، لم ألحظ شخصاً ذا أهمية أو هيئة تثير الشكوك في
ذلك اليوم. كل من علقت ملامحهم في ذاكرتي كانوا من
أصحاب الدخل المحدود، من البسطاء الذين يلهثون خلف
أرزاقهم، يحاولون عبور أزمتهم بأقل الخسائر. فقراء من
الطبقة الكادحة، يبحثون عن سلال الرزق بين متاهات الحيرة
وتضاريس العوز، تحت وطأة الحصار الذي أرهقهم. أغلبهم
كانوا من المسنين والعجزة، أولئك الذين لا يُشغلهم من الحياة
سوى توفير لقمة العيش لأبنائهم. لا تهمهم التوجهات ولا
تشغلهم الانتماآت، بقدر ما تشغلهم أيديهم المتعبة وهي تفرش
رغيف الأمل على موائد أسرهم المكلومة. أيدي خشنة،
صبورة، تُصرّ على أن تمنح أبناءها ما يعينهم على الجلد،
وعلى عبور التحديات التي باتت تتراكم وتتشابك في دروبهم
يوماً بعد آخر.

الحصار لم يكن حبلاً يُرى، لكنه التفّ حول الأعناق كحكاية
قديمة لا يُعرف كيف بدأت، ولا متى تنتهي. كبل الأيدي
وأقدام الناس، سلبهم فضاء الحرية، وكتم عنهم أنفاس
المبادرة. كان الحصار يزحف بخطى واثقة، وبتفاهم عقيم، بدا
دميماً من أول وهلة، ثقيل، لم تحتمله أسسهم الهشة.

الدولة كانت منشغلة بشؤونها، بضجيج الإعلام والحروب،
بموائد التصريحات. لم يكن لها اهتمام بشؤون الناس، لذا ما
أن اشتد الحصار؛ حتى باتوا يتلمّسون أثر الحسنة كأنها قطرة
ماء تشفّ غليل الضامى.

توالت الأيام، وتراكمت أزمנתهم بلا سند. الخُذْلان صار لباسهم اليومي. ومع ذلك، لم تهن نفوسهم، ولا ارتمت أرواحهم ألا في احضانهم، ولم يجدوا سبيلا في قاع اليأس، تحملوا وزره كيفما شاء القدر، حتى صاروا يبحثون عن الرزق في جوف العدم، مستندين على الله والبساطة والصبر.

لا بد أن يكون للحقد البغيض من مسلمات أولية سممت فكر غراب البين، قبل أن تسم قلبه ولسانه ونواياه. دوافع البغض كانت واضحة للعيان، مكنونة في قيافة شخصه، كأنها البسته طاقية التهمة دون أن يدرك، أو أنه كان يدرك ولا يبالي للصلافة التي عرف بها وتعود عليها من خلال حيثيات تدريبات دائرة المخابرات التي عمل بها، الحالة تقمصت ذاته وشخصيته كلباسه.

كما أن العلاقة الحميمة التي تجمعها بالسيد مدير المدرسة بسبب تقارب الدرجة الحزبية، أعطت له تلك الكارزمة الغريبة التي تصلف بها، والتي بدورها قربت المسافة بينهما ليكشف له عن وجه القضية ويسره بتفاصيلها، ربما أخذ بمشورته قبل أن يكتب تقريره الخبيث.

لذلك ود مدير المدرسة تنبيهه عن دوري في مسرح الحدث ليخفف من وطأة ثقل الهم من على متني، عندها كشف لي عن دوري في تفاصيل القضية كشاهد وليس كمتهم. وربما الذي دفعه إلى أخبرني بذلك ضميره الحي، كوننا أبناء جيرة وحي واحد، وتجمع اسرنا صداقة طويلة.

ربما حيكّت خيوط القضية على رواق في غرفة الإدارة، وخاصة بعد أن صفعهم الأستاذ حسن في تقديم استقالته من الحزب دون مقدمات ودون مبالاة، مما جعلهم يشعرون بامتعاض ومهانة وإهانة لشرف حزب البعث، فوجدوا تلك الكلمات على لسان حسن فيها مهانة وتصغير، لذا ودوا إعادتها إليه بشكل غير مباشر ليكون عبرة لمن أعتبر..

ربما كان المدير هو الآخر ضحية مكر داوود وتخطيطه، ليجعل من القضية رأي عام مشترك. حيث أصحاب التقارير دائماً ما يضعون ذواتهم خلف الكواليس تجنباً للمفاجئات، ليجدوا من يدافع عنهم في المحافل حال غيابهم. ربما فرض عليه الحالة وجعله بين المطرقة والسندان، حيث لا يستطيع أن يرفض أو يساوم في مضمون التقرير لأنه يمس كرامة وقامة شخص رئيس الدولة بذاته، وبذلك لا يستطيع أن يرفض صيغة التقرير أو يعارض بثه.

إذا بخبث تقريره كان قد أشبك الخيوط بعضها ببعض، بحيث ورت حسن وورطني وورط ذاته ومدير المدرسة وأسرة حسن وأصدقائه ودائرة الأمن ودائرة القضاء بحيث جعلنا جميعاً ندور في فلك غله كالكواكب السيارة..

3- الدوامة

بعد رحلة طويلة من البحث والتدقيق وسط متاهات الشك وظلمة الحيرة، تمكنتُ أخيراً من القبض على الشيطان، من أن أمسك برأس خيط الحقيقة الذي كنت أفتقدها. رغم التأخر في الوصول إلى الإجابة، إلا أنَّ لحظة الإدراك جاءت قبل أن يُغلق ملف القضية نهائياً. أخير عرفت غراب البين..

لقد مضى عامٌ من الصمت المحمل بالألم، أرفق عناءٍ نفسياً وبحثاً مضنياً في دروب الشك. عاماً من الحيرة والتوجس، حتى أصبحت القضية غارقة في التعقيد والغموض دون أن يُفك لغزها. عاما من التضعف والحيرة المجنة، فيه دخلت القضية حدود الغسق والعُقد والتصرم، ولكن ها أنا اليوم أحرقت الشك باليقين.

في تلك الفترة تكبلتُ بوحدة أنستي قرف القضية، انزويت خلف حاجز البعد، كي لا أسمع زعيق العقدة يتردد في عقول البعض، تلك التي لا يمكن تخطيها دون أن أعزل ذاتي عن منسوب التهمة التي بللت قدميَّ. عندها كنت قد وصلت لمعادلة جدلية، بحيث كلما طالت مدة حبس حسن، زادت المشكلة تحميصاً وتعقيداً وتحميصاً في أذهان الجميع وبذات في أذهان ذويهِ ودائرة الأمن جدلاً واستسلاماً. الذين وجدوا أنفسهم محصورين في مستنقع العقد. أما أصدقائه حتماً تأثروا بغيبابه، انكبت عليهم قسوة الحياة شكل البسمة والصبر والتأني، تهجس بهم في جدل مستمر بحثاً عن حلم تمزق بين أنياب الفكرة.

لم تكن الراحة حاضرة، بل تلاشت مع تفاقم آلام الحياة. تقلّصت مجالاتها حتى انمَحَتْ، ومع تعاقب الأيام انزلقت الأشياء نحو خواتم الصمت، وانسحب المعنى لصالح التيه والفراغ، حتى صار التفكك الذاتي أمرًا واقعًا لا مفر منه.

أما حسن، الذي غابت أخباره عن الجميع، فقد نصب الفخ لنفسه بيديه. لم يسقط فيه وحده، بل جرّ أسرته إلى وحل الاتهام، حيث لم يبقَ أمامه سوى التشبث بالصمود، وشق طريق الخلاص عبر عتمة المرحلة، قبل أن تبتلعه دماسة سرمدية لا قرار لها.

أشد ما يفقم مأساة هذه العقدة؛ هو غياب الأستاذ حسن عن المشهد، ذلك الاسم الذي يتردد بيننا كظل خافت، كان حاضرا رغم غيابه، مجهول المصير في عتمة الأيام التي أخفته بين ثناياها بلا أثر. انقطعت أخباره تمامًا، حتى بات محظورًا عليه لقاء ذويّه، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن معرفة موقع سجنه. لا عنوان يهديهم إليه، لا خبر يطمئنهم أو يصدّمهم بالحقيقة. تاهوا بين الشائعات التي تتردد بصوت خافت بين الناس، تلك التي تتعالى كطعنات تنذر بأنه ربما لقي حتفه في ظلام الزنازين. وهكذا، استسلموا للواقع، فاض بهم الشعور بالارتباك والوجل، حتى بات موت حسن عند البعض أمرًا مسلمًا به، شأنه شأن كثيرين غابت عنهم شمس الحرية في متاهات السجون.

باتت القضية أكثر حساسية حتى غدا الاسم محظورًا على الألسنة، فلا أحد يجروء على التفوه به أو الخوض في البحث

عنه، خوفاً من الانجرار إلى دوامة الاتهام. لم يتجرأ أحد على السؤال عنه سوى أهله، ومع ذلك، فكل محاولاتهم اصطدمت بجدار الصمت، عاجزين عن العثور على أي أثر يقودهم إليه، غير قادرين حتى على تعيين محامٍ يدافع عنه لغياب أي معلومة تحدد مكان احتجازه.

راحت شائعات إعدامه تنتشر بلا مصدرٍ أكيد، كريحٍ تتخلل الأبواب الموصدة. لا أحد يدري إن كانت من دسائس الحزب، أم من مَنْ خطط لاصطياده، أم أنها مجرد تجلٍّ ليأسٍ مريع تسلل إلى هواجس الناس نتيجة طول فترة احتجازه. الصمت الرهيب الذي لفَّ القضية كان إعلاناً غير معلن عن مصيره، كافيًا لزرع الذعر في قلوب رفاقه ومحبيه. صار الترقب عادةً ثقيلة، والتوقعات قاتمة، في زمنٍ صار فيه القمع قانونًا نافذًا.

كانت النفوس تتأكل ببطء، كما ينخر السوس خشب الأبواب القديمة. المراهنات على مصيره تتوالى، أشبه بالعتّة وهي تتجمع بصمتٍ شرس في عنق الزاوية. الخدش ترك ندبًا في الشعور الإنساني، سُلبت القلوب طمأنينتها، والعقول اتزانها، حتى بدا أن مجرد الانتظار صار عذابًا يفوق الخبر نفسه.

يبدو أن التقرير الأمني كان عاملاً حاسماً في تحديد مصير حسن، كتب بأسلوب الخبث بحيث لا أحد يستطيع تجاوزه. خبرة استقائها من دائرة المخابرات. حوى على اتهامات خطيرة، فالإساءة العلنية للرئيس صدام حسين، وهو بحد ذاته يكفي لتبرير أقصى العقوبات، ناهيك عن الأمور الأخرى التي دس في التقرير من انتماؤه لفصائل الانفصال أو لحزب معين

أو لجماعة المعارضة.. الخ. .. مع أنني قد أنكرت تطاول على الرئيس خلال استجوابي؛ إلا أنَّ الأمن كانوا مقمحون في صيغة التقرير المعد، لن يستطيعوا تجاوز فقراته المدسوسة قيد شعرة. لذا ودوا منه اعترافا لتجنب ذواتهم تهمة الإهمال والغفلة، فأجهزة الأمن ذاتها توجد عليها مراقبة من عناصر تعمل في جهاز الأمن نفسه..

خلال المقابلة كنت قد أعددت سؤالاً عابراً كبقية الأسئلة لمجرد التأكيد أو النفي، لأنه كان مجرد استفسار، الغاية منه الجزم من عدمه، كوني لا فكرة لي عن صيغة التقرير، فكل ما دونته هو مجرد تهيوّات. كما أن الواقعة كانت قد جرت في داخل عجلة باص مليئة بالركاب، فحتما لن يتجرأ الشخص من أن تصل به الوقاحة لحدود السب العلني إلا إذا كان مجنونا أو معتوها. وأعتقد تلك الفقرة تضع المحقق في شك من صحة التهمة، لكنه لا يستطيع أن يتجاوز الخبث المدسوس ويتحمل اتهامات تكذيب التقرير دون دليل.

في الحقيقة يمثّل هذا الجانب أحد أبرز مواطن الضعف في التقرير المُعد ضد حسن، إذ انعكس ذلك في قصور كاتب التقرير وإدارة الأمن عن معالجة القضية بجديّة منذ بدايتها. فقد تمسكت الإدارة بجزئية محددة دون إجراء تحليل شامل للحدث من حيث الزمان والمكان، كما أنها لم تُعنّ بتحليل مفردات التقرير وربطها بسياق الحدث- هذا من وجهة نظري. ولم تُبذل أي محاولة جادة لاكتشاف الأبعاد الخفية خلف كلمات التقرير، بما فيها من حقد أو التباس أو تحريض

دفين. وقد بقيت القضية معلقة في رقبة دائرة الأمن، نتيجة إصرار كاتب التقرير على تضمين الإساءة في الفحوى والتي لا يمكن تجاوزها أو التغاضي عنها قانونياً. ورغم وضوح الغاية التي تسعى إليها فقرات التقرير لكل من يطلع عليه، دون حاجة للتأويل أو الدخول في تجاذبات النيات، بقي جهاز الأمن ملتزماً بإجراءاته كمؤسسة أمنية في إحالة المتهم إلى القضاء.

من ناحيتي، أبرئ دائرة الأمن من الإجراءات المتخذة في القضية، إذ هدفت تلك الخطوة إلى تجنّب تحميلها مسؤولية التقصير. فطبيعة القضية شديدة الحساسية، لذلك اختارت الدائرة الحياد حفاظاً على استقرار الدولة ورمز سيادتها، السيد رئيس الدولة. ثمة خطوط حمراء لا يجب تجاوزها، ومحاولات التشويش التي تظهر من حين لآخر تبرّر وجود الأجهزة الأمنية، كونها حائط صدّ ضد كل ما يهدد أمن الدولة واستقرارها الفكري.

أما خلال رحلتنا للمدرسة، فقد كنا مكدّسين داخل العجلة في ظروف غير إنسانية، ومع ذلك، جاء التقرير منحازاً، متجاهلاً الواقع. حتى رجل الأمن لم يدرك أفق الحدث، وتعامل بسوء تقدير. والأسئلة الجوهرية لم تُطرح: هل اعترض أحد على ما قيل؟ ما كانت ردود أفعال الركاب؟ التحقيق افتقر إلى الحياد، وكأن النية كانت محسومة مسبقاً.

كان سؤالاً غيباً مع واقع الحدث. سؤالاً فيه الكثير من التجني، لأنه من المستحيل أن تصل الجرأة بالشخص تحت ذلك

الظرف الشاذ من التفوه والتجاوز وهو يعرف مسبقا ردة فعل الركاب من حوله، ليس من باب الدفاع عن السيد الرئيس؛ أنما لتجنيب ذواتهم التورط في معمرة لا تعرف نهايتها، الذي. لذا من وجهة نظري كان من المفروض أن يحاسب كاتب التقرير ويتهم بالكذب والتلفيق والتجني، لأن الكيدية واضحة في نيته والأسلوب بوضوح الشمس...

كان ينبغي على جهاز الأمن تبرئة حسن من التهم الموجهة، إذ لم يكن ليذهب طواعية لمواجهة ضابط التحقيق في قضية بهذا الحجم، لولا ثقته المطلقة ببراءته. إلا أن تصرفاته العبثية، كاستهزائه المفتعل واستقالته غير المبررة من الحزب وانتمائه لجهة أخرى، سلطت عليه الأضواء وجعلته في موضع الشبهة، خصوصًا إذا كان التقرير موصى به من قبل الحزب لغرض المحاسبة. لقد أوقع نفسه وأسرته في دوامة الحيرة، وجرّ الجميع إلى هذه المعمرة معه.

ما يؤلمني حقًا هو حالة التذمر والانكسار التي نخرت بنيان عائلته، حتى دفعت ببعض أهل الخير من معارفهم إلى التصديق عليهم لتجاوز أزمته المادية بعد أن قطع عنهم مصدر رزقهم. حين علمت بسوء أوضاع العائلة ماديًا، بعد أن زحف الحصار عليهم كباقي الناس، فكرت في مد يد العون إليهم، كون حسن زميلًا لي في المدرسة، وددت أن أخفف من لاجاة الحصار عن أسرة حسن وهم يمرون في شدة. حاولت جاهدا أن أرفع جزء من الغم والهم عن كاهل الأسرة التي تفاقم الأوجاع عليها على حين غفلة. لكن محاولاتي باءت

بالفشل، فالكبرياء الذي اتصفوا به وعزة النفس التي لازمتهم غلبت إرادتي، تجاوزت حالة الضعف والهوان الذي أطبق عليها، لم يتقبلوا أية معونة تقدم من قبلي كوني محاط بدائرة الشك والتهمة التي تورط بها حسن...

وأنا في سهدي كنت أهجس برجال الأمن تراقب حركاتي، تتلصص الأماكن التي أتواجد بها، تراقب حركة الدود والحشرات وهي تقف على سقف الحدث، تتعقب الهواجس والأنفاس التي تتأفف بسبب الحدث، تترصد خطواتي وخطوات أصحابي، لا أدري إن كان ذاك الهاجس الذي كان يخالني حقيقة أم مجرد وجس وتحسس خاطئ؟

هكذا كنت أشعر بخيوط العقدة تدور حولي، ولن تقف على حدود التهمة، لأن الذي يسكت عن الخطأ في نظر القانون فهو شيطان أخرس يجب أن يحاسب حساب المتهم، وأنا كنت قد سكت على تجاوزات حسن من وجهة نظرهم، أو بمعنى أخف لم أعر لها أي اهتمام لحجم التهمة. لذا فأنا من الوجهة القانونية متهم، لأنني لم أحافظ على قدسية الرئيس. وقد تزحف التهمة على آخرين من الذين التقيهم في مشاويري، وقد ينظر إلينا كعصابة متآمرة خطيرة أو كجهة معارضة لسياسة الدولة... الخ من تهمة من السهل الصاقها بمن يريدون التخلص منه. قد تكال إلينا وتفيد خطواتنا بأدوار الخيانة دون أن ندري...

بقي حسن جليس سنتين وشهرين في زنازين الظلم تحت وطأة تهمة كيدية، عانى فيها مرارة الجوع وقسوة البطش وخذلان

القريب، وتعرض للسب والذم والقذف والمهانة والذل، لا
يحتمل الوقوف أمام عصف تلك الريح الصفراء جبلاً إلا
وتلاش قدره. ومع ذلك، ظل صامداً، يواجه الزمن بشجاعة
وصبر وإصرار نادر، مستنداً إلى يقينه ببراءته، وإيمانه
العميق بعدل الله

تمسك حسن بالصبر المُرّ، وتطلّع إلى الغد بروح تتسلّل من
نوافذ الليل المعتم، حيث ومضت له بارقة أمل خاطفة نفضت
عن قلبه غبار الهزيمة. تشبّث بالعروة الوثقى كما يتشبّث
الغريق بقبس نجاة، صقل فكره بالحكمة، وتدرّع بالورع
والأناة في وجه وساوس الفتنة التي أطبقت عليه ككماشة من
نار.

رغم أن داخله كان ركاماً هشاً، أجوف كقصبة تتمايل مع
الأمم، ظلّ منتصباً في وجه العواصف كنخلة باسقة في فلاة
حظها. استرق القوة من ضعف ذاته، من حلم يواسي وحدته،
ومن إيمانٍ يعيد تشكيله مع كل انكسار. تغدّى من رحمة تسكن
خلده، ومن عجزٍ صار له وقوداً، حتى ولدت أعماقه همّة
خافتة تحدّت عتمة روجه.

وعندما عصفت به الحياة وأسقطته أرضاً، لم يجد يداً تمتد
نحوه، ولا صوتاً يطمئنه. كان الخذلان محيطاً به، العجز
يتسلّل إلى أطرافه كالبرد القارس. لكنه التفت إلى الداخل،
فوجد قوة كامنة في الإيمان والتقوى، قوة لا تنضب من العزم
واليقين قد تعينه على الجلد، فتمسك بالحبل المتين، وأدرك أن
خلاصه يسكنه منذ البداية.

ومع مسحة التفاؤل، كان في كل دقيقة تسقط ورقة صفراء من شجرة صبره، توحى له بقرب الأجل، حتى تراكمت تلك الأوراق لترسم خريف العمر بألوان الذبول: الأصفر، والأحمر، والرمادي. قرأ في تغير ألوانها انقلاب الطباع والأفكار، ورأى خوفه يتمهى مع رماد الرعب، فيما أحلامه الخضراء تماهت كسراب تحت ظلال الغسق. باتت أيامه مسودة مملوءة، مثقلة بعجز يرفض أن يُمحي، وكل أملٍ صغير ينطفئ قبل أن يبلغ سعيه.

تلك التقلبات أوصلته إلى حالته ميؤوسة منها تماما، معدمة، معدة لتستقبل لفحة الشوط الأخير من لعبة الاختفاء، ليحترق بشرارة الحقد أو يتوضأ بالنجاة، ترى شياطين النار ودخانه في الأفق، حتى يسدل الستار عن قضيته وتطوى جلجلة الرجاء كطي السجل للكتب.

كل لحظات حياته في السجن كانت تشعره بنهاية قريبة، حزينة، تشعره ببرودة أنفاسه وهو متعلق بلحظاته الأخيرة من العمر دون رغبة، مستسلما للقدر، للحقيقة المرة التي ترسم على وجهه علامات خط النهاية، يهجس بالثعابين تحاصره، تقترب منه، كلما فكر جديا بنجاته، هكذا بات اليأس يشن هجماته ويقترّب من حدوده...

لقد سلب القدرة على التأمل، كل ما تاق إليه هو لحظات عابرة يلتقي فيها عائلته قبل أن تُسدل الستارة على قضيته إلى الأبد. بلغ اليأس منه مبلغاً أقعده عن التبصر، عن إيصال صوته إلى من يحبهم... أما هم، فلا يعرفون شيئاً عن مكانه أو عن

مصيره، لقد صاروا جميعا أسرى في ذات القضية، تائهين في وادٍ سحيق من العذاب، كقطيع خراف ضلت الطريق. جميعهم عانوا من وقع ذلك الصمت المدوش والحيرة المذلة والنزف المستمر.

في فترات العجز، تقرصه آفة الصمت، تلذع ذهنه، فيرتعش الجو بالوحشة والسكون. تتساقط أفكاره من رفوفها إلى هوة الحيرة كأطباق متكسرة، فتجرفه موجات الصخب المضطربة نحو حدود الاستسلام. هناك، يتجرّد من أي بريقٍ للتأمل، فتهوى أحلامه في دماسة العذاب كشهبٍ عاجزة عن بلوغ غايتها، وتغور في العتمة دون أن تمنحه فرصة نجاة واحدة.

تلك الحالة التي باتت تتكرر عليه بين الأحيين، كانت تتخللها ومضات رحمة تجدد عزمه ويقينه وصبره بالغد. من خلالها استشعر ذاته مسيرة بقوة خفية تقوده نحو دار القرار، تلهمه أنه عالق في وحلٍ سمجٍ لزج، معلقٌ بخيطٍ واحدٍ من الرأفة، يتأرجح بين العند والرجاء والحنق، كطائرٍ يلهث بالهواء وهو يحلّق فوق البحر، متشبّثاً بالحياة.

ذلك الإحساس الذي يجتاحه كان يرهقه، يتولد من اليأس المسيطر عليه، من غصة النفس، من القسر الذي يهدده بالطوفان من خيانة الزمالة. أنه يعلم تماماً بأن صبغة الحقد لونت قدره، البسته أسمال التجني، جزلت أحلامه بقذحة زناد. غدى لهمس الموت طنين يشرخ صوان أذنيه بالتأنيب والتذمر، أنه يعيش بين قوسي اليأس، كقطعة ثلج يدرك نهايته الوشيكة.

العذاب السليط والوحشة المرعبة غزلت له ذلك الصمت المريع المحيط به؛ ليتحول ظله لعقربة تغز فكره بين الحين والحين، تذكره بمصيره الأسود. ذلك الصمت مع استمرار العناء يتحول لعجز يربك وجوده، يحيل السياط المهينة التي تعود على رؤيتها لسيوف تحد رقبتة. لن يستطيع تجاوز تلك التحديات بإيمانه وبراءته والأمل الذي يملأ قلبه. أنه الانكسار، لقد تعود على التجاذبات الصاخبة في داخله، دائما ما كان يلجأ إلى الله في مقارنة الواقع وهوانه، فلم ييأس من قنوط رحمته قط، بقي متعلقا بثنايا الأمل..

خلال تواتر الأيام وسكون الحالة؛ ضاقت عليه أنفاسه، تراكمت حسابات الزمن دون حل، عفن الجسد، تشبع حزنا وشجنا، اكتسبت ملابسه عفونة جسده نتيجة رطوبة زنزانته الكئيبة، الانفردية؛ حتى شعر بعظام جسده باتت تلين، لفقدانه مادة الكالسيوم وفيتامين D ، لعدم تعرض جسده للشمس، لقد تعود على جلسة القرفصاء الطويلة التي أنحت رقبتة وظهره، تراخت مفاصل الجسد، نازعه الزمن على التحمل وإبداء المقاومة ومحاولة المحافظة على حسن قده.

السكون والقلق والوحدة الملعونة ومرفقات الحدث... كلها طعنات صامته نخرت روحه، بدلت ملامحه ونسفت مفاهيمه. لم يبق من حسن ما قبل الاعتقال سوى هيكل وذاكرة، أما الجوهر فقد تبدل؛ الأفكار انقلبت، الأحلام اصفرت، الأهواء ذبلت مع ذبول الجسد. الجدران ابتلعت ابتسامته، الحزن تجهم

في الوجه كوشم دائم. الشَّعْر تلون بالبياض، وكان الزمن
نفذه فاسقط كل شيء جميل علق به.

الكوابيس صارت ترفقه. صار يكلم نفسه لينسى مأساته، يشطّ
خياله علّه يروّض خواء صبره. كأنه علّق حظه بخيط براءته،
ومضى يدور في حلقة تحليلات مريرة تُغذّي قلقه، ذلك القلق
الذي أنكأ جسده بيثور الرعب ورعشة العزلة. اليوم لم يعد
يوما في قاموسه، بل قرنا من الزمن. ولن يمرّ كسواه، بل
يتمدد في ذهنه كدهرٍ يُورق وعيه ويقضم رجاءه.

الكوابيس أضحت تغزوه بكثرة، تراوده باستمرار، تهرش
ذهنه، تدخل الرعشة في مفاصل حياته، بات يفز مع كل طريقة
يطرقُ بها باب زنزانته. فالقدر يلاحقه في ظنه وأحلامه
ويغزوه في الواقع، يسرق منه سنيه ووسنيه وراحته، يشعره
بالضيق والقلق والخطر المحيط به. كل لحظة يتوقع أن ينفذ
به القصاص.

حالة الحزن والكآبة ما عادت تنتهي مراحلها، ما أن تنتهي
فترة حتى يزج بأخرى، تهجس بالأفكار شياطين ترتد عليه،
تباغته، كأنها لا تريد أن تنهي جدل لعبته. هكذا بقي في قوقعة
القدر يتأرجح بين ظن الأمل ويقين المصير، ساهدا طوال
الوقت، متأملا غفوة تشذب ذاته، تنسيه قدره دون أن تأتي تلك
الغفوة إلا كغيوم الصيف العابرة، لا رعد فيها ولا مطر.

متى ما فكر بالهرب من واقعه، تمسكت به ذاكرته، تعيده
لزنزانه، تذكره بالأحداث والمصير الذي ينتظره، فيعود

لبساطه يستدرج خواطره دون أن يمسك بتلابيب نجاته.. فهو لم ينسى لحظة دخوله دائرة الأمن قط، لحظة انقضاض رجال الأمن عليه كالديابير، تلك الهمجية ما عادت تختفي صورها عن ذهنه، بدأت تراوده باستمرار، تدور في فلك فكره كالرحى وهي تسحن ذاكرته.

ما تزال الوحشة تلتف حوله كأفعى. أما زنزانته الجديدة، فصورة أخرى من سجنه السابق: جدران صماء، قطرات ماء تطرق جمجمته، عزف رتيب، جهاز إنذار لا يهدأ صخبه، ينوح طوال الليل. في كل زاوية وسيلة جديدة لتعذيب الروح والجسد. مزيج من القسوة والاستفزاز، لا يترك له فسحة لالتقاط أنفاسه..

كثيرا ما يشتط فكره ويتذكر عائلته، كثيرا ما يتأمل ضحكة زوجته وكركرة أطفاله بعيدا عن الإسفاف الملحق به كذئب يتربصه.. ذكريات العائلية تزيدده هما، تثقل كاهله كأكوام حطب معدة لصهر جسده، ومع ذلك ظل يحلم بقدحة رحمة تفسح لرؤياهم، بشذى البراءة تعيده إليهم، على الرغم من أن كل تلك التأملات يراها تخفق في سماء سعيه كنجوم ساهدة خلف غيوم التهمة.

من أين يأتي بالمستحيل لفك عقد ظنه؟ الأبواب كلها مؤصدة، والنية راكدة في درك الشك، الروح ملزمة، مقيدة بالتهمة والأكاذيب والأحقاد الضغينة التي ركبته..

خلال تلك الفترة ألتمس بعض اللحظات الشاردة، لحظات مرت به بمثابة زخات صيف بللت قدميه، اقتنصت ذاكرته، أستلذ بها، تأملها كنقط تحول جديدة. حينها كان يعيش في تيه من أمره، كان يعد نفسه للحظة القصاص، حينها أنشغل بالتهويلات والتهيؤات التي شغلته وبالوعكات المصاحبة، فدرّب ثنياه على التمعن والصمت وتحمل الموقف قدر الإمكان.

بين لحظة ولحظة كانت خواطره تنتبئه بلحظة النهاية، دون أن يدرك بأن نهاية المطاف لها طرق متشعبة، فيها حلول مختلفة قد لا تنتهي بذات المصير المشؤوم وبما يجول في فكره من قدر. كأنّ للسياط التي انهالت عليه، لها دور في بلورة فكرة النهاية لديه، لأنها توحى يقينا بثبات التهمة عليه، فبذلك سعى خلفها ملبياً نداء خواطره المضطربة دون جدل.

كان قد هيا نفسه لتلقي الجلد وتجرّع أقسى العواقب، تماماً كما كان الجلاد السادي يتهيأ لممارسة طقوسه ببرود لا يكثرث. وأحياناً، كان يشعر أنه يستعد للجلد من يد جلادٍ مسكين، منفي في غياهب النسيان، لا ذنب له سوى تنفيذ الأوامر. فلم يكن مطلوباً من الجلاد سوى أن يُحسن أداء مهمته كي يُرضي أسياده. هكذا كانت تسير الأمور، خارجة عن إرادة الجميع، وكأن الجلاد لم يكن سوى أداة ترجمة لظلم دفينٍ يعتمل في فكر الحاكم، يتحوّل عبره القهر إلى أثرٍ محفور على أجساد المظلومين، دون أن تكون له رغبة حقيقية فيما يفعل.

زمن أجرد أدمغ فكره بالهلوسة، تركه مغشياً بمصيره، لا يفقه
لغة الجلال ولا الجلال يفقه لغته. بقيَّ وحيداً يرفأ الظن والانا
المجروحة، لم يعد يدرك كم من الزمن قد مضى على هوانه
وهو نائم في قبوه المظلم.

4- تحديد جلسة المحاكمة

مرّ حسن بمرحلة طويلة من التشنج والانكماش بعد سنتين من المعاناة، حتى غابت عنه متعة زقزقة العصافير التي اعتادت أن تُوقظه كل صباح، حين كانت تتقافز بين أغصان شجرة التوت الوحيدة في باحة بيته.. لم يعد يهنأ بدفء الشمس وهو قابع في زنزانته تلك التي كانت تُدقق في عروقه طاقة هادئة تبعد عنه خمول الجسد وكسل الأيام. لم يذق فطوراً يُرضي النفس دون أن يطاله وخز التأنيب، بينما ترتسم في عين سجّانيه نظرات قاسية تفضح ذلك الجحود الصامت.

لم يعد يُطربه صوت الشحرور، ولا شدوه الشجيّ، وتناسى أغنيات فيروز التي كانت تبهجه مع كل فجر، وهي تنبعث من إذاعة بغداد مع أول خيوط النهار. كأنّ ذلك الصوت الملائكي ينساب مع النسيم لحشايا المخ، ومع هديل الطيور لأبواب بهجة القلب، حين تمتزج الشمس بالعمل، والحب بالحياة، والأمل بالغد. لكن شيئاً ما قد كسر تلك المرأة... ولم تعد الأيام كما كانت.

كثرت المطبات والمعاناة في دروبه، بات لا يغفى قبل أن يأخذ جولة في فقرات معاناته، وقد تطول به الجولة فيصاب بالأرق حتى ساعات الفجر، هكذا كان يختزل الهموم المتركمة في ذهنه، والمكبوتة على صدره بالآه والحسرات...

أما الكوابيس المتجددة فحدث ولا حرج، أصبحت رفيقة سره، دائمة الزيارة لخواطره، بحيث أضحت تتدفق من المحيط

بنهم، تنهمر كحبات المطر، تنبع من أجواء السخط، تخرج من فج الحيطان لـ ترغ في ظنه كالنواميس والبراغيث الهائجة على سطح مستنقعات الشك. تصيح أذنيه لتدب الرعب بأوصاله، تفسر له تأويلات الغد المبهمة وحجم الخيبة المشاعة في فكره المهفّف، تبين له النتائج قبل وقوعها، تحصره في زاوية الاستسلام والمقت، بحيث لن يستطع أن ينجد نفسه إلا والقيد مبرم في معصميه. لينكب على وجهه ذليلاً، شاكياً لله عزه وهوانه وقلة حيلته.

تتابعت الأيام تفتك بعضها، وهو على حاله لا يقوى على فك كربه، ولا يلوح في سمائه أفق للرجاء. وضعه غامض، متأزم، عالق في قبضة المعاناة، متشبث بخيط رفيع من الحياة. القهر سوط يجلده، والصبر سخط يغزه، يثقل روحه. لقد فُرض عليه سجنٌ لا يمت للإنسانية بصلة، يحمل من القسر والإذلال ما يخلق آخر بصيص للأمل.

ظل يتأرجح بين هوانه وعذابه، حراسه مدججون بالسلاح، مغسولي الأدمغة بمحلول الحزب ومبادئه، لا يعرفوا للرحمة شكل أو معنى، بل أنهم يتصرفون وفق منهج معد لهم كروبوتات آلية بما يمليه عليهم أسيادهم من أوامر الدوائر الأمنية. عملهم محدد بتقديم فرائسهم للعدالة كأضحية العيد، كقرايين تطيل عمر الرئيس، على الرغم من أن الرئيس وحسب اعتقادي الشخصي لا يعلم بكل ما يحاك من جرم باسمه، ولكن الله عيون ترى وتقدر (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

وإذا ما حصل له مكروه؛ ستمضي تلك العقدة معي إلى الأبد كغراء ملتصق باسمي، كوني شاهدا في القضية. حتما سألام من قبل الداني والقاضي، وبالذات من قبل معارفي وذويه، رغم أنني متورط بصلب القضية مثلما تورط بها هو ودائرة الأمن والقاضي، ولكن كل باختلاف دوره.

لا مناص من أن يطالني شرر ما يصيبه، فقد تورطنا جميعاً، بلا ذنب ولا اختيار، وصرنا ندور في فلك التهمة دون أن نتمكن من الانفلات من مدارها.. لا أحد يشعر بوجعنا، فالناس أسرى تمعن في النتائج، لا يغوصون في أعماق الحقيقة، بل يكتفون بالقشور المتداولة والكلام الممضوغ على السنة العامة، يحقنون على شخصيات المسرحية دون تحديد الفوارق. في النهاية، لن يرأف بنا أحد ولن يُنصِفنا أحد بكلمة، لن نجد من ينتصر لنا أو يمنحنا حق الدفاع عن أنفسنا. وإذا ما انفجرت تلك البالونة التي تزن الهموم، فلن تكفي بتدميرنا فقط، بل ستطيح بما تبقى من أعمدة الرجاء تماماً، مثلما ستدمر حياة حسن وأسرته.

بعد انقضاء السنة الدراسية الثانية لي في اليمن، عدت من جديد إلى الوطن لأقضي إجازة الصيف بين الأهل، وصلت مدينة جلولاء في يوم الخميس الأخير من شهر حزيران من عام 1994 م، بانتهائها كانت قد مضت سنتين من القلق والروتين والصراع النفسي على مكوث حسن في سجنه. ذلك القلق كان قد شمل السلسلة كلها التي وضعنا غراب البين بين

كماشة تقريره تحت المجهر، مثلما وضع نفسه في الخانة
المقابلة لتميزه بسواد القدر..

كان قلق داود يتغذى على احتمال براءة حسن ونجاته من
التهمة، إذ كيف سيواجه الحزب والمجتمع بعدما ضلّاهم؟
وكيف سيحتل نظرات الحنق بعين حسن وأهله؟ كان يتمنى
لو يُمحي حسن من الوجود، فيُدفن سره معه، ويصعد هو
درجات السلم الحزبي والوظيفي بلا عوائق ولا تهديد. لكن
القلق لم يغادر ذهنه لحظة واحدة؛ طيف حسن ظل يحوم
حوله، مثلما يحوم حولنا، يعكر صفوة حياته كما يفعل معنا،
ويزرع في قلبه كراهية لكل من يمت له بصلة، حتى وجهه
المصفر صار يستفزني.

كنت قد عدت من اليمن مرهق التفكير بسبب غموض مصير
حسن، مهموماً، مذبذباً، وكأنني أنا من أودى به وجعلته ينال
العقاب والعذاب النفسي والظلم الجائر، المشكلة والعياذ بالله
دخلت في نفق العقد، لا أمل من فك قيده، لا حلول تزيح
غطاء الإيهام عنه وعن أسرته. ذاك ما كان يقلقني ويزيدني
إحباطاً مثل كل مقربيه واصدقائه، الكل عجز عن فك لغز
أحجيته، وكأنّ التهمة التصقت به كشعر رأسه.

لا ضوء بارز، لا سراج في الأفق، بقيت الأزمة تستعر في
كوته بالنفائيات التي ركمها غراب البين فيها، بحيث لا نرى
منها سوى خيط دخان في عيون المراقبين والمتابعين لحثييات
القضية وغموض المصير.

تلك الحالة المستديمة جعلت أصدقاء حسن ينظرون إليّ نظرة دونية، كل يفسر الحدث من وجهة نظره، بين مشكك وجازم، وبين بغيض قانت ولئيم مخل، الكل كال التهم جزافا ومن وجهة نظر شخصية، بحيث حلل الحدث من زاويته... غير أن البعض كان على قناعة تامة من أن داود وراء ظلم حسن في حياكة خيوط العقدة...

عدتُ من اليمن إلى مدينة جلولاء في أواخر حزيران، دون أن ألتقي أحداً من معارفي خلال اليومين الأولين من وصولي. وما حيرني؛ كيف علمت الأجهزة الأمنية بموعد دخولي إلى العراق ومكان إقامتي، رغم أنني لم أغادر المنزل إطلاقاً، ولم أتواصل مع أحد، لا بالزيارة ولا بالاتصال، ولم يتواصل معي أي من الأصدقاء كذلك.

بعد يوم من وصولي؛ طرّق باب الدار شرطي الأمن عبدالباقي سعيد، جاء يخبرني بضرورة حضوري جلسة محاكمة حسن يوم الأحد في تمام التاسعة صباحاً في مديرية الأمن العامة في بغداد. حيث قال:...

- يوم الأحد في تمام الساعة التاسعة صباحاً عليك التواجد بمديرية الأمن العامة في بغداد لحضور جلسة محاكمة حسن، لا تتأخر.....

بتبليغي لي كأنه فتح صنبور القضية من جديد، صرت أتصفح الأحداث نقطة بنقطة، متذكراً تفاصيلها الصغيرة والكبيرة وما جرى بيني وبين الاستاذ عثمان، متذكراً الوقائع بحذافيرها من

لحظة ركوبنا العجلة ولغاية لقائي الأخير بداود قبل سنة من الآن. وقد عزمت على أن أذكر التفاصيل بحذافيرها أمام القاضي، وددت أن أزج داود بالتهمة لما نغص علينا حياتنا وكركب أمورنا وقلب حياتنا خلال تلك الفترة، وددت أن أشرح له حنق غراب البين على حسن.....

لن أنسى طنين كلماته أبداً" دعنا نتخلص منه أنه كلب من كلاب جلال الطالباني" ..

لنتضح للقاضي الصورة الباهتة التي جسدها داود ورجال الأمن بالتهمة الكيدية الواضحة للعيان. كنت عازماً أن أنهى مأساته كلياً، ففي تلك الليلة حفظت كل ما يجب أن أشهد به أمام القاضي لفك ملابس القضية، حفظت البؤس الداجن في وجه داود والسم المغروز بكلماته والحنق الدائر في نظرات عينيه..

ومن جانب آخر، شعرتُ بالطمأنينة حين علمتُ أنه ما زال على قيد الحياة، يملؤه الأمل بأن يُفك أسره ويبرأ من التهمة الظالمة. أما شائعة وفاته، فلم تكن سوى فبركة من المنافقين وخرافة من خرافات الحاقدين الذين وجدوا في محنته موضع شماتة، خاصة بعدما طالت أيام سجنه عن المؤلف.

مرت تلك الليلة ككابوس على صدري، كل فكرة تسحبني إلى أخرى أعمق، أشد وطأة، أكثر إحكاماً في التعبير، وأقسى وقعاً في داخلي، كأن العقل بات يعقد جلساته الخاصة لترميم وترتيب ما سأقوله، قبل مثولي أمام من بيده القرار. تساءلت

مرارًا: هل ستكفي جرأتي لصنع المعجزة وسط جدران المحكمة الباردة؟ هناك، حيث الكلمات ليست حروفًا فقط، بل مفاتيح نجاة أو أبواب هلاك. عليّ أن أختار عباراتي كما يفعل المحامون حين يصوغون مصائر الناس، أن أغزل حججي بنبرة تجمع بين التأثير والإقناع، دون أن يرتجف صوتي أو تخونني العبارات. إن هدفي واضح: أن أفك حبل المشنقة عن رقبتك، أن أروي القصة كما يجب أن تُروى، دون تلوؤ أو زلل، دون أن يشوب صوتي ضعف أو تردد. عليّ أن أكون شجاعًا بما يكفي لأقدم البأس... وأجعل السم يذوب في كأس داود، لا على لساني.

ذلك المكان يحمل مهابة تثير القشعريرة، فهو في أعين الدولة وحزب البعث والقانون مزارٌ مقدّس، لا يُمسّ، وتهابه العامة كما تهابه السلطة. لكنه في نظر العدالة الغائبة والشعب المقهور غابة، أخطّ الأماكن وأخسّسها وأشدّها قسوة. هناك، لا صوت يعلو فوق صوت حماية السلطة، ولا عمل يُقدّم إلا لترميم جدرانها من التآكل. من يعملون هناك لا يغفرون الزلل، ولا يعذرون اللسان إن أخطأ النطق، خاصة إذا خرج المعني لا يطابق نهج الحكم، حتى لو انطلقت النوايا بإخلاصها للوطن.

لذا الناس ترتعب من أسم المكان (مديرية الأمن العامة في العراق)، أسم تهتز له الأبدان والمشاعر، أنها حقيبة تُهمّ جاهزة، لوائح قصاص تكفي لزرع الرهبة في الصدور. إنها ليست مؤسسة فحسب، بل مختبر وجل جاهز للعقاب، ورجل

سخط يغلي بالرعب الخام، تتشكّل داخله تفاصيل التنكيل التي تليق بمن دخل بحثًا عن الحياة، ليجد نفسه على عتبة الموت النفسي. إنها الحد الفاصل بين عقوبتين، لا رجاء بعدهما. من يخرج منها يخرج بنصف عمر، ومن يقترب من أسوارها يهجمس بحرارة الجمر، فكيف بمن غاص في دهاليزها وسبر أغوارها؟ إنه لا يعود كما كان... إن عاد سالما.

تعتبر دائرة الأمن السور الأمن والجدار الصلب العازل لرئيس الدولة ونظامه، يعتبر السف الذي يقصي به رقاب أعدائه، بها يقاضيه ويفشي مخططاتهم. أنها بؤرة النار ومحرقة المنكوبين من أبناء الشعب والخارجين عن القانون والمسيئين للحزب ولشخص السيد الرئيس..

مرت ليلة عصبية عليّ، عانيت خلالها الكثير من التجاذبات، ولا اذكر بأيّ سهوت لحظة واحدة، كنت منكوسا على نفسي، منعزلا عن الأهل تماما، أصارع جيوش الفكر المضطرب بعنفوان وقلق، ذلك الفكر الذي سرق الوسن من الحلق، حتى شطت خيوط الفجر في درجات الأفق.. عندها استنفقت على جلد من الرهبة، أقرأ الأدعية وبعض الآيات مما أحفظ عسى أن تزيدني ثباتا وقوة في مواجهة المد الهولي المؤازر لذلك الرعب، والذي بات يزعزع أعمدة اليقين ويفض في الجوارح خزائن القلق. صرت أرتب تفاصيل الأحداث في الذهن من الألف إلى الياء على حسب الأهمية والحدث، برحت أجلد الذات بالذات وأنتقي التعابير المبجلة السحرية مما كنت قد

دونت في وقت المساء، ومما اعتقدتُ بأنها ستلين فكر القاضي وتقنعه بالبراءة..

في تلك الحقبة، بلغ الحصار ذروته، فارتفع جدار المعاناة فوق طاقة الوطن والمواطن معًا. اجتاحت الأزمات أزقة العراق وشلت مفاصل الدولة، حتى غدا العناء هو السائد في المجتمع، التدهور شامل كل الآفاق. تفجرت ينابيع الأزمات في سلسلة متوالية: أزمة البترول ولدت أزمة النقل والمواصلات، والغلاء جلب عجزًا في قدرة الشراء، انخفاض العملة ادى إلى انتشار الفقر، حتى غرق البلد في دوامة من الشلل الاقتصادي والاجتماعي تلك التي تفتقت عنها الأمراض النفسية والكآبة. شملت الأزمات ركائز الحياة: من المواد الغذائية والإنشائية إلى الصحة النفسية وتعليمية ومواصلات بعد أن شح البترول، والأخطر من كل ذلك تولدت أزمة العلاقات الاجتماعية والإنسانية والأسرية، بل انحدرت القيم، وتآكلت الثقة، وانهارت السلوكيات بعد أن طغت أزمة الثقة بين البشر. ومع استفحال الفقر، صار المواطن يتنقل بين الأزمات زحفًا على البطن، تكبله العقد، وتحرقه براكين الغضب المتفجرة في العقول والقلوب، حتى وصلت بنا الحالة لنعاني من أزمة ماء الشرب والهواء النقي، بل الأخطر من كل ذلك صار التلميذ يترك المدرسة بحثًا عن عمل يعيل به أهله.

نتيجة لسوء الظرف تأثرت الحياة برياح الأزمات التي افتعلتها الحروب والتي فرضتها أمريكا بفرض الحصار على العراق، بحيث أحنى سعر الدينار أمام قيمة الدولار الأمريكي انحناء

مذلة، بعد أن صار الدولار الواحد يعادل 3000 دينار عراقي خلافا لما كان قبل الحرب حين كان يعدل الدينار العراقي.

من الطبيعي أن يصاحب هذا الانحدار الاقتصادي طوفان من الأزمات التي أنهكت جسد الدولة وقوّضت مفاصلها. وحين يدير الوجود وجهه علناً، لا يلوّح فقط بانهييار اقتصادي أو فوضى اجتماعية، بل فتح أبواباً لأزمات غص بها المجتمع نتيجة ضعف الأساس الذي يقف عليه الفرد. الأزمات التي اجتاحت الوطن تولدت من رحم الحصار. فلم تكن مجرد أرقام في تقارير رسمية، بل كانت اختبارات قاسية لروح الإنسان في متاهات المعنى. تحلّلت بنية الدولة كتحلل الجسد حين تغيب عنه العناية، تراكمت الأزمات كعشب بريّ ينتشر دون ضوابط، كظلالٍ يختنق به الغروب، لا بحثاً عن النور، بل استسلاماً لغموضٍ ليس له تفسير.

من رحم الأزمة الاقتصادية، تولّدت أزمات نفسية وثقافية وصحية واجتماعية وبيئية وحتى الدين لم يسلم من امتداد هذا السُّم الزاحف. وكأن الوطن قد باغته ظرف متهمّ كشف هشاشة الصبر، مزّق نسيج ثبات الفرد والأسرة والمجتمع. فالأزمة ليست سوى مرآة عاكسة أظهرت شروخاً في فهمنا لمقاييس الحياة من عدل وجمال ومقدس. لذا في دوامة الغلاء، انجرفت الذات خلف الواقع المادي المتدهور، والذي جعل من السوق معبداً، ومن الرغبة ملاذاً، ومن الحاجة عبادة قسرية.

غدا الوطن كما لو كان بئراً تفوح منه رائحة الأزمات، أركمت النفوس، وأوهنت الضمائر، وكسرت الرابطة بين

البشر. تفسّخت العلاقات لا لأن الحب طمر، بل لأن الحاجة تجاوزت الحد ودعست على المشاعر. كنا بحاجة لمعلم صوفي، ينهك جسده ليوظظ الوعي فينا، ليتركنا أمام أحد الخيارين: الفوضى... أو سبل التجديد.

تبدلت وجوه الناس بألوان الأزمات، تشربت ملامحهم صبغة المصالح الشخصية. اختلط الأسود بالأحمر والأصفر، في لوحة قاتمة تمثل القهر والمعاناة. حيث انبثقت من رحم الفاقة دمايل جرم، قتل، سرقة، تهجير، طلاق، فقر، وهجر... وكان الإنسانية تخلت عن ذاتها.

خلف الحصار جرحًا غائرًا في الجسد ولّد أزمة الثقة، أصاب شريان المجتمع بنزف، شلّ مفاصل الحياة. حتى النقل بين المدن بات معضلة بعد أن شخّ البترول، حيث وجدت نفسي غارقًا في تلك المعضلة وأنا أشقّ طريقي إلى مديرية الأمن العامة في بغداد... الرحلة شهدت على الزمن البغيض، لم يكن فيه الوصول مجرد انتقال، بل اختبارًا للاحتمال والصبر. حيث دخلت المرأب دون أن أجد عجلة واحدة تقلني لغرضي.

تلك الأزمات على أشكالها أضحت سرطانًا جليديا، تترك آثار بقع في الوجوه، لا تميز بين الأخضر واليابس من العود، بحيث غدى الجميل قبيحا، والقبيح بشعا في نظر الناس، تلك التي باتت لا تنظر سوى لبطونها..

ومن الطبيعي أن يتأثر قطاع النقل بتلك الأزمة، حيث العجلات تحتاج إلى بترول وإلى عجلات تسير عليها وقطع

غيار، وبما أن البنزين قل إنتاجه والعجلات توقف استيرادها، والمصانع عطلت بالقصف، لذا صارت المركبات تقتصد في البنزين والعجلات إلا للضرورة مقابل تضاعف أجرة النقل.

شح البنزين، بذلك شُلَّتْ المواصلات بين المدن، صار العبء ثقيلا على المسافر لقلة المركبات العاملة في قطاع النقل، كما ارتفعت أجور النقل عن الحد المعقول أمام ثبات رواتب قطاعات الدولة - لقد تجاوز سعر النقل بين المدن مرتب الموظف الشهري أضعافا مضاعفة، بعد أن دنى مرتب الموظف إلى حد الغير ملموس. حيث أصبح مرتب الموظف يعادل 3 دولارات في الشهر بعد أن كان قبل الحصار يعادل ما قيمته 300 دولار.

كل ذلك التغيير حصل خلال الثلاث سنوات الأولى من الحصار الذي دام لثلاثة عشرة سنة من سنين عجاف، فلم ينتهي الحصار ولم يحتل العراق إلا بعد أن أنهك الشعب تماما.

الفصل الخامس

1- شقاء الرحلة

جلستُ مع طلائع الفجر، حيث تتسلل خيوط الغيش بخفةٍ إلى الأفق، الأطياف تلامس الحديق، تهمس لي، تدهشني، تلاتفني... شعرت كأنني قطعة صلصال بين يدي الزمن، تُشكّلي لحظة بلحظة. كانت الحالة ضبابية، والهواجس تتقافز في رأسي بلا استئذان كعصافير خائفة. كيف أدير أمري وسط هذا التقلّب؟ كيف أهَيئ نفسي لرحلة قد تكون الأهم في مجرى حياتي، رحلة أواجه بها الظلم وأقاوم الانكسار؟ ملامحي غطّاه القلق، وجدت نفسي دون وعي متعلقة بظل قدر يقودني في دهاليز القضية. لا قرار واضح، بل انقياد لهوى الفكر حيثما مال.

لأطرد ما تبقى من ذباب الوسني المترجّ على أجفاني، غسلت وجهي، توضّأت، سجدت في ركعتي الفجر، دعوتُ الله أن ييسّر لي أمري في رحلةٍ أجهل عمقها ومداهها، لكن قلبي ظلّ معقود على نية الخير، بحثاً عن النور في عتمة القضية.

مرت بي لحظات صمت مريعة، أهجس في داخلي تكمن صرخة محبوسة لم تجد مفازا لها لتصدح، صرخة تجلجل واقعي، ما أن تخفق في ذهني؛ حتى تسئل الهدوء مني، تخلُّ عني السكينة. لحظات خرساء موحشة تمرُّ كسموم الصيف، مجنة، تجردني عن محيطي، تطرق منازل الأنا في الأعماق بقطقة الالتباس والغموض والحيرة، دون أن أستطيع أن أتجاوز أثرها، جعلتني منزوع الإرادة، لا أرى ما يراه غيري، تلاشت ملامح الواقع من فكري، شعرتُ بالفراغ

يكتسح أفقي.. عندها سرقت نفسي من سرحاني، ارتديت ثيابي
وتوكلت على الله، متجهًا نحو مرأب العجلات في محطة
الوحدة.

في عتمة هذا المدار المتقلب، أرهقتني أمواج الرعب التي لا
تهدأ، نفرت ذاتي من قدرٍ لم أعد أثبينه. نقلتني لحالة نفسية
مجنة، عبثية، أصابت جوارحي قبل أن أقحم ذاتي بالمواجهة،
عبثت بمخيلتي، صبيتُ جام غضبي على غراب البين اللعين..
طغى ثورة المشاعر، لا تهدأ ولا تكتمل قراءتها، اجتاحت
كياني كإعصار فكرٍ بلا ميناء ترسي به، تركتني أرتعش في
هُوةٍ بلا يقين... لم أكن أدرك ما ستؤول إليه الأقدار، لست
على يقين مما سيرام، خُيِّل إليّ القرار شجرة تتلاعب بها ريحُ
سهجة، تساقط منها الأوراق، بقيت عريانة في العراء تتأمل
أن أعيد لها رونقها. هكذا بدت تتساقط أفكارني كتساقط
الأوراق في الغابات. أهجس ذاتي منهكة نفسيًا في الوقت الذي
به يدب بها نشاط فيروزي لكسر ذلك الطوق الذي قيدنا.. وأنا
أمضي في طريقي؛ أحسست بقلبي يُقذف إلى دهاليز الفوضى،
حيث لا ثبات، ولا من يد تسنده. تجرّني الوحدة بين
أضلاعها، تُلهب سعبي وتزيد الروح أوجاعًا. كأنني رُميت في
لعبة لا أفهم قواعدها، وأجبرت على خوض تلك اللعبة. لا
أعرف حقيقة سر العقدة، بينما مصيري يُنسج في كفوف
آخرين. أهجس بذاتي تمضي بخواء الظن، هزيلة، كفيفة، لا
تمسك بصولج اليقين، ولا تقذف كرة الشك.

لحظات مجنونة سبغت المشاعر في نزعة من العناء النفسي، سوغت الذات لعبة بيد القدر، لم أجد قدرة في ذاتي على المقاومة والصمود، قدرة تمنحني ثقة تامة لأنهي هذا الجدل، لأترفع بها أمام القاضي سعياً خلف الحلم المراد، وكل أمني أن يؤازرنني البخت وأن أنهي مشوار العسر القادم بمقدرة واثقان وتفان بعون الله..

في حقيقة مخيلتي جعلت الظرف غريمي، عدوي. تركني في متاهة أفكار، لم أجد للظرف وجه مقروء، بل ارتدى أقنعة الشك، صار غريمي كداوود، بل هو داوود بعينه، ركب شخصيته وأرتدى قناعه ثم صار غريمي، تواطأ مع القدر في حبك فصول الخديعة.

لم أعد أفرق بين المصادفة والمكيدة، فالعجز استحال إلى شجيرات أشواك تناثرت في طرق صحرائي دون أن أعي، أضحت له سهاماً تربك سعبي في تحديد شهادتي وتسليك مشواري في إنهاء جدل القضية، صارت تربك حساباتي المعقدة. تجردني طاقتي وتنسيني مهمتي. أضحت روحي متأرجحة، متلكئة، تود أن تنهي المهمة بأسرع وقت لفك شناعة غراب البين عن رقبتني.

بما أن سعبي المراد هو سعيّ خَيْرٍ، يزكيني، يزيح عن صدري هوام الشك والهم والغم والقرف والحيرة التي جثمت عليّ من يوم استدعيت للشهادة قبل سنتين، إذا لا بد أن أمضي خلف السعي لأجلي الوجدس عن الروح العاجزة، فلا بد من

وثاق أعتد عليه ويقينٍ اتحزم به أمام القاضي ليأخذ بشهادتي،
دعني أنسى المتاعب واتمكك بحبل الله والصبر والأمل..

ها هو الفجر ينهض صادحاً مع الطيور الجانحة بين أغصان
الشجر، يبعث في الروح لحناً من الأمل لغدٍ مشرق، زارعا
في القلب بذور الثقة. غدت تنساب الراحة في كياني كأنسياب
الندى على أوراق الشجر، رقيقه، حانيّة، لا تطرق الباب، بل
تتسلل بوداعة الدهشة إلى الروح. الفكرة التي كانت تؤلمني
كشوكة في بادئ الأمر؛ أينعت، سلسلت، نضجت كثمرة طيبة،
تشهد على صبرٍ لم يَضغ صوته، وعلى تيهٍ وجدت له نهاية
طيبة. هكذا صرْتُ أرى الخاتمة... لا خسوفاً يطوي النور،
ولا كسوف يسرق الطريق، بل فجرًا يسبق القرار إلى
المحكمة.

خرجت من البيت متفائلاً وحيداً برفقة ذاتي وقدري وهمومي
والأمل يحدوني، داعياً الله أن يوفقني، أن يزيع عني عقدة
الرغبة، لأنَّ العقدة مرتبطة بالرئيس. أهجس بملامح الحلم
تتوضح صورها في الحدق كلما بات يقترب الظن من اليقين،
أضحى الحلم يرافقني كصدى العندليب وهو يبهج الصباح،
يطربني، يريح اعصابي ووجداني..

وأنا أخطو نحو المرأب؛ لم أعد أسمع لنعيب الغراب أثر في
سماء القدر، كأني تجاوزت مراحل العقدة، تحولت صفات
الياس السلبية التي كانت تصاحبني لحالة إيجابية، صارت
ترعى شؤوني، تواكب سكينتي، نقلتني من قوس اليأس لقوس

النجاة والأمل، تاركة كل موجات القنوط التي كانت تصاحبني فيما مضى خلف أثر أقدامى..

عقدت العزم أن أضع الأمور في نصابها، وأمنح رواية حسن خاتمتها الحاسمة. كنت واثقاً أنني سأضع اللبنة حيث يجب، وأكشف الغموض الذي حير القاضي وأربك رجال الأمن وأصدقاء حسن وأسرتهم. تلك العبارات التي استعصت عليّ الفهم والتأويل، قررت أن أفك شيفرتها، وأعيد التوازن إلى ميزان العدالة. لن أعود خالي الوفاض، بل سأتمسك بالعروة الوثقى، سأستند إلى يقين لا يتزعزع، حتى يعود كل شيء كما كان: صادقاً، نابضاً بالحياة، متوهجاً بألوانه الأولى ونكهته الأصلية.

خرجت من الدار بحدود السادسة صباحاً، اللسان تعطر بالأدعية وآيات من الذكر الحكيم، لازالت العائلة مغشية بسباتها، مستهامة بنومها تحت لسعات برد الصباح الشفيفة... حينها أخبرت والدتي الغالية بخروجي، أشرت لها بذهابي لبغداد لأكمل بعض إجراءات جواز السفر الروتينية، حينها كانت قد جلست لتقضي فريضة صلاة الفجر..

بين المنزل والمرأب الذي لا يبعد سوى مسافة قصيرة، مضيت مشواري الصباحي بتحصيل معدتي بصمونة من القيصر البلدي، حلاها شهد العسل فازدادت دفئاً وحنيناً. حيث مررت بركن المعيديات، أولئك النسوة اللاتي يفترشن الأرض أمام محل "الباتا" الشهير للأحذية، يبعن القيصر والجبن بروح تعبق منها رائحة الماضي. ثم اتخذت لي فسحة صغيرة عند

مقهى عبد الحسن، قرب تقاطع السكة الحديد مع الشارع العام،
لأرتشف استكان شاي يُهدى البال ويسترضي المعدة. بعدها
تابعت طريقي إلى المرأب، فإذا به خالٍ تماماً من الناس
والعربات، كأنّ الزمن توقف لحظة وصولي.

في ظل أزمة البنزين المستفحلة، لم يكن في المرأب أية عجلة
نقل. وإذ أمضي بخطاي المتثاقلة نحو المرأب، استوقفتني
مشهد لفيف من الناس مصطفىين على رصيف الشارع العام،
قبالة بناية مديرية ناحية جلولا. عيونهم معلقة بخيط الرجاء،
تترقب أية مركبة قادمة تقأهم نحو غاياتهم. اصطفتُ
بجوارهم، ووقفتُ بينهم كعابر سبيل، أشاركهم صمت
الانتظار، نرفع أبصارنا نحو الأفق، علّ نسمة رحمة تنقذنا
من ضيق الكرب، وتبشّر بانفراجة تلوح في الأفق.

باتت الحسرة تشتعل كفتيل النار في أعماقي عن ما كنا عليه
سابقا وعن ما وصلنا إليه جراء عنجهية الحكم وسلوكه، وعن
الغل الذي أصابنا وحاصرنا جراء تخطيط القرارات الغير
مدروسة.

المسافة بين بغداد وجلولا قرابة 160 كم، أي أحتاج
لساعتين من السفر في أقل تقدير لأصل دائرة الأمن. كانت
الساعة تشير إلى السادسة صباحا، الرحلة غير مضمونة،
المرأب خالياً تماماً من العجلات، لا أثر لحركة تُذكر، حتى
مركبات الجيب العسكرية التي تحولت إلى تكاسي أجرة،
صار أصحابها يملؤون خزاناتها بالنفط الأبيض الكيروسيين

بدل البنزين لشحته، محاولةً لتسيير معيشتهم عبر تسيير حياة الآخرين داخليا.

وقفت مع الجمهور الحائر من الناس، كلُّ يحمل هدفه بين عينيه؛ من تاجر يروم عمله، إلى مريض يسعى خلف علاج، إلى جندي يلتحق بوحدته، إلى موظف يود إنجاز معاملته في وقتها، إلى رحّال لا يعرف الاستقرار. كان الحضور متنوعاً في شكله ولباسه: البعض قادم بالدشداشة والعقال وآخر بالصاية والجرأوية أو الطاقية، وآخرون يرتدون القمصان والبنطال، بينما اصطف بيننا عدد قليل بزيهم العسكري، وآخر يرتدي الزي الكردي، في صورة تحكي فسيفساء المجتمع العراقي في لحظة انتظار.

لكلٍّ منهم سعيه، أما أنا، فكان سعيي لا يشبه سعي أحد. وحدي أحمل غاية مختلفة، غاية تتعدّى إنجاز معاملة أو بلوغ موعد أو تجارة؛ إنها حياة تتأرجح بين يديّ، تنتظر أن أفكّ كربتها. أنا الوحيد الذي غايته تختلف عن غايات هؤلاء جميعاً، أنا الوحيد الذي تكمن بيدي حياة شخص يتأمل قدومي. أنا الوحيد مقيد بساعة الوصول، أحاور القدر في سباق لا يحتمل التراخي والتأخير. أولئك جميعاً يمكن أن يؤجلوا شؤونهم ليوم آخر، إلا أنا؛ يجب عليّ أن أدرك مرامي قبل فوات الأوان، قبل أن تفلت زمام الأمور. لا أملك رفاهية التأجيل. فإن لم أصل في الوقت المناسب، قد تفرط خيوط النجاة وتتلاشى الفرصة إلى الأبد.

لكن مَنْ مِنْ هؤلاء سيتفهم غايتي وسيفسح لي المجال لأتخطى حاجز الأزيمة؟ مَنْ ذا الذي سيفهم أن غايتي ليست مجرد عبور مشوار، بل إدراك غاية. مَنْ مِنْ هؤلاء سيتفهم غايتي ويتنازل عن مقعده لي ليسهل أمري، لأصل قبل فوات الأوان؟ مَنْ؟ مَنْ سيري أن خلف ملامحي المتعبة شهادة تُنقذ حياة بريء وتسعف أسرة من الفاقة، مَنْ منهم سيُدرك أن التأخير ليس مجرد عقبة، بل خطيئة؟

مَنْ؟....مَنْ؟

ربما إن تأخرت، سيتأخر تحديد مصيره إلى أجل لا يُعلم، وربما يُقرّ دون الاعتماد على شهادتي، فتُغلق أمامه أبواب الإنصاف. قد يُعتبر غيابي تخلفاً، أو أسوأ من ذلك، هروباً. لكنني أعلم مصير حسن محتوم بتواجدي في المكان وبالساعة المحددة، حيث يعول على تواجدي المتهم وأهله منذ سنتين وشهرين، مثلما يعول على حضوري القاضي الذي هو الآخر تكبل بورطة قد يحاسب عليها أمام الله إذا ما أخطأ في قراره أو أسرع. كل دقيقة تأخير ليست مجرد وقت ضائع... إنها احتمالٌ يُبدّل القرار والمصير.

تأخرت... نصف ساعة وربما أكثر، لكنها بدت لي دهرًا تلا دهرًا. كان الانتظار يخنقني، والعين تترقب شبح الرحمة يقدم من بعيد. بغداد لم تكن مجرد وجهة، بل منفذ الأمل الأخير. تنهدتُ حزناً، كأنّ كل زفرة تحمل معها مرارة سنةٍ من البُعد. الوجوه حولي مُنهكة، والمكان يضج بالضجر والضجيج، اليأس يزحف نحو الظهيرة اللاهبة. كنتُ جزءاً من هذا

الإعياء العام، لكنني أحمل فوقه عبء الحر والعناء والغياب والتأخير، وصدمة ما آلت إليه أحوال البلد خلال سنتين قضيتها بعيداً في اليمن، ظننتني أباعد لأتففس... فإذا بالبلد قابع بهواجسي وهو يختنق أكثر.

كنا أكثر من عشرين شخصاً مصطفىين على الرصيف، ننتظر عجلة تقلنا إلى وجهتنا. ومع مرور الوقت، بدأ الازدحام يشتد، إذ كان ينضم إلينا شخص أو اثنان كل خمسة دقائق، حتى بات المكان لا يسعنا. صار من الصعب أن نظفر بمقعد في العجلة القادمة، فالجميع يسعى للوصول في الوقت المناسب، والجميع يطمح إلى مقعدٍ مضمون. إن وصلت عجلة، حتماً ستندلع موجة من التدافع والتنافس على المقاعد بين المنتظرين، مشهد صار جزءاً من روتين البلد، حيث قلة المركبات وشحة الوقود، جعلت التنافس حاضراً في كل الميادين.

كأنّ الوقت يعتمد أن يسابقني، وكل دقيقة تمر تُثقل عليّ عبء التأخير. الساعة تجاوزت السابعة والنصف، والمحكمة لا تنتظر المتأخرين، بل تبني إجراءاتها على دقائق الساعة. كيف السبيل إلى الوصول قبل التاسعة والنصف؟ كيف أبلغ القاضي بحالة الأزمة، هذا الزحام يبتلع كل محاولة للحاق بالموعد؟ في بلدٍ صارت فيه الحركة رهينة الندرة - ندرة المركبات، ندرة الوقود، ندرة الفرص، وندرة الحظ لأصحاب العقود، باتت مثل هذه المواقف اختباراً للصبر لا يقل رهبة عن إجراءات المحاكمة ذاتها.

أشئت وتيرُ القلق في داخلي، أضحى القدرُ يلهثُ خلف جزعي الذي ركب مركب عجزي، يا ثرى ماذا أفعل؟ هل أخبرُ دائرة أمنِ جلولاء لثعيني بقدراتها وتساعدني على الوصول لمأربي قبل فوات الأوان؟ لا أدري كيف أداري وضعي في تلك اللحظات الحرجة من عمر القضية، المسألة محيرة، والأمرُ خارجٌ عن حدود السيطرة. فيما مصيرُ حسن يبقى معلقاً بخيطٍ واهٍ من الحطّ وتجني القدر، وبذلك الرهان الخاسر الذي بات يضيق عليه وينحسر في ذهنه مع تقادم دقائق الزمن.

إذا ما تأخرت قد يؤخر القاضي بته قرار القضية لشهر أو لأشهر وربما لسنة قادمة، هذا يعني يبقى حسن قابع في زنزانتة حتى الموعد الجديد، وأبقى معلق المصير حتى يوم الفصل الجديد، وقد أُنْعَم من الرجوع لليمن لمواصلة عملي هناك حتى تحين موعد المحاكمة، فيضيع عقد عملي ومشواري التدريسي في دجى الظرف.

كان الخيال قد جرّدني من واقعي، وصار يدحرج القدر بين متاهات الظن، بين فِكْرٍ مشتّتٍ ومصيرٍ عبثي. كنتُ بواقع الحال متقلب المزاج، أتأمل أن تُمنح لي أجنحة لأجتاز بها المسافات وأختصر الزمن. كان وضعي غريباً إلى حدٍّ بالغ؛ إذ انصَبَّ فكري وعقلي في دورق العجلة وفي أمل الوصول، منشغلاً بكيفية تجاوز الأزمة في الوقت المناسب... أضحى عقلي كالرحلة يدور في أروقة القضاء، بينما جسدي منطرح بين شِلة من المنتظرين على الرصيف كالأحداث المتفسخة، لا حياة فيها سوى التنهيد.

بين الحين والآخر يعيدني أحدهم إلى الرصيف بسؤال عابر، فأفلت من قبضة الخيال للواقع، وما أن ينتهي أعود لفحوى خيالي إلى قاعة المحكمة، ثم يجذبني آخر بسؤال جديد أو شكوى من الملل والضجر...

- بالله هل هناك من يرضى بهذا الحال، يجب أن أكون في بعقوبة لأستلم كتاب التعيين اليوم...
- وآخر يقول: عليّ الالتحاق بالوحدة قبل أن يعتبرونني غائبا ومتخلفا أو هاربا من الخدمة العسكرية...
- وآخر : إذا لم أطلب البضاعة اليوم غدا سأجلبها بسعر مضاعف، الأسعار في فوران وتساعد مستمرة...
- وآخر: يجب أن أصل إلى الدوام قبل الثامنة، والآن الساعة تشير إلى الثامنة والرابع...

طال الانتظار، وغصّت الأمكنة بدوشة المنتظرين، تفيض بالملل والسأم. ضاقت النفوس ذرعًا، وغلى الغيظ في الصدور، حتى راح البعض يسبّ أمريكا والدول المتحالفة والمجاورة، تلك التي شاركتها في فرض الحصار الجائر. وجوه غائرة، منهكة، طفحت بالعوز والفاقة، مصفرة باهتة كليمونة معصورة، يغلفها جفاف كأنما طُلّيت بلون الزعفران لسوء التغذية. أجسادهم توارت تحت أردية عتيقة فضفاضة بعد أن نحتت وضعفت، أسمال بالية لا تليق بشعبٍ يجلس فوق بحيرة من النفط، لكن نكبته جعلته كالغارق في ظله.

الحالة تمثل شكلا من أشكال المأساة، فالعراقي الأبى،
الشهم، الكريم، المعطاء، لم يتعود على عيشة الذل والهوان
عبر التاريخ.

وسط تلك المأساة الراهنة، انقضت الغيوم فجأة وتبدد الضباب
الذي حجب رؤيتنا، وذلك مع وصول شاحنة قلاب الطوب
عند الساعة الثامنة وعشرين دقيقة قادمة من جهة قرية شيخ
بابا شمال جلولا. توقفت أمامنا في طريقها نحو مقالع
الطابوق في المقدادية. بدا عليها أنها أفرغت حمولتها للتو من
الآجر في شيخ بابا، ثم عادت لمقالع المقدادية لتحميل شحنة
جديدة. لم يُضِع السائق الفرصة، فاستغل وجودنا ليعرض
علينا نقلنا مقابل كسب بعض الدنانير الإضافية.

ركب الجمع الغفير المركبة دفعة واحدة، فلم أعد أُمَيِّز نفسي
عنهم، إذ تلاشى الفرد في زحام الجماعة. لم تكن تعينني
واسطة النقل قدر الوصول مع الوقت، حتى وإن تأخرت عن
الموعد المحدد أو اللحظة المناسبة، قبل أن يُؤجل التحقيق.
كانت العجلة تلهث في داخلي، تحفزني الغاية لألحق بالزمن،
ويؤازرها خوف خفي من أن أحاسب من قبل جهاز الأمن
لتأخري عن المثل أمام القاضي. فقد يُفهم تأخري على أنه
تخاذل أو تهرب من المواجهة، أو عدم رغبة في الإدلاء
بالشهادة... وعندها، يُبنى الحكم على ما في جعبته من حجج
وظنون.

إذا لا بد من الاستعجال والتشيث بالعجلة لتجاوز أزمة
المسافة، لا بد أن أسبق الزمن وأختصر طريق الوصول.

فالقانون لا يفهم لغة الشارع، ولا يعترف بالمطبات، ولا بأزمة الوقود وشح المركبات، إلا إذا أخذت حالة الأزمة في نظر الاعتبار.

لا بد أن أدرك القاضي، أن أضع إرادتي بين يديه، حتى لو تأخر بي الزمن. ربما يحسب عبثية الظرف وفاقدة الأزمات التي عصفت بالمجتمع، وربما تكون للعدالة كلمة أخرى، مناقضة لما هو سطحي وملمس. رأيّ دفين أضعه بين ثنايا فكر القاضي والورق المسطر أمامه، به يتجنب المماحكة والمجادلة في لجاجة عقم القضية.

وما يدريني الظرف؟ عليّ أتواجد في الوقت المناسب لأضع النقاط على الحروف كما قررت. المهم أن أصل قبل انتهاء وقت العمل، فما زال هناك متسع من أمل يحدوني، يجلي الهم عن الصدر. فالقاضي لم يكن في حال أفضل من حالي وحال حسن، كلنا ندور في فلك القضية التي ورّطنا بها غراب البين، ويجب أن نرسي على برّ واحد مجتمعين.

وددت لو امتلكت قدرة عفريت الجن، ذاك الذي نقل عرش بلقيس من مأرب إلى حضرة نبي الله سليمان في طرفة عين، كي أشقّ السحب وألتحف الغيب، فأكشط الغشاوة التي حجبت وجه الحقيقة عن القاضي في لحظة فاصلة. وددت لو أتحدى بصفة السحر والشعوذة لأخترق حاجز المستحيل، لا عبثاً بل سعياً للحقيقة، أن أشحن ذاتي بطاقة كهربائية إيجابية، تحرق المسافة بيني وبين دائرة الأمن، فأكون حيث يجب أن أكون، في اللحظة والدقيقة، في الزمن الذي لا يُعوّض.

ارتقيت مع المجموعة البالغ عددها بحدود قرابة 30 شخصا أو أكثر، معظمهم من كبار السن أصحاب المحلات التجارية وقلّة من العسكريين، فمنهم من قصد أسواق الشورجة للتبضع، وآخرون قصدوا وحداتهم العسكرية، وعددا آخر هموا في مراجعة الدوائر المدنية في مركز المحافظة (بعقوبة)، كدائرة الجنسية أو التربية أو مديرية الجوازات أو مركز المحافظة أو المستشفيات.. الخ.

أبا سائق الشاحنة أن يوصلنا قبل أن نجمع له أجرة النقل، وكان قد أصر على مضاعفتها بحجة غلاء البنزين..

مع أول اهتزاز للمركبة، التصقنا بجدرانها الداخلية، واقفين على أقدامنا، تلك الجدران المتسخة المتلغفة بغبرة الجص وصفرة الأجر المحترق، كأنها شاهدة على عبور أزمنة يتجسد فيها البؤس. الأرضية اكتظت ببقايا الأجر المكسور ونثار الجص، بدت كأرض عبثية خمد عليها اللهب تاركا نفاياته. الجميع يتأرجح كأغصان الشجر تلهث خلف ريح عاتية، يهتزّون مع تمايل "قمارة" الشاحنة التي تقاذفتهم بلا رحمة.

العجلة تنتهادى في المسارات، متجاوزة المطبات النشاز والحفر المتناثرة، أشبه بفخاخ مدسوسة. اشتدّ الامتحان حين بلغنا عقدة المسافة بين السعدية ومنصورية الجبل، تلك الرقعة التي تخترق بحيرة حمريّن من يسارها، ثم تتحدر عبر هضابٍ وتلولٍ غير معبّدة، ملؤها حفر ونقر نتيجة عبث

العجلات بها. كل حفرة كانت نداءً يوجع الكاهل، وكل انعطافة صرخة تشل التفكير.

ذلك الطريق الترابي، الأسوأ في المسافة، دائماً ما يتعرض للتعرية مع ارتفاع منسوب البحيرة في الربيع، فيتحول إلى مسرحٍ للمعاناة، حيث كل ارتجاج يذكّرنا بأن الرحلة ليست مجرد انتقال، بل امتحانٌ آخر من امتحانات الحياة.

لم نكن نستطيع الجلوس في حوض القمارة، لكثرة ما تتناثر فيها من كسر الأجر وئثار بودرة الجص أو البورك الأبيض، وهي مخلفات حملٍ سابق من مواد البناء تُركت في القاع من دون تنظيف. بعضها تحوّل إلى مسحوق ناعم، وبعضها نثر كجذاذة خشنة تحت أقدامنا. حتى بطانة القمرة من الداخل طالها الغبار الأبيض، فعلق بثيابنا حين اضطررنا إلى الاستناد إليها خلال حركة الشاحنة.

لم تكن ظروف الرحلة تسمح لنا بالجلوس على أرضية حوض الشاحنة؛ واجهنا اهتزازات القمارة التي زعزعت توازننا بعناء شديد، قلة الأوكسجين، وحرارة شمس حزيران اللاهبة، ناهيك عن سحابة الغبرة التي صاحبتنا عبر مسافة البحيرة الترابية. أما العجلة، وهي تتخبط في تقرحات النقر والحفر، فكانت تُربك وقففتنا، فنبذو أشبه براقصي باليه مترنحين، نتمايل، نتعثّر، نحتضن بعضنا تارة، ونسقط على بعضنا تارة أخرى، خصوصاً الواقفين في وسط الحوض.

عانينا كثيراً ونحن نخترق مفازة طريق البحيرة الترابي خلال عبورنا للبحيرة. فقد تسببت الثلم والحفر، التي خلّفتها الطبيعة وعجلات الحافلات والشاحنات التي لا تهدأ على الطريق الغاص بالحصى والحجارة والمطبات المخفية، والتي تحته طبقة ناعمة من غبار ناعم مسحوق، ترسب بفعل السحق والدوس المتكرر. هذا الغبار كان كافياً ليثور من أقل حركة، فنتعكر الأجواء وتثقل به أنفاسنا حتى نهجس بالاختناق. تشبعت صدورنا به، وترطبت خياشيمنا به، بينما تغيرت ألوان ثيابنا التي صُبغت بالغبار وتعطرت برائحته، ووشت خصلاتنا بئثاره، فلم ينج منا إلا من غطى رأسه أو لقه بغطاء الغترة.

تمتد المفازة نحو سبعة كيلومترات، تعبر خلالها سدة ترابية تشق البحيرة من جانبها الأيسر. تلك السدة تآكلت بفعل المدّ والجزر وارتفاع منسوب المياه، دائماً ما تتعرض للتجريف والتآكل، إذ تتلاطم الأمواج بجانبها فتنهش حوافها. ومع كل موسم فيضان ترتفع المياه حتى تدك الشارع، فيتحوّل المرور بالمر إلى مغامرة محفوفة بالخطر، خشية أن يخسف الشارع تحت عجلات المركبات العابرة.

كما أن قير الشارع قديم جداً، وهو ذات الشارع الذي أنشأ قبل أربعين سنة دون أن يعبد، أنشأ قبل إنشاء السد على نهر ديالى، شارع ممتد كثعبان مبقع بين وديان وتلول حميرين المنيعه، والذي لم يجد اهتماماً من قبل الدولة، على الرغم من أنه يختصر المسافة بين جنوب محافظة ديالى وشمالها بـ 40

كم، لقد تخلت الدولة عن كثير من خطتها المهمة بسبب انشغالها بالحروب المتعاقبة.

خلال هذه المسافة والتي نلنا من خلالها ما نلنا من العناء والشقاء والغبرة، والاهتزازات التي خلخلت اجسادنا؛ كنا قد تحملنا عذاب تلك المسافة على مضض، حتى أدركنا المنصورية ومن ثم المقدادية بعد عناء ساعة ونصف من المسير..

وما أن وصلنا مرأب المقدادية حتى أخذنا قسطا من الراحة على رصيف الشارع العام، البعض منا أمتد على ظهره ليريح عظامه التي تضعفت، أصبحنا أشبه بالمسأطيل والمخمورين مترنحين فوق الرصيف، بين صاح ومبهوت ممتد على ظهره وجليس مدهول، مرهق، الوجوه مشعشة، كنا كألفة نبدو للناظر كشلة مجانيين، أو من المكبسلين مفتقدين اللعة في الوجوه، كالعابثين بأشكالهم وأرواحهم في حفلة تنكرية. كان الشخص منا يرى ذاته بوجه صاحبه، للغبرة التي يحملها والتعب العابث بلامح وجهه.

خلال انتظارنا في مرأب المقدادية والذي دام نصف ساعة من الزمن، كنا قد استغلينا تلك الفترة بغسل وجوهنا من صنوبر حنفية مطروحة داخل المرأب، ثم ارتشفنا كأسا من الشاي من ساق متجول يرتزق على زبائن المرأب، شعرنا خلالها بشيء من الراحة وإعادة الأنفاس لطبيعتها.

في الحقيقة تكررت معاناتنا في المقدادية مرة أخرى مع أزمة عجالات الأجرة، وابتزاز سائقيها المسافرين. بسبب شحة البنزين، كان قد أبا سائق الباص توصيلنا إلا بمقابل أجرة مضاعفة أيضاً، مستغلاً أزمة العجلات في المرأب.... أخيراً استقللنا باص صغير ذات اثني عشرة راكبا متجهين لبغداد.

كانت قد استغرقت رحلتي من مرأب جلولاء لغاية دائرة الأمن في بغداد ثلاث ساعات ونصف من الزمن، نفضت عن جسدي العناية والقيافة والنظافة والفتنة والراحة بعد أن افتقدت الصبر والأمان والزمن.

ما أن وصلت مرأب النهضة في بغداد بحدود الحادية عشرة صباحاً؛ حتى وقفت جانبا على رصيف الشارع العام خارج مرأب النهضة، مؤشرا بيدي لعجلات التاكسي العابرة باتجاه منطقة البلديات التي تتواجد فيها مديرية أمن العامة في جانب الرصافة، لم أنتظر طويلاً؛ حتى ارتقيت أحداها لتقللني لمأربي وأنا شبه منهك.

كنت آنذاك قد تأخرت عن موعد المحاكمة المفترض إقامتها بساعة ونصف تقريبا. لقد غُلس الحال، لكني أخيراً وصلت دائرة الأمن قرابة الحادية عشرة والرابع بعد عشاء واضح. كان القاضي منفهما سبب تأخيري لذا لم يشير إلى سبب تأخيري، قيافتي ومنظر العناء البائن على محياي يشهدان بذلك، حيث جئتهم بشخصية أخرى لا تشبهني، وكأنني خارجاً من ساحة حرب.

كانت شوارع بغداد شبه مهجورة إلا من عدد قليل جدا من المركبات العابرة وقلة من البشر الدائح خلف رزقه. يطغي على المدينة آثار الحصار بوضوح، آثار مقروءة على معالم الأبنية وفي وجوه الناس وشحة العجلات في الشوارع؛ حتى الأشجار كانت تشكو ظرفها وسليط الحر وجفاف الأنهار وإهمال البلدية. أشعر بالمدينة أضحت تأن بآئسة، كئيبة، حزينة، تعصر القلب، لم أشهد أي تطور طارئ على معالمها يبهج النفس، كأنها أصيبت هي الأخرى بأمراض العصر والأنيميا...

كان سائق التاكسي الذي أفلّني إلى مديرية الأمن رجلاً في أربعيناته، واهناً كأنما نُخرت قوّته تقادم السنين والهموم المرافقة. تقاطيع وجهه الحادة تسرد حكاية شقاء طويل، أما جسده النحيل، فقد أنهكه الهوان حتى التصق جلده بعظامه، فبان هيكله واضحاً للنظر. كان يرتدي دشداشة بيضاء تزيد شحوباً وتتماهى مع خصلات شعره الأشيب وزغب لحيته الفاترة. رغم عمره المفترض، بدا كهلاً تجاوز الستين، يُتوّج رأسه بغترة بيضاء كأنها كفن يتوشح بها. عيناه غائرتان، وعظام وجهه نافرة، كأنه ليس له علاقة بواقع الحياة.

خلال الطريق إلى دائرة الأمن، والتي امتدّت رحلتها لنحو ربع ساعة، انسَلَّ صوت السائق، بنبرته الفضولية المألوفة، إلى صمتي المشوب بالقلق. كان يبدو ذكياً، بعينين تشبهان المجهر، ترصدان كل شاردة من ملامحي المضطربة وهو يسألني:....

- لم أنت ذاهب إلى دائرة الأمن؟ هيتك لا تدلّ على أنك
أحد رجالهم، فلو كنت منهم، ما استأجرت تاكسي! ثم
إنك لا تحمل سلاحًا.

كان محققًا، فقد رآني في هيئة أشبه بالتائه، وجهي مصفر،
شعري أشعث، وملابسي المترهلة تعبت بها ريح الطريق
وغبار الصيف. العجلة أجبرتنا على فتح نوافذها لعطل أصاب
جهاز التبريد، فاندفعت موجة حرّ خانقة - تجاوزت ثلاثة
وأربعين درجة - غسلت وجوهنا بعرقٍ لا يُمهّل. امتزج
العرق ببقايا الغبار، فارتسمت على الوجوه خرائط من الكدح،
كأنها وشم البؤس.

قلت له، وأنا أمسح عن جبيني آثار الحر بقطع مناديل
الكليנקس:

- صدقت يا عم، لست من رجال الأمن. جئتُ بصفة
شاهد في محاكمة أحد المتهمين بسبّ السيد رئيس
الجمهورية.

قطّب الرجل حاجبيه، ومال إليّ قليلاً:

- بالله عليك، أشهد بزور هذه الدعوى وكذبها. سيكون
ذلك في ميزان حسناتك، وما عند الله لا يضيع.

ابتسمت، وربّثت على كتفه قائلاً:

- اطمئن، يا عم. هو بريء فعلاً. لم يسبّ الرئيس. إنها
قضية كيدية... لا أكثر.

- هذا الذي جرنّا للمأساة التي نحن عليها، مع الأسف هناك أناس لا تخاف الله ولا ترأف بالناس، لا يابون بمن يكفر ويأبون بأقل من ذاك بكثير {{وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ}} صدق الله العظيم.
- صدقت...

كان الرحمة هبطت من عليائها، فحلت على لسان ذلك السائق، فأنطقت فكره بلغة لا يجيدها إلا من أسع بنورها. لم تكن كلماته محض سؤال عابر، بل كانت نفحة من نور، ولأنها تهمة كيدية فقد جعل الله للرحمة صوراً شتى تقابلنا في طرقنا بأشكال مختلفة حيث تبرز لنا، تصادفنا لتذكرنا بالله، وإلا ما كان نطق بها السائق لولا أن لسعته تلك الرحمة في تلك اللحظة. وما كان ليسألني بها ويترجاني لولا الإنسانية التي غشت ضميره. عبرت لتذكرني بأن في هذا العالم وجوهاً لا تزال تؤمن بالعدل وإن صمتت، وتُجيد الشهادة وإن لم تُستدع.

لقد كان في وسعه أن يصمت، أن يبلغني وجهتي كما يقتضي واجبه، دون أن يتورط في مسألة لا تعنيه. لكن الرحمة مرّت كسحابة صيف على روحه، فبعثت فيه بريق قلق، وأججت فيه انسيابية إنسانية فاضت بكلمات بيضاء، خرجت من صدره كمائم سلام ترفرف في علياء فكره، لتحط على أسوار قلبي، وترسوا على ضميري كالقمر.

اللغظ الذي يعصف بعقول بعض البشر ما عاد مجرد اختلاف في الرأي، بل استحکم حتى صار عقدة خانقة، تتحول عند

البعض إلى إساءةٍ، وإجحافٍ، واستبدادٍ يلتهم معاني الإنصاف. ينقلب الحوار إلى استطالةٍ في التهم والتأليه، إلى بهتانٍ ما كانت لتتحمله جبل أشم، فكيف بإنسانٍ ضعيفٍ لا حول له ولا قوة؟ هل نسي هؤلاء بأن الرئيس بشرٌ مثلهم؟ لم نرفعه إلى مقامٍ لا يليق إلا بالربوبية؟ تلك هي مصيبتنا حين يخلط بعضهم بين احترام المنصب وتأليه الشخص، فيتسابقون إلى التملق طمعاً في مكسبٍ أو إثبات ولاء أمام أعين الحزب وأجهزته.

أليس الأجدر أن يُحاسب من يكفر بالله، لا من ينتقد من هو عبدٌ مثله؟ إن الانحراف عن جوهر القيم لا يبدأ من السقوط في الخطيئة، بل من السكوت على الظلم حين يُلبس ثوب القداسة.

كان السائق قد توقف على بعد 100 متر من الباب الرئيسي لدائرة الأمن العامة، حيث أخبرني بمنع وقوف العجلات أمام الباب الرئيسي بصورة مباشرة، فأشار إليّ بالنزول والترجل والرحمة تلوك لسانه وهو يوصيني بها خيراً.

- كن صلباً ولا تنسى رحمة الله، فأنت ستنتقد أنساناً من موت لا يستحقه.

- مع السلامة يا عم، أطمأن، أوصانا الله بأنفسنا وبالأخرين خيراً، ولا يمكن أن نتجاوز قدرنا.....

كما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق واللين في التعامل مع الآخرين، فأن هناك قوة كبيرة جداً داخل

الشخص تدفعه إلى الأمام، تقوّي عزيمته؛ حتى يجعلها على مستوى التحديات، فيقاوم التيارات المنحرفة بقوة، هذه النفسية دائماً ما تدعو إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دائماً الأمل يحدوها في تغيير الواقع.

2- مديرية الأمن العامة

ترجلتُ من سيارة الأجرة على بُعد نحو مئة متر من بوابة دائرة الأمن، ثم سرتُ بخطى واثقة نحوها، حيث كان جنديان مسلحان يحرسان المدخل. قدمتُ نفسي لهما، وشرحت سبب زيارتي قبل أن يبادرا بسؤالي عن هويتي وسبب وجودي. سارع أحدهما بالاتصال باستعلامات الأمن الداخلي، وكأنه كان على علم مسبق بقدومي، أو لعلها مجرد إجراءات مألوفة مع الزائرين.

طلب مني مرافقته، فمشينا معًا عبر ساحة البناية الواسعة، تلك الساحة الوسطية التي تتجاوز مساحتها ألفي متر مربع. تتوسطها حديقة دائرية صغيرة، لا يزيد نصف قطرها عن عشرة أمتار، يكسوها عشب أخضر وتنتثر فيها شجيرات باسقة وزهور ندية. لمحتُ صنوبر ماءٍ مخصصًا لري النباتات، فانتهزت الفرصة لأغسل يديّ ووجهي مما علق بهما من غبار الطريق. بأصابع يديّ مررتُ على شعري، أرتبه قليلاً، علّني أخفي ملامح التعب والأرق التي ارتسمت على محياي. قادني الجندي لغرفة الانتظار، وهي غرفة صغيرة بحجم 4x4 تقع في الركن الأيسر من البناية...

ما إن دخلتُ الغرفة حتى باغتني وجود داود فيها، كأنه أنهى شهادته للتوّ، كأنه ينتظرني كالقاضي والمتهم ومنغصات القضية. كان يرتدي ذات الأناقة التي عهدتها عليه في الحافلة: قميص أبيض ناصع وبدلة سوداء منسقة بعناية وكأنه لا

يرتدي غيرها. رأيته يحدّق فيّ بشغف، كأنّه استعاد طمأنينته لمجرد رؤيتي، فرحّب بي بوَدٍّ ملحوظٍ واتّسع صدرٌ لا يُقارن بالجفاء الذي قوبلْتُ به حين سألتَه ذات مرّة، عن أصل جذور القضية وتشعّباتها في سوق جلولاء.

وجدته خانسا على كرسيه البلاستيكي الأبيض، مواجهًا لمدخل الغرفة، كأنّه ينتظر قدره. كانت ملامحه مثقلة بالهم والتفكير، توشي بحيرة مشوبة باليأس أو بالندم، وكأنّه غص في مراجعة داخلية مريرة لما وجس من تورط إذا ما كانت النتيجة لا تطابق غايته: ماذا لو برّئ حسن من التهمة؟ بدا وكأنه يلوم نفسه على التسرّع في صياغة التقرير، أو على عدم إحكام الرواية بما يكفي لتأمينها من بدايتها. فمنذ أن خطّ ذلك التقرير، لم يلتق بي، لم يناقشني، ولم يسألني عن رأيي في حسن. ربما أدرك، في أعماقه، أنّ تبرئة حسن قد تعني تهديدًا صامتًا له... انتقامًا مؤجلًا ينتظره.

ما أن شاهدني حتى جفل، وقف على قدميه مرحبًا، مصافحًا، منفتح الأسارير، مبتسم ابتسامة صفراء عريضة طغت على محياه، طلبًا مني الجلوس بجانبه.

في يسار مدخل الغرفة كانت موضوعة طاولة كبيرة من الألمنيوم، يجلس خلفها رجل بلباس مدني، كان يبدو أنه منشغل مع أحد المراجعين، هكذا هُيئ لي الوضع، وعلى الضلع المقابل لنا توجد كنبه خشبية مفروشة ببساط من قماش المخمل المورّد، يجلس عليها شخص يرتدي اللباس العربي (الغترة والعقال). ربما كان ينتظر دوره في التحقيق..

جلستُ إلى جوار داود على كرسي بلاستيكي أبيض، وكلّي أمل أن يكون قد غير رأيه وبذل نظرته وخلع عن قلبه ما علق به من أحكام تعود لسنتين قُضت. سألته بهدوء: -

- هل شهدت؟ هل أتمت المحاكمة؟

أجاب بثقة مصطنعة، تعترّيها نبرة حق وسخط دفين: --

- نعم، شهدت...

كان حديثه مشحوناً، كأنه يحاول استمالي إلى ضفته، ليُصبغ شهادتي بصبغة نيّاته. نظر إليّ بنظرة تحمل قدراً من الحدة، ثم قال: -

- اسمعني جيّداً... بعد قليل سيدعونك للشهادة، وسيسألونك إن كان قد تهجّم على السيد الرئيس. قل لهم إنّهم قد سبّوه وأهانوه بألفاظ نابية. علينا أن نتخلص من أمثال هؤلاء الخونة، لا ترحمه، إنه كلب من كلاب جلال طالباني. شدّد على أنه أهان الرئيس أمامك.

أصغيتُ لحديثه وتحريضه المحتدم دون أن أنبس بشفة، وكأنّي أسمع نعيبَ غرابِ البَيْنِ ينذر بالفاجعة. كان الغضب قد طغى على بصيرته، وغلب حلمه، فصبّ جام سخطه في كأس حسن، كأنّ عقله قد فاض بما اختزن من شوائب الماضي وترسّبات الشك. ربما كان في نفس حسن شيء من ذلك الذي يُتهم به، نزعة دفيّنة لا عتزازٍ قومويّ، وهي في أصلها غريزة لا تُدان. لكن أن تُسقط على إنسان وُجد في لحظة انفعاله

اللفظي حكماً قاسياً دون أن يسب ويخرج عن حدود العلن،
فذلك إجحاف بحقه يفتقر إلى الإنصاف. هو فعلاً لم يسب
الرئيس، وهذه هي الحقيقة التي أعرفها، فبأي حق تُلصق
التهمة به جزافاً، وتنسج حولها رواية مشوبة بالتحامل

لم تنصف الدولة العراقيين، بكل فسيفساء أطيافهم وقومياتهم.
تسرّب الفقر والعناء والأمراض النفسية إلى عمق المجتمع،
رغم أن العراق يُعدُّ بحسب المقاييس من أغنى دول العالم.
ومع ذلك، بقينا واقفين على هامش الحياة حفاة القدمين، نعيش
عيشة الكفاف، كأننا منبوذون من نعمة الوطن أضحت نفوسنا
في حالة غرارة وخطيئة، يطغى عليها الحزن والخذلان. ربما
هذا ما جعل حسن يتأفف ويتململ، يضيق ذرعاً بالأوضاع،
ويحاول فك أغلال كبلته كما كُبلت الملايين سواه.

بصوت يائس، أشبه بلسعة ريح غاضبة، طرق أذني بكلمات
كأنما صكّها بقطعة فلين من الغيظ تماماً، كأنني لم اسمع
شيئاً، لم أعد أسمع سوى صدى فراغ مريب. تحوّل الكلام إلى
ضحيج، كأنه بنى حاجزاً بين نواياه ونواياي. سوراً من صفيح
بارد يعكس صدى الخبث والنية المريبة عليه. "إنما الأعمال
بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى". صدق رسول الله (ص
(. حيث نظراته باتت أقوى من صمته، وصمته كان أكثر حدة
من كلامه، كأنه بات يصرخ إذا ما انظر إلى ما وراء المعنى،
محاولاً إنقاذ نفسه من الطامة التي تنتظره..

جاء حديثه في الوقت الضائع، يحاول لملمة عناصر خبثه. كل
شيء تجمّد. الأنفاس تقطّعت على أعتاب الإدراك، العقل

غشيّ بسواد النية... فلم يجد سوى سلاسل كذبه تُطوّق عنقه
بخيوطٍ من الريبة.

في دهاليز مديرية الأمن شعرتُ كأنني دخلت ساحة أرضٍ
محَرّمة، مواجهة وشيكة وشرسة مع أقطاب الشر. الضمير
قائم كلّظي الجمر تحت الرماد، متهيئ لمجابهة خصمٍ يتخفّى
وراء القانون. ذلك المتملّق القابع في قروء الظن، يتأمل
المستحيل، وما كان حديثه معي سوى اغترابٍ بلا مأوى،
كلمات نثرها كالغامٍ تحت قدمي.

لم يكن بيننا وصل شوق، ولا حتى نفورٌ عابر، بل قطيعة
ممتدة منذ اليوم الذي انتسب فيه إلى مدرستنا. كان قد عزل
نفسه في محيط ضيق، خواءٍ جافّ، لا يمدّ جسور المعرفة،
سوى نفرةٍ لا تُنسى، كأنها وصمة لا تمحوها الأيام.

كان غريباً؛ منعزلاً، نرجسياً، متكبراً، لا يطلب القرب ولا
يُعطيّه. يرى ذاته دون سواها، لذا تجنبنا، وكأننا في عينيه
مجرد ظلالٍ هوامش عارضة. صار قدرنا ذلك الذي لم يقدر
الفتنا، كونه أبن ريف لا تتطابق مقوماتنا، لا تجارب له
تسنده، لذا ود أن يستتر نقصانه بوشاح الترفع المصطنع. على
الرغم من أنني كنت أرى نفسي أميراً عليه، لتواضعي وطيبة
قلبي في التعامل. لذا لم أعطي أهمية لأمثاله.

جلوسي إلى جواره كان أشبه بكمينٍ معلّقٍ بخيطٍ، قد يدخلني
الفخ بلحظة غفلة. لم أكن حرّاً أبداً، بل رهينة وهم مرسوم في
وجهه. شعرت بأنني هدف يود الإمساك به، الخدعة ماثلة في

نظرات عينيه، وفي يده بهيئة المصافحة. اللحظات وإن بدت عادية، إلا أنها مكشوفة للعيان، ملغومة، تدور في بقعة أمن الدولة حول قضية حسن... حيث الهواء مشبع بالرصد والتجسس، الكلمات قد تتحوّل إلى تهمة. كل شيء له عين وآذان: الكاميرات قد لا تلاحظ، لكنها عيونًا جاحظة لا ترمش مدفونة في المكان، وأجهزة تنصت تصغي حتى لصوت تألمي، في الزوايا وتحت الجدران وفي اطر الكراسي. بل الجدران ذاتها تُنصت، الكراسي أداة تسجيل تخزن تلتقط همسات الشخص، الأرضية تحفظ بصمات النّفس. العيون تقرأ الملامح وتغوص في النوايا، والآذان تلتقط صدى نبض القلب وغُسر التنفس.

هنا، كل ما هو بريء يصبح مشتبهاً به، وكل حركة تُفكّك وتُحلّل، تُقرأ خارج سياقها. المكان محرّم على السكينة. تهجس بأن الهواء معبأ بالسموم والشكوك.

ظلّ متمسكاً بمنهجه القديم كأنّ لا سبيل لنجاته سواه، لكي يستمدّ منه بقايا هيبّة لازبة في قعر الزمن، وأملاً وهمياً في استرداد شيء من ذاته الضائعة في تلك المتاهة. لم يكن ذلك ناتجاً عن قناعة، بل عن خوفٍ دفين من وهدة السقوط دون أن يستطيع أن يعيد لذاته قيافتها، من انكشاف الذات أمام من عرفوه طويلاً خلف الأقنعة التي يرتديها: القاضي، جهاز الأمن، الحزب، والرفاق، زملاء العمل. التغيير، بالنسبة له، لم يكن تطوراً - بل فضيحة. لم يجروا على تغيير فكرته، لأن

التغيير يعني انكشاف المستور، يعني التعري، سقوط القناع. سيكون فرجة للآخرين بكذبه وتلفيقه ونفاقه.

فأثر أن يبقى في ذات الدائرة من البغض والإصرار والعناد الذي أنهكه، دفاعًا عن فكرة جوفاء، عن قناع بالكاد يغطي جزء من وجهه. لقد صغر كثيرا في أعين الناس، وهو يعرف تمامًا أنه قد صغر وأفلس أمام الحق، ومن الهيبة، ومن الكفاءة، ومن الله قبل كل شيء. ومع ذلك، لم يكن أمامه إلا التمسك بذلك الغي، متأملًا أن يحتفظ بكرامته، حيث إذا ما فشل في سعيه، سيكون منبوذا خارج المجتمع.. لأنه ليس كل الحزبيين يتحلون بأخلاقه وقيمه، تلك العقدة متجذرة فيه شخصيا فقط، والتي حاول لف حبلها على رقابنا، لكنها في النهاية ألتفت عليه.

أصبحنا جميعا ندور في ذات الدوامة، وأصبحت الدافع في معالجة الأمر أقوى من سعيه، وأشد من عناده وانتمائه للحزب وتمسكه بالوطنية الزائفة تبعا لتسليم المناصب والدرجات. لذا شحن فكره بالغل والتحدي والتشفي، ليحتفظ بقيافته أمام الجميع.

لذلك فضلت السكوت على مباحكة أفكاره المريضة. إصراره على التخلص من حسن كانت هي نقطة الفصل بيننا، وهي نقطة ضعفه وانكساره أيضا...

ثباته على رأيه فضح غرضه أمام أعين الجميع، كان ذلك دليلا قاطعا على كتابته التقرير المغرض ضد حسن. لذلك

ورط الجميع، حيث لا أحد يستطيع تجاوز خبث التقرير المكتوب. كما أنه لن يستطيع أن يتراجع عن زلته أبدا أمام القيادة، قد يعرض نفسه للمسائلة والعدالة بعد أن شغل دوائر الدولة الحساسة بخبث نيته، شغل دائرة أمن المنطقة ومديرية الأمن العامة وقاضي التحقيق وإدارة المدرسة والتلاميذ وأسرة حسن...الخ.

أنه بحكم الماجن، لم أستطع مجادلته تحت ذلك السقف المرعب، لذا فضلت السكوت والتنصت. هجست بقرص الشمس تغازل ضميري بدفع حرارة المكان وأنا جالس بجانب كومة فحم يحترق، كنا ندرك بأن الزمن لن يبقى منه سوى رمادا يتطاير في هواء الذاكرة...

هجست في تركيبة عقليته عقدة روضت شخصيته على نمط خاص؛ كأنه استلهم مقوماتها من عقلية جهاز المخابرات، هذه الصفة شكلت في ذاته جدار صد ضد كل من يحتك بجدار النظام، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار موقعه الحزبي الذي تدرج إليه وحنينه الدائم لجهاز المخابرات، كأنه مارس عمل المخابراتية أملا بإمكانية إعادته لعمله السابق في جهاز المخابرات...

أما أنا؛ شعرت بوجودي في تلك البقعة خارجا عن المؤلف، وكأنني القطعة الغير مناسبة في أثاث اللوحة، مشتت الفكر، ضائع، أود أن أدلي بشهادتي وأخرج من تلك اللوحة على محمل السرعة. شتات الفكر يسلط رعبا على القلب، يجرد أوصالي من الثبات، أهجس بالخواء يحيط بي من كل جانب،

يا ترى من الشخص الجالس أمامنا؟ من ذلك الذي يستند على جدار الحائط؟ من ذلك المُعَقَّل القابع على تلك الكنبه؟ الهاجس يرتعب من كل شيء موجود في هذه البناية، حتى من السقف والحيطان والخزانة والطاولة، من ذلك الخواء الدائر في الفضاء الغير متناهي، من الهواء والأثير المتلصص على الأفواه والأذان. للرعب عطن في كل مكان.

لم يكن الجالس خلف الطاولة شخصًا عاديًا؛ لا بد أنه ضابط أمن أو منتسب لإحدى دوائر السلطة. فهذه البقعة محصنة، لا تطأها قدم غريبة، ولا يعمل فيها سوى من ارتضى أن يكون كلب حراسة للنظام. عيونهم مدربة، أنوفهم أشبه بأجهزة تعقب، تشم التفاصيل عن بعد أميال. إنهم أبناء دائرة الأمن... دائرة الخوف. اسمها وحده يزرع الرعب، فكيف بمن يعملون تحت لوأها؟

هؤلاء لا أهجس بهم بشرًا، بل كائنات شحنت بالأوامر، جردت من الرحمة، مدربة على الاصطياد والتتبع. وحوش لا تعرف التردد، ولا ترتعش أياديها، حتى وإن ارتعشت القلوب من حولها. لذلك أثرت ألا أجادل داود، ولا أناقشه، ولا أخوض في سجال معه؛ فما خفي من الخطر أعظم من أن يُغامر المرء بكلمة زلقة.

أثرت الصمت، ففي ذلك المكان لا يُسامح المخطئون. جلست ثابتًا، كصخرة بلا روح ولا فكر، لسان أخرس، ورئة لا تنفس، وعينان واجفتان تدوران في المحيط كمجسات إلكترونية ترصد المستحيل، وأذان تتنصت على دبيب النمل،

تقرأ ما حُطَّ على الجباه من النوايا، وتعدّني بقراءة المشاهد القادمة.

لم يطل جلوسي في تلك الغرفة طويلا، حيث جاءني أحد الجنود يبلغني بضرورة الامتثال أمام القاضي للأدلاء بالشهادة.. حيث تم إعادة فتح جلسة التحقيق مع الأستاذ حسن مرة أخرى للاستماع لشهادتي، وذلك لاتخاذ قرارا نهائيا بالقضية المنسوبة له.

قبل أن ينادي عليّ المنادي لأدخل قاعة المحكمة، وقبل أدلائي بشهادتي بدقائق، كان القاضي قد نبه حسن إلى مسألة خطيرة وحاسمة، ذلك ما عرفته لاحقا، حيث قال له بالحرف الواحد:.....

- أسمع يا حسن أذا ما تطابقت شهادة الشاهد الثاني مع شهادة الشاهد الأول، فأعلم بأنك مدان، وأني ملزم أن أحكم عليك بالإعدام شنقا حتى الموت حسب القانون، هذه فرصتك الأخيرة.

وبذلك وضعه بين قطبي كماشة المصير، أدخله في دوامة الصراع المرير الغير مجدي، لا حولة له ولا قوة إلا بالله، جعله يعيش حالة جدلية مع القدر الانبي، ليس لديه فرصة للنجاة أو الهرب من واقعه المر؛ إلا بالرجاء المراق على طرف لساني، خاصة في ظنه كان قد وضعني ضمن كفة الأعداء المتأمرين عليه دون تفريق، متوقعا بأنني وافقت داوود على حياكة صيغة التهمة له.

طاف به بركان الخوف، ولن تُخمد نيران صبره إلا بعد أن يستمع لشهادتي، أنها دوامة وجس ليس لها أول ولا آخر، لفته بفائف الأسى، دَرَسَتْ فكره بأتراس الشك واليأس، التمس عجزه، ما برح غدت ترتعد أوصاله، أوشك على تَلَقَّف مصيره بلا شك، أنها لحظاته الأخيرة الحاسمة، أنها الجولة الأخيرة من نزاله مع القدر، ضبحت النفس وافتقدت طراوتها، أضحت تجر أذيال الخيبة والعناء إلى خط النهاية، لم تنفع مبرراته في إقناع القاضي بحقيقة براءته.

نسبة النجاة من المصير المحتوم ضئيلة جدا، تكاد لا ترى بالعين المجردة، لا تعادل أعشار الواحد من وجهة نظر حسن، مقرونة بمدى تعاطفي معه وتعاطف القاضي، مقرونة بالرأفة المراغة في نفسي، أنها نسبة مبهمة بالنسبة له، مغلوطة.... لذا تَكْبَلُ بيأس شديد غطى على محياه. أوهامه الغير محسوبة، وافترائه على ذاته، وسهو ذهنه، قادوه لنهاية الجولة قبل أن تبدأ.

في أفق ذلك الصمت، يكمن صوت زخم يرهبه، صاخب، ينفذ من داخله، يجعله لا يرطن إلى قرار لما يدور في فكره وما حوله من منغصات، رهبة جائرة تملكته، بات لا يرى أمامه سوى خط مستقيم يؤدي إلى نهاية المطاف، ولا يرى في تلك النهاية سوى وحش قابع خلف خط النهاية ينتظر افتراسه.

هو لا يدرك زغب الرحمة المرتعش في سنابل ضميري وضمير القاضي، لا يسمع صرخة الحق التي ترمجر في فضاء قاعة التحقيق. ذلك السيف الغير مرئي وهو يحش

أشواك الحدث.. اليأس رسم له سراب الطريق، نزع عنه قدرة التفسير. كانت مستشعراته العاطفية قد تعطلت اسلاكها عند مدخل زنزانتها؛ فلا حرارة رجاء تصل إليه، ولا نسمة رافة تلامس وجدانه. كأن الزمن اختصر كيانه في تلك اللحظة إلى جواء، أرض قاحلة، صحراء موحشة، لا يرى سوى أطياف أطفاله وزوجته، وخيط رجاء يلتف على حشف شفتي... بينما كنت أداري ظله بين قوس القرار، بين أن أكون شاهداً أو أن أكون إنساناً.

لحظات عجفة، ثقيلة، كان قد تحمّل قساوتها وهو مارٍ بمحطاتها الضبابية، محطة بأثر أخرى؛ حتى أدرك نهاية المشوار. وهو يدرك جيداً - لا ينجده من تلك المشكلة سوى خيط واه لا يرى بالعين المجردة، معلق طرفه بنجوم السماء، وطرفه الآخر معقود بلساني.

كان يترقب تلك اللحظة بشغف، لينهي جولة معاناته التي باتت لا تُحتمل. ينتظر النهاية بصمت، يراقب الغُلة التي أثقلت صدره، فيما يتنفس الصعداء من حين لآخر عبر دائرة الأضواء المنيرة من حوله. كان يستمد منها أملاً في ظل جوّ مشحون باليأس والترهيب، كأنّ كل مصباح ملك رحمة يعينه على الصبر. قدّر أن هناك نوراً يطوف في القاعة، نوراً لم يأت من فراغ، بل من وعدٍ خفي بأن الظلمة مهما اشتدت لا بد أن تنكسر أمام شعاع يتسلل من بين الشقوق.

لحظات صمت تزينت بسكينة وهدوء عام، أكتنفها غموض، قد يكون ذلك الهدوء والسكون الوصلة الأخيرة قبل أن تحل

العاصفة. كل لحظة منها فيها وجس، كل لحظة منها تسرقه من عالم الوجود لعالم الغياهب والافتراء، صار يتمنى أجله على رحلة الاهتراء التي أفسدت حياته، لم يعد يستطيع تحمل ذلك العناء والفراغ المدوش وهو لا يقدر أن ينفذ غبرة التهمة عن أسماه البالية.

غدث الروح تستشيط وتتسامى مع تفاعل الموقف، تطير أمامه كدخان ينفذ من كوة تحترق في صدره، بل انه يهجم بها تنفذ دخانها مع زفيره الساخن، هكذا يرى اللحظة تدور حوله مع تخيله حز الحبل لرقبته قبل أن ينفذ به القرار. ادرك بأن موته معقود في صرة التنفيذ، أضحى قاب قوسين أو أدنى من الواقع، الحقيقة المرة التي تغزه، تذكره بنهاية المطاف، ذلك ما يستشعر به وهو يرى ذاته وحيدة تتقدم على خط العجز، بعد أن كان قد استمع لشهادة داوود الذي كبله بالتهمة..

في واقعه المريض، أضحى نجاته أو موته سيّان من وجهة نظره. لقد جُرد من إحساسه، فما عادت عناوين الحدث تثيره أو تكسره، بعد أن لم يبقَ فيه شيء يُكسر. صبره لم يعد يحتمل المزيد، إذ كهل في ذاته وتكور صبره، حتى غدا عبثاً عليه. بات يهجم بأنه مجرد رقم، سها أن يُمحي من على السبورة في أي لحظة.

تسمّ البدن بما فيه من كفاية، وتجمد العقل عند حدّ العتمة، حيث نضت كل أفكاره وقوته. أضحى في عالم الوجود فراغاً يدور حول فراغٍ أعسر، كأن الحياة لم تعد سوى دائرة مغلقة من العدم.

لكن من يتقي الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا).
صدق الله العظيم.

لقد تجلد أمام تلك العاصفة الهوجاء التي ضربت خيمته على حين غفلة، ظلّ واقف على قدميه كشجرة نزعت أوراقها، فلم يبقَ فيها سوى أعواد نافلة، رغم الانتكاسة، حافظ على كياسته، صَبْرَ صَبْرُ الجمل على الصحراء، تشبث بحبل الله المتين، قاوم ذلك المد الهولي من الجنون بخشوعه وزهده، أبتهل إلى الله، راجيا رحمته تعيد له توازنه.

3- مجريات المحكمة

دخلت قاعة المحكمة والوجل يملكني، بل أطبق على جل أوصالي، شعرت باضطراب عام في الفكر والنفس والقلب، صرت اتخبط بين يقين أمسك به ووجس تلاعب بمشاعري، بين أن أفلح في الشهادة وأن افشل بها، بين أن أصيب أو أخيب بسعيي، شعرت بخدر يدب في أطراف القدم، كأنني كنت بحاجة لمفازة أطول من تلك التي بين غرفة الاستراحة وقاعة المحكمة، لأعيد بها توازني وضبح أنفاسي للوضع الطبيعي، قبل أن أقابل السيد قاضي المحكمة.

احتجت لدقائق إضافية أخرى لتهدئة الذهن والقلب وترتيب مفردات أوراقي التي تلخبطت نتيجة اضطراب الفكر المفاجئ، فمواجهة القاضي ليس بالأمر الهين، وبالذات في قضية فيها حياة أو موت. لذا احتجت لدقيقة عزم يساعدني على الثبات ونطق الحق....

أنها لحظات حسم أخيرة، لا مجال للمماطلة والمناورة، يجب أن أكون أو لا أكون، يجب أن أصيب الهدف بدقة، أي انحراف في التصويب ستعكس رصاصتي إلى صدر حسن قبل أن يصدر القاضي قراره. يجب أن أكون جبلاً أصم أمام زحمة التحديات المحيطة بي، يجب أن أكشف الغطاء عن اللغز للقاضي، يجب أن أجعل لبصمتي هالة في أعين المخدوعين والمشككين والمنافقين والعابثين بحياتنا، ليرتفع صوت الحق عالياً، صوت لا يعلا عليه صوت.

يجب أن أحسم القرار الذي ما عاد يحتمل مباحكات جديدة،
وأني لأراه يُكْتَب بضميري وضمير القاضي معا، فالحالة لا
تحتمل التآني والتحميص وترك القدر فوق الرفوف...

المشكلة التي واجهتني حينها هي كيف سأبدأ الحوار؟ كيف
سأوصل الفكرة؟ من أين أبدأ؟ أنا لا أعرف سبل المشوار
الذي سيعتمده القاضي. إلى أي مدى ممكن إقنع القضاة؟.. لم
تكن لي تجارب سابقة في المحاكم لتعينني، لم تكن لي خبرة
في هذا المجال قط، غير بعض المعلومات السطحية التي
أستقيتها من بعض أفلام السينمائية.

دخلت متوكلاً على الله، متسلّحاً بصبرٍ يبدّد ظلمات الليل، فيما
الرعبة تكبل جسدي، ويقين يشدّ قلبي. لم أكن سوى شاهدٍ
فحسب، إلا أن للمكان رهبة، وللقاضي هيبة، وللقضية جوانب
مبهمة، إذ تتعلق النتيجة برئيس الدولة شخصياً. ذلك الجبروت
الخفي يسكن خلف سُحُب الهواجس، يتسلّل إلى النفوس
كأصداء رعب تقوض النفوس. فليست هذه المحكمة كسائر
المحاكم، إنها محكمة أمن الدولة – القرار فيها نهائي لا
تراجع به، لا مكان للون الرمادي فيها؛ لا تعرف سوى اللون
الأبيض أو الأسود.

بات مصيرُ حسن وعائلته معلّقاً بكلمةٍ ينطقها لساني، كل
معنى في الدين، وكل رجاء في الله، وكل عين رجاء بين
الناس، وكل ومضة إحساس في داخلي تلاحق خطاي وتترقّب
همس ظني. ففي تلك اللحظة، وتلك المواجهة المصيرية،

أصبح ضميري موضع ترقب، وكان عدسة الزمن ترصد اختياري وتتخذ منه شهادة على ما سيحدث بعده.

الوجل منبثقاً من قلة التجربة، فكم من أناس تورطوا في هذا المكان وهلكوا لأسباب تافهة. ذلك المشهد ترك أثراً في نفسي، فشددت على ذاتي بقيد الحذر، رغم أن مشاكلهم كانت أقل حدة وتعقيداً مما يواجه "حسن"... فقد أعدم كثير من الشباب فقط لانتمائهم إلى حزب معارض، وآخرون أعدموا لأنهم كانوا محتاجين.

ما زلت أذكر مجيد ولي، الذي أُعدم بتهمة سرقة ثلاث قضبان حديد من محطة السكك الحديدية قيمة القضيب عشرة دولارات - لتسقيف غرفة في بيته المتواضع. لم يرحموا فقره، لم يقدّروا عجزه، لم يصغوا لتوسّلاته. تجاهلوا ضيق الحالة، وفتك الحصار، لكنهم قدروا تجاوزه على مصالحهم.

بتعسفهم المفرط المبالغ به؛ كانوا قد قشروا تفاحة العدالة بحيث نزعوا عنها جلد الرحمة، جعلوها تنزف وتتعفن في أعين الناس؛ كانوا قد تجنوا على الاستاذ أحمد كونه أنتمى لحزب معارض. تجلّدت حيثياتهم وبيست، أضحت لا تعني المعنيين بها والمحتاجين لها بشيء. ومع تعاضم جرائمهم وتفننهم في الترويع، كانوا قد تجاوزوا على حدود الله والإنسانية والحرية، لتوالي قصص الجرائم والتعذيب صارت العامة تنبذ أفعالهم.

منذ الأزل، والدنيا قائمة على صراع لا يهدأ بين الحق والباطل. ومهما تفرعن الباطل في غلّوه، لا بد أن يقع يومًا في شرك الحق. هو ذاته صراع ضمير والوجود، بين الجاني المتلفع بظلال الكذب، والمجني عليه المتقوقع بظل التهمة.. إنها دوامة تدور في فلك الحق بفعل خبث الباطل، لا تعرف سكونًا، تلقف الوجوه المتنازعة وتطحنها في رحي المصير... حيث يمنح القدر نصيبه لمن يشاء، ويترك فتاتًا في قدور الآخرين.

الدوامة التي افتعلها داود كانت ثعبانًا بثّ سمه في كؤوس الجميع. جعل الحق يتشح بخمار الباطل، ولم يتبقّ من الثقة سوى شظايا باردة لا تجرح. باتت المواجهة مرآة للخوف ذاته؛ خوف من شكله، من أنياه، من صديده الأسود.

يا ترى، أيمن أن يزهد الباطل وتعود المياه إلى مجاريها؟ حيث إن الخوف من المواجهة يكمن في الخوف نفسه، في شيطانية شكله وغلّله، في احتمال أن يعتلي الباطل سنام الحق. حينها ينهار الحلم في نفوس المتورطين بالقضية، وتظل الفوضى دائرة في فكر الجميع، كدوامة لا تنتهي.

ترقب الجميع بزوغ شمس الحق في سماء القضية، علّ السكون يعمّ الأجواء المضطربة. وكان قاضي التحقيق أشدنا لهفة وانتظارًا، ذلك الرجل الذي قدر جليًا حجم هشاشته وتورطه العميق في خيوط القضية، بحكم حساسية موقعه. أحسست أنه أكثرنا اضطرابًا، يتهرب من حدة القرار كمن يعلم أنه إن أخطأ، حكم على نفسه بالفناء.

خالجني شعور بأنه يعيش صراعًا داخليًا تمزقه نوازع الإيمان وخيوط الفتنة. أنه رجلًا مؤمنًا، ولكن إيمانه ذاك شدّ وثاق يديه، غرس العجز في قلبه، فعجز عن اجتياز المأزق. سكنت الرهبة أعماقه، خشية اتخاذ قرار يبدّل المصائر. ما كان يخشاه هو الله، وما أربكه هو خبث تقريرٍ غراب البين. كان يدرك ذاته محاصرًا بعيونٍ تترصده من كل اتجاه، يعلم أنه إن أقرّ الخطأ، حمل وزره وحده. هكذا وجدته معلقًا بين شفا الحق وأناء الباطل، كغريق يتخبط في لجة التجاذبات بلا طوق نجاة.

لذا، حسب تقديري، لم يبقَ أمامه إلا منفذ ضيق، معلق بما سأنفوه به، وكأنّ كلماتي هي حبل النجاة له ولكل المعنيين في القضية، سنتنقذه من النفق المظلم إلى برّ الأمان.

وجدتُ الوجدس ماثلا بين عينيه خوفا من أن تميل كفة العدالة لجانب الباطل وهو مجبر دون إرادة أن يقر ذلك، أنه واثق كل الوثوق من أنها قضية كيدية وقد كُبلَ بها دون رغبة، انبجس قلقه نتيجة حرصه على صورة العدالة، خوفه أنّ من أن يخرس صوت الحق في ميدان الشر، حيث لحالات الشواذ نصيب في كثير من أمور الحياة وعقدها.

لحظات حرجة مررت بها وكأنني اعيش فلما سينمائيًا، لحظات عصيبة تحترق في الذات كالجمر، أثقلت انفاسي بدخانها، لوت لساني بثقلها، كانت ذاتي قد مسها الارتباك خلال دخولي نفق الصمت الأخير من المواجهة، حين تأكدت بأنّ الحالة

أزفت وعست في دخولها لحظة التحدي الأكبر، عندها ايقنت بأن هناك ومضة تخترق عتمة المساء.

دخلت قاعة المحكمة والتي هي عبارة عن غرفة 5 × 8 تقريباً. كان الأستاذ حسن يقف في قفص الاتهام الموضوع في أقصى الزاوية اليمنى من مدخل القاعة، فيما القضاة الثلاثة يجلسون على منصة الحكم القابعة في وسط القاعة من جانب الأيسر من المدخل، قرب المدخل توجد طاولة صغيرة مربعة بطول متر موضوع عليها كتاب الله المبجل (القرآن الكريم)، وهو المكان الذي يقف به الشاهد. المشهد للرغبة التي تتوجسه كانه يوم القيامة.

كان حسن واقفاً في الزاوية خلف القضبان، تغلف ملامحه سحابة من الرعب والارتباك وكأن عزرائيل يقف على رأسه، ينتظر صافرة نهاية الشوط الأخير من لعبة التهمة. عندها التقت عيناى بعينييه، وما أن استطاعت العدسة من تجريده من غبار عتمة القاعة؛ حتى وجدت فيهما اتساعاً موحشاً من العناء والألم، وتجعّداً يكشف عن شكٍ عميقٍ في داخله. كان وجهه متجهماً باليأس، عزيمته منكسرة، قواه منهارة، كأن الحياة انسحبت من ملامحه تاركة صفرة الشحوب تكسوه. حينها تملكني حزن شديد عليه، ها أنا أراه بعد فراق دام أكثر من سنتين بهيئة منكسرة..

هجست في نظرات عينييه الغائرتين خلف الألم موجات اتهام صريحة لي، سخط مرأى في قسّمات وجهة، نظر إليّ نظرة الهميم المكسور، تائه، تلفه دوامة صمت مطبقة على ذهنه،

هوان لازب في بدنه، حيرة مرة تغمر فكره، غارب بعصف
من التيه والشرود لا حدود لهما.

رأيته واقفاً في وسط العتمة، بين ثنايا الرعب واليأس،
الحزن يوشم قسماته. بدا لي في ذلك الدجى كعمود نور عطب
مصباحه، يفقد مفاتيح الصبر في لجة تنذر به بما سيحل به من
كرب، بعد أن يطوى سجل التحقيق...

بنظرته لي كأنه أخبرني بما آلت إليه الأمور في الدروب
المغلقة، بما ترسبت عليه من عقد ومصاعب تراكمت في
جحره. كأنه أخبرني بما تجرّع من مرارة العلقم من فلتات
لسانه. تبدو على قسماته انزلاق خطوط عبث شاحب. هالة
سوداء تطوق عينيه، حتى لا يبصر الأشياء كما هي، ولا
يلمح في الوجوه إلا الخواء. لم يعد يقرأ الأحداث بمعانيها، ولا
قادر على تفسير الكلم، الكل عنده أصبح سواء، منزوع
الضمير، جمعنا في كفة ميزان أعدائه بلا تفرقة.

لذا حين دخلت قاعة المحكمة كان قد تمت بكلمات لم أتوقعها
منه. لقد أخبر القاضي مشيراً بسبابته إليّ قائلاً:...

- سيدي هذا واحد منهم، هذا واحد من المتأمرين عليّ...

كان ذلك قبل أن أنفوه بأي كلمة، نتيجة العقد الملتفة على
عنقه. أضحى لا يميز بين طيف الالوان، لا يعرف التعامل مع
الرموز التي تقف أمامه.

حينها طلب القاضي منه السكوت لتسيير الجلسة.

أنها لحظات الحسم الأخيرة، لحظات حرجة، خاطفة، بعدها سيكون أمام أحد الخيارين، أما أن يذهب لداره أو يعاد لزنزانته، أما أن يكون في موضع مبتدأ متقدم ليترك الجمع خلفه، أو يكون في موضع خبر كان في آخر الركب. وعلى ضوء المعطيات القادمة ستفرز جلسة المحاكمة الأخيرة النتائج أمام عينيه، معتمدة على بزل الأقاويل من نفيي أو تأييدي للتهمة.

الزمن القادم هو زمني المطلق، سأكون المحور الرئيسي في توجيه القضية لجهة ما، سأكون المحور الذي يستند عليه القاضي وكل من تورط بالقضية بالإضافة لحسن وذويه وأصدقائه، أو سأكون الهوة التي سيدفن فيها حسن إلى الأبد.

كان عليّ درجة الفكرة بين يدي القاضي، وعليه فحصها وتحميمها. وإلا ستقلت من قبضة يديه لبحر التيه. إذا عليّ أضع النقط على الحروف لأوضح معنى الجملة المبهمة، لتتوضح الصورة المغشية أمام عيني القاضي. كنت عازما على قول تفاصيل القضية بحذافيرها وبالذات فقرة تحريض غراب البين لي....

في نظر حسن كان القرار قد أخذ مسبقا، فالقاضي لا يطلب منه في الجلسة الأخيرة سوى توقيع القرار... القاضي هو الآخر كان في يأس من نجاته، كان ينتظر بفارغ الصبر شهادتي ليفلت ذاته من قبضة اليأس التي خدشت ضميره، ينتظر أن أرفع غطاء الصدف عن اللؤلؤة المكنونة في قلبي. ترى ما ذنب القاضي الذي درس العدالة مدة ست سنوات

مريرة، ليأتي مجبراً أن يحكم بقضية لا تعتبر قضية من وجهة العدالة؟، ليقر حكماً لا علاقة له بالعدالة.

كان داود قد أقر التهمة على حسن، بل ثبتها بمسمار البغض على جبينه، وهذا يعني أنه أقرب من خط الخطر كثيراً، أوصد عليه منافذ الهرب. لذا كان يدرك بأنه قد قطع مشوار الطريق وأنه يقف على خط النهاية، فما بقي منه لا يعد سوى جدولة عمل روتيني في غلق الملف، ولن يستطيع أن يحرف مسار فكر القاضي عن حد السيف الذي ينتظره قط...

كل شيء معلق بما سألفظه أمام القاضي. لحظات متأرجحة بين وهدة الرجاء والقنوط، لم يسبق له أن مر بموقف كهذا. الحالة أثقلت كاهله حد الانكسار، فلم يجد في جعبته منفذ سوى أن يسلم أمره لله وللقدر، مستسلماً لعاصفة لا يملك لها دفعة، وقد غدت الإرادة متفرجة، عاجزة عن تأخير المصير ولو خطوة واحدة. كان يقف على الحجر الأخير من الزاوية التي وضع فيها، فالهوة بانّت واضحة تحت قدميه.

في تلك اللحظة، لم يَرَ نفسه سوى طائرٍ منكسر الجناح، العقاب الجارحة تحوم فوق رأسه دون أن يستطيع تفادي خطرهما، دون أن يستطيع فعل شيء ما حيال سوء طالعها، كان قد أدلّ نفسه، ولا حيلة تُرجى دفع غيظ قادم. كل ما في وسعه فعله؛ أن يتوارى داخل نفسه، أن يتوارى خلف الفزع، أن يدفن رأسه تحت الرمل كالنعامة التي لا تود مواجه مصيرها.

كنتُ قد تحسستُ انكساره، التمسستُ توسله بنظرات عينية، في الحقيقة كان يستجدي الرحمة من الله، مني، من القاضي، من الحيطان. يتأمل أن تصفع الرحمة ضميري لأنتشله من واقعه المزري، الأجواء مغبرة من حوله، لا يستطيع تحديد اتجاهه، وهو يضح بأنفاس مختنقة خلف أمل مغشي بالغسق. وجدته في تلك الدوامة، يتأمل أن أزيح عن كاهله هموم الزمن، هكذا سلم أمره لله وللقاضي وللساني.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) صدق الله العظيم.

4- لحظة الشهادة

وما أن نادى المنادي على أسمى حتى دخلت قاعة المحكمة والرهبة تملكني، داعياً الله أن ييسر أمري.

عندها صوت القاضي قطع عليّ تأملي:...

- اسمك؟
 - عصام فاضل محمد.
 - عمرك؟
 - ستة وثلاثون عاماً، سيدي.
- طلب القاضي أن أضع يدي على كتاب الله لأحنف باليمين، ثم قال بلهجة صارمة:

- ردد خلفي: أقسم بالله العلي العظيم أن أشهد بالحق.
- أقسم بالله العلي العظيم أن أشهد بالحق.

ثم قال:.....

- يا سيد عصام، أنه سؤال واحد فقط، وأريدك أن تجيب عليه بكل صدق.
- حاضر، سيدي.
- هل فعلاً المتهم حسن، كما هو مدون أمامي، قد تهجم على السيد الرئيس صدام حسين حفظه الله بالقذف والشتم أمامك؟

رفعت بصري بثبات، واستحضرت ضميري، ثم أجبت:

- أشهد بالله العظيم بأن الأستاذ حسن...

قاطعني القاضي بغضب:

- هو الآن متهم، وليس أستاذًا. هل فهمت؟

- - نعم، سيدي.

ثم أكملت بثقة:

- أشهد بالله العظيم بأن المتهم حسن لم يسب السيد

الرئيس صدام حسين حفظه الله، ولم يذكره بسوء أبدًا.

وإذا بحسن يقطع سكون القاعة بصوته المرتجف، كمن لم يسمع ما نطقت به، وكأنَّ غشاوة الحنق غطت على سمعه وبصره. صاح وهو يشير إليَّ بسبابته المرتجفة:

- سيدي، هذا واحدٌ منهم! هذا واحد من المتآمرين علي!

ساد القاعة همس مكتوم، أما أنا تمسكت بالصمت، لم أنبس بشفة، بل رمقته بنظرةٍ حملت أسفي على الدنيا التي أوصلته لحالة اليأس. الحنق الذي استبدَّ بعقله شوّه تفكيره ونواياه.

أدركت حينها كم هو كان يحتضر في داخله، حيث ذاب في تأويلات مغلوطّة أودت به إلى حدٍّ لم يفقه أنني أنقذته للتو من قبضة التهمة. عندها رأيته بعين القلب، لا بعين الخصومة: وجدته بصير، أصمّ، أبكم، لا يفقه ما يجري حوله.

عندها التفت القاضي إليه، وكان وقع كلماته يحمل مزيجًا من الغضب والشفقة، وقال له بنبرةٍ فيها شيء من التأنيب:

- يا هذا! ألا تدرك ما قال الشاهد؟ لقد برأك من التهمة،
أنقذك من العقاب.

ثم عاد بنظره إليّ، خفت حدّة وجهه، وكان اعترافاً ضمناً
بالعرفان سكن ملامحه:

- شكرًا لك يا بُني. مهمتك انتهت. تفضل بالخروج.

وأشار بيده نحو باب القاعة.

أطرقت برأسي امتثالاً، وسرت نحو الباب بخطى واثقة، لا
فيها رهبة ولا وجع خفي. لم أكن أعلم وأنا أغادر القاعة إن
كنت قد قدمت شهادة، أم ودّعتُ بين يدي القاضي ما تبقى من
معنى للثقة بين البشر.

عندها هجست بأن القاضي ود أن يفتك من المصيبة، كما لو
أن جمرةً تلتهبُ تحت مقعده. كانت شهادتي له طوق نجاة
تطلّع إليها بلهفة، فارتخت اساريره وتنفس الصعداء، كمن
أعتق من قفص تهمة ظلّ يرزح فيه ظمًا، كنت قد جردته من
الغلطة التي كادت أن تودي به إلى الشرك والجريمة.

لقد تحسست مشاعره. رغم موقعه، فهو إنسان له قلب يخفق
بالقلق والرجاء، ورغبة خفية بالعدل تُكبلها نصوص صارمة
وقوانين تتواطأ أحياناً مع الباطل، مهمته الحقيقية تميز الحق
عن الباطل، لا أن يفاضل بين آراء المواطنين في شخصية
الحاكم. لقد كان يدرك عبثية التهمة، لكنه مقيدا بسلطة لا
تسمح له تجاوز حروف التقرير، مهما كان جليلاً.

ما أحرزني حينذاك، أنني لم أُمْنَح الفرصة لبسط الحقائق التي أعددت نفسي لإيضاحها أمامه، خاصة ما تعلق بتحريض "غراب البين" لي، والعقد التي دسها بيننا. القاضي كان كسد منيع أمامي، لم يمنحني فرصة الاسترسال، حجب عني سعيي، منعني من الإفصاح عن تفاصيل كانت تبين جوهر القضية، فصادر بذلك ما كنت قد صغته بعناية في أعماقي من كلمات منمقة.

كأنه لمح كيدية القضية، فأراد أن ينأى بنفسه بعيدا عن اشكالاتها، أما ما تبقى من شوائب، فاعتبرها قضية ثانية لا شأن له بها. بدا كمن يسعى للتنصل من فخ خبت داود صنعه، وقد أدرك تمامًا أنه لا مهرب له إلا أن أنفي بذاتي التهمة وأنقذ الجميع.

القضاء في جوهره، تجلٍ للعدالة، وتطبيق لقواعد الشريعة الإسلامية، وإيمانٌ عميقٌ بكتاب الله. لطالما أقسم على ذلك حين تخرّج من دار القضاء، أن يُحقّق الحق ويُرسّخ العدل، وأن لا يُظلم في قضائه أحد، فعذاب الضمير ثقیل جدا، لن يحتمل جلده وآثاره أن أخفق.. لذا بطني ود أن يتجنب حالة الالتباس الحاصلة والسم المدسوس في الكأس، فالحكم على أنسان بالموت لإرضاء حاكم، هو قمة الاسفاف والتفاهة، وهو يدرك بأنّ المتهم بريء وأن كان قد تجاوز على الرئيس بالسب، نتيجة ظرف البلد البائس، حيث قسوة كتم الأفواه هيّ أقسى من الجوع والحرمان، قسوة ما بعدها من قسوة، وذنب لن يغتفر له يوم الحساب..

لا يستوجب أن يقتل الإنسان لأسباب تافهة، "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"، وفي موضع آخر
يقول سبحانه تعالى "أنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم".
أيمن التجاوز على الخليفة والذات التي هي أحسن تقويم لتلك
الأسباب التافهة؟.

المسبة إن وجدت؛ أنما أوجدها الحاكم لنفسه بسبب تبدل
أوضاع الوطن، فهي تتبع الجور الحاصل في الواقع
المفروض على المواطن، فالخطأ لا يصلح بالخطأ، وإذا ما
أقر القاضي جور الحكم في نفسه، أنما يكون قد خالف شرع
الله، سيجعل نفسه تعيسة حظ بقية حياته. الرسول محمد صلى
الله عليه وسلم كان يعفو على من يتجاوز عليه.

بعد أن أدليتُ بشهادتي، التمسْتُ في نفسي اعتزازاً عميقاً،
كأنني رفعتُ عن قلبي حملاً ثقيلاً من الهم. برأتُ ذمتي أمام
الله، ثم القاضي، ثم المتهم، وتركتُ للتاريخ ما سمعته أذناه
المصكوكة بالحنق من صدق كلماتي. حينها انسابَ في جسدي
شعورٌ نقي، كالذي شف جلده من القيض بدلو ماء بارد. بعد
أن جردته من العقاب الأكيد، شعرتُ بالراحة تتسللُ إلى
ضميري، وكأن البال قد خُلي من الأمراض والعُقد.

يا لروعة أن يكون القلب كورقة بيضاء خالٍ من الشخايبط،
وأن تمرح الروح في بستان ضمير أخضر. أن تُصغي لزقزقة
العصافير وهي تهمس لك بالطبيعة الخلابة، وتستمتع بجمال
المنظر، بعبق الورود وخرير الماء... وأنت تعلم في قرارة
نفسك أنك قلت الحق، وأحسنْتَ الأمانة.

عدت إلى مكاني مشرق الوجه، خال من التوتر، وكأنني
طهرتُ روعي مما علق بها من ذنبٍ خامد. شعرت بخفةٍ لم
أعدها من قبل، كأني نجوت من طوق أعسر. لقد رفعت
ستار الشك عن بصيرة حسن، وأنرت ذهن القاضي بالحقيقة.
لن أغفر لنفسي لو تخاذلت ولم أمد يد العون لإنقاذ إنسان كان
في متناول نجاتي.

لا ألقى باللوم على أحد، فنحن جميعًا كنا ضحايا ما ورد في
تقرير "غراب البين": أنا، القاضي، جهاز الأمن، وكل من
تورط في هذه القضية. كان القاضي قد اكتفى بجوهر القضية
ليبرئ نفسه أمام الله، أراد أن يجد لنفسه مهرّبًا من نافذة الحق
بعد أن اضطر إلى دخول النفق. لقد أثر طي الملف برمته،
لينام قرير العين.

في تلك اللحظة، شعرت أن حاله لا يختلف عن حالي، فكأننا
تجرعنا مرارة السم. لقد كان واعيًا أمام الله سبحانه وتعالى...

"وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل"

وقال أيضًا: ...

"من قتل نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل
الناس جميعًا، ومن أحيّاها فكأنما أحيّا الناس جميعًا" صدق
الله العظيم.

فكلام الله سيفٌ مسلّط على رقاب المتقين. ولا شك أن
القاضي تقي، وقد نهل من معين الشريعة الكثير، وأكد هذه

الآيات مرّت عليه مرارًا. غير أنه كان مضطرًا لحمل عبء وظيفته، تلك التي أراد أن يكسوها ثوب العدل، لكنها جرّته إلى وادٍ من الذلّ لا يُرضيه على نفسه.

حين سطرّ داوود تقريره المشؤوم، لم يكتفِ بأن يورط أحدًا بعينه، بل لفّ الجميع في لفافة مكيدته، كمن رمى شبابه في البحر ليصطاد الأبرياء. ابتدأ بنفسه، ثم أدرجنا خلفه من ضابط الأمن، والسجّانين، والقضاة، ومؤسسة التربية والتعليم، وحسن ورفاق حسن وأسرته وذويه، وحتى أصدقائه وتلامذته ومدير المدرسة، بل والمجتمع بأسره. لقد جعل من القضية مادةً للغو يتداولها الناس في الشوارع والمقاهي. جمعنا جميعًا في خيش من الخبث، ثم قذف بنا في مجرى السنة الناس، ولم تغلق أبواب القضية إلا بشهادتي، التي كانت أشبه بسكين مرّق ذلك الخيش وأطلق سراح الجميع والحقيقة من بين أنيابه.

كنت أراهم جميعًا ضحايا، لا يقلّون عني ألمًا، ولا عن حسن ظلمًا. حتى داوود، الذي انزلت روحه في ممرات أناه وهاجسه، كان ضحية نفسه الأمانة بالسوء. تاه خلف نواياه، ضلّلت طريقه بانتمائيه الأعمى للحزب وتأمّله المناصب. لم يكن القسوة في تعاملهم مع حسن نتاج خبث، بل انعكاسًا لوظائف كلّفهم بأداء محدد، أولئك الموظفون اللذين ينتظرون رواتبهم نهاية كل الشهر، إنهم في نهاية المطاف أدوات داخل آلة ضخمة تهرس بهم..

كان من الواجب أن يُحاسب ذلك الإنسان، الذي بصق بوجوهنا، ترك تلك النقطة السوداء بثيابنا الناصعة. مع أننا

عشنا حياةً طبيعيةً ظاهرياً، ولكن في أعماقنا كانت الغصة تتقد كالجمرة، تلهب أحشاءنا، تنذرنا بعبثية القدر وبفضاعة التهمة التي لم نرتكبها، جعلنا نتبعه بمسارٍ ضحل من حيث لا نشعر.

لا أفهم كيف كان يغمض عينيه وينام قرير عين، بعد أن سلب منّا النوم والراحة؟ ذلك الذي جرد شريحةً كاملةً من الناس من راحتهم، كما لو أنه دسّ السم في فم الجمع بلحظة غفلة... لم نبرح أثر تلك الواقعة، ظلّت كالندبة السوداء في الذاكرة، عالقّة فينا كقوقعة منتنة تزكم أرواحنا قبل أنوفنا.

أنها جزء من العلاقات الانسيابية والإنسانية في المجتمع، كانت ترمي بثقلها النفسي على عاتقنا. طالما ذكر أسمى في المشهد، إذا لي يد في ذلك المجال، فلا دخان من دون نار، أنه عين الظلم الذي تكبلنا به.

ما إن عدت إلى غرفة الانتظار وجدته أمامي، لم يقوَ على الجلوس مكانه، وجدته واقفاً عند الباب ينتظر قدومي على أحر من الجمر، متأملاً أشفي غليله، متشوقاً سماع ما دار في التحقيق، راغباً تطابق شهادتي مع غايته. وجدته كمن فقد صوابه، يبحث بجنون عن مخرج من الخسة التي اقترفها. ورط نفسه في قضية لم يدرك تأثير ارتداداتها، فوضع ذاته في دائرة الاتهام بين المطرقة والسندان. ربما كان يرتعد من فكرة أن يستدعيه القاضي، وقد انكشف زيفه إلى الملام.

استقبلني بوجه مصفر نشف منه الدم، مستفسرا عن ما آلت
أليه شهادتي، أو بالأحرى عن نتيجة ما تقيّنت به قريحته من
سموم، والذي صار يلحق من ذات الكأس الذي سقانا منه.
استقبلني قائلا:.....

- ها... أبشر! كيف كانت شهادتك؟

وقبل أن أطلق رصاصة الرحمة من لساني، أطلقها حارس
بوابة المحكمة، ذلك الشاب الذي تبعني لاهثا لغاية غرفة
الانتظار بوجهه المبتسم، ليبشرني بقرار القاضي قائلا:.....

- يا أخي؛ أبشرك؛ صاحبك طلع براءة...

- الحمد لله يا رب، شكرا لك يا طيب (حضنته وقبلته
شاكرا سعيه).

ما أن فهم القصد، حتى خرّ في مكانه كجبل الثلج أقحمته
شمس الإدراك. ذبل، استكان في مكانه، جثم على كرسيه
متجهم الوجه، كمصباح أصابه العطب، لم يحتمل طاقة
البشارة فانطفأ بغتة.

حينذاك التمسّث الفارق بينه وبين الحارس الذي لم يحتمل
وطأة الظلم، الذي أسرع نحو ي بوجهه المشرق، يعتمر قسماته
الفرح بنجاة حسن من الموت. ذلك الغريب أنصف ضميره في
الوقت الذي به أسخم وجه غراب البين...

ما عادت بين يديه أوراق بيضاء يشخبط بها، اسودّت كل
أوراقه بسواد ضميره. صار يتمتم بكلماتٍ لم أميزها، كمن

سبّ القدر وسبني في سرّه، لاعنا حظه العاثر وتقديره
الخاطئ الذي أوقعه في شرك خبثه.. ما أن علم بشهادتي،
حتى شف فاهه وانحنى رأسه كجذع لم يحتمل ثقل الخزي.
خسر رهانه، وأختفى ظله، أسقيته مرارة العلقم من ذات
الكأس التي جرّعنا منها. جرّده من قوام الإنسانية، حتى
غدت رائحته الفاسدة تسبقه إلى الأمكنة التي يبتغيها.

5- مقياس حسن

بعد أن تسلّقت شمسُ الحقِّ سُلّمَ الأفق، أحرقت أوراقَ الزيف، فتصاعد دُخانها كشهادةٍ لا تخفى على أحد، وغدت الحقيقة جليّة كالبدر، تفضّح ما خفي منها... أما أنا، ما إن خطّت يدي توقيعي على أقوالي في سجل التحقيق، حتى غادرتُ غرفة الانتظار دون أن أدقق بما دون فيها. لكنني كنتُ أعلم دون شك ببراءة حسن، مثلما أخبرني حارس غرفة التحقيق بيقين صريح.

عندها سألت المسؤول عن التحقيق إن كنتُ قد أنهيتُ مهمتي وإن كان باستطاعتي العودة للبيت فأذن لي بذلك، حينها أخذت بعضي وخرجت منزويا تحت ظل الأمان والسلام عائدا دون أن أودع غراب البين، ذاك الذي تركته ينعب في زنزائنه النفسية، يتلظى بنار بغضه، حائقا على وعلى ذاته المريضة.

ما أن عبرتُ عتبة المكان، حتى بثّ أتففس ظلّ الأمان، أسير نحو البيت خفيف الخطى، كأني تحررتُ من قيد سجنٍ غير مرئي. تركته منشغلا بخيئته، يندب سوء طالعهِ، ويضمد جراحاته التي لا تندمل. تركته مهموما بسواد فعله وجهم وجهه، يعالج أمر الدمامل التي باتت تتفجر في وجهه.. ما أنفك الفكر بقيّ منشغلا بما طرأ في قاعة المحكمة في حينه بما يخص مشاعر حسن..

يا ترى... ماذا دار في خلدّه حين سمع شهادتي؟ حتما دخل ضميره في صراعٍ مع الذات العنيدة والوعي المستيقظ؟ لعل صمته لم يكن مجرد حيرة، بل كان أول تمرد على السرديات التي تشكل بها وعيه عبر سنتين من العناء والوحدة. تلك الثواني القليلة التي تبعت كلماتي؛ كانت أشبه بارتجاجات داخلية هزته، هدّت أسيجة ظنه، عاكست الحقيقة بعد أن فتحت له نوافذ الأمل.

في لحظات التبصر، لا يحتاج الإنسان إلى وعظ أو صراخ، بل إلى صدع بسيط في جدار النفس، ليتسلل من خلاله شعاع الحقيقة. حينها لا يعود السؤال لماذا خالفت داود بشهادتي؟ بل ما علاقتي الحقيقة بالتهمة.

أنا واثق من أن الحقيقة تسربت إلى فكره الأصم كالماء، حتى لأن وتجدد جلده. أراحته عنه غشاوة اليأس والضجيج، ليستكين في راحة الصمت. مع سكونه تساقطت أغبرة الوهم من لوحته، تبدلت الرؤيا، لا لأن العالم تبدّل حكمه؛ بل لأن الظلام انقشع من داخله. ربما لأول مرة هجس بنور الحقيقة تنعكس على وجهه.. وأن الرحمة تدلت من السماء بتوافق ظني وشهادتي.

حتما شريط القضية مرّ على ناظريه من جديد، ليحذف منه المشاهدات والتكهنات الغبية.. أكيد تغيرت حساباته، وأن الرؤية باتت أوضح من السابق. حتما أعاد ترتيب مراكز الإدراك في عقله، تبددت غمامة الأحكام السابقة التي طالما ألبسني التهمة بها. صار يرى بانوراما الحدث بوضوح، أدرك

أن الشك ليس سوى مرحلة عابرة إلى طريق اليقين. اتسعت مجالات الرؤيا لديه، فلم يعد ينظر بعين واحدة، بل بأفق متعدد الزوايا. بات يرى ما لا يُرى، ويشعر ما لا يُشعر ويقال. وما كان غامضًا صار واضحًا تحت ضوء وعيه المتقدم.

أكد بات أكثر اتزانًا، يخطو على أرض صلبة. لقد انجلت ملامح الفوضى، ارتسمت حدود القيم بوضوح: صار يميز النبيل عن الخسيس، والصادق عن الزائف، والعفة عن الابتذال. ولم يعد يتيه في ضبابية المفاهيم، بل أصبح فكره مصقولًا، يزن الأمور بعقله لا بأهوائه وتحسسه، يقرأ العالم بنور بصيرته لا بانعكاسات ظلاله.

قطعا تغيرت مراكز القوى في تفكيره، حتما انقشعت غمامة السخط التي كان يكيلها لنا حسب تصوراته السابقة. أكد صار يمشي بأكثر من ساق ليصل مرامه بعد أن عُبدَ الطريق، لم تعد تعشي عيونه ضبابية الأفكار...

أكد بعد جلسة المحاكمة التقطت كاميرات وعيه صورًا كانت مدفونة في زوايا النكران، مشاهد عبثية لعناصر ظنها يقينًا. صار يتأمل "زجلية الألوان" التي طالما تجاهلها، يقرأها سطرًا بعد آخر، ليس بعين العابر، بل بعين التجربة، علم كيف تتخفى الدلالات خلف الأقنعة. بدأ يراجع حساباته، يعيد تموضع القيم في سلّمه الداخلي، ليفرز الخيط الأبيض عن الأسود، ويضع كل لبنة في مكانها الصحيح.

لم يتذوق حلاوة الإنصاف إلا بعدما نبهه القاضي بحقيقة شهادتي، حين كشف له أنني من أزاح عن وجهه ستار التهمة، لا لأبرئه فحسب، بل لأوقظه من سبات الظنون. حينها وقف مبهوراً، تلاشت الكلمات من شفتيه، تحدّق عيناه بي وكأنها تكتشف وجهي من جديد. كنت قد نقلت له رسالة تستحق أن تُقرأ. عندها تبعثرت حساباته القديمة، سقطت كل تنبؤاته القديمة كتماثيل رمل. نظر نحوي نظرة مشبعة بالدهشة والامتنان، نظرة من أدرك كم كان أصمّاً، رغم أن الصوت كان يدور في فلكه ينتظر أن يلتقطه.

عندها ارتسمت على وجهه علامات استغراب، خرشت وجومه، مع ابتسامة خرجت من حشاشة قلبه، سحبت معاناته من أحشائه. كانت شهادتي ولادة جديدة له، بعد أن شعر بلذة الحياة، لذة لم يذقها من سنتين، عاد الدم يتدفق في وجنتيه التي أبيضت من السقم.

أخيراً شعر بالراحة تسري بعروقه، حيث تنفس الصعداء دون وجل. ربما بشهادتي صفعته على وجهه، لينتبه على انحراف أفكاره، وعن الدسائس والشكوك المتربصة به، جعلته يميز بين ألوان الطيف التي امتزجت في خاطره وأغشت بصيرته.

أخيراً توقفت المعاناة على حد الصرخة المكبوتة في داخله، وكان نسمة من رحمة إلهية عبرت فوق حطام الروح فأنعشتها بالحياة.

غير أن الجرح لم يندمل، فالزمن لا يعود إلى الوراء، ولا تعود الأرواح إلى بهجتها الأولى بعد ذلك العصف الكبير. منذ يوم الاعتقال، لم يعد كما كان، ولن يعود كما كان. ترى ماذا عن التعذيب الذي لاح الجسد؟ ماذا عن الكرامة التي انتهكت؟ من يعيد له إصلاح الشأن، مَنْ يعيد ترميم جدران القيافة التي هُدمت؟ من يملك القدرة على جمع شظايا زجاج مكسور لأصله؟ كيف يرتقي عالم الوجود مرة أخرى بذات الوجود؟ لقد خسر الكثير والكثير حتى يبس عوده، تبدت طاقته، المسألة شائكة، تحتاج لمعجزة لينسى ذاته ويبنى كيانه من جديد. سنتان من التآكل البطيء قضاها في دهاليز السجون بعيدا عن أسرته. تحولت الزنازين لمأوى، والجدران لشهود على تفتّت القيم والجسد، وتلك الكرامة التي نُزعت عنها الأظافر.

الرحلة طويلة، والمهمة أشد تعقيدًا من مجرد شفاء. إنها إعادة خلق الكيان من رماد الذات، من ترسبات الخوف، ومن خطوط الزمن التي بهتت. يحتاج إلى إعادة ترميم الذات إلى حياة، إلى ترويض الألم ليتقبل فترة غيابه القاسي إلى ما كان مألوفًا.

سيحتاج إلى عقلٍ جديد دون شوائب، يحتاج لمرونة توافق قدميه المتخشبتان على الحركة، بعد أن تعود جلسة القرفصاء في زنزانة باردة، لا يعرف الليل فيها من النهار. وليتخطى عقبات الزمن القادم.. ورغم كل هذا، فإن في كل غروب فرصة لبزوغ. وفي كل ندبة على جسده دليل على نجاته. ما خسره كثير، نعم، لكن ما بقي منه قد يكون النواة لبعثٍ أعظم.

أخيرا حلت الرحمة الإلهية وتوقف النزف..... ولكن من المستحيل أن ترجع الأمور إلى ما كانت عليه قبل يوم 1992\06\03...

من ذا الذي يعوّضه عن دفء الشمس، وهدوء المساء، ونقاء النسيم بين أحضان أسرته؟ من سيمحو من ذاكرته روااسب القلق وآثار السياط، ووحشة الخوف المتجذرة في روحه؟ من يردّ إليه ضحكات أطفاله اللذين كبروا بعيدًا عن عينيه؟ ومن يعيد له تلك القبل الدافئة التي أفقدها من شفاه زوجته؟ من يعوّضه ليالي الود الملاح؟ ، من يمسح كل هذا الغياب؟ من؟

بعد تلك المعاناة الطويلة لن يُشفى غليله إلا الانتقام، لم يبق ما يشفي القلب الا أن يكيل لغريمه بما كال له. لن تُخبى نارُ الألم، ولا تُمحي الندب عن الجسد والروح حتى يفنى العمر. وفق تلك المقاييس ترى؛ كيف سيواجه غريمه بعد أن طويّ قرطاس القضية؟ كيف سيتعامل معه؟ بعد تلك الخسارات التي نالها، سوف لن يجد في ساحة الحياة جوابًا لتساؤلاته. الحياة خيّبت ظنّه، إلا إذا شدّ عن قواعدها، وأعاد رسم معانيه بأسلوبٍ لم يعهده محيطه. عامان من الظلم المضني، جرّعته الحياة خلالها كأس السمّ حتى اعتاد مرارته... يبست شفاهه التي افتقدت خاصية الابتسام، لقد تعود في زنزانته على شكل الوجوم والبؤس، ما عاد يستسيغ لمعة الفرح والفتنة.

تغير مزاجه، تعكر صفوه، افتقد حلة البهجة، أصبحت حياته صرة مليئة بالعقد بعد أن صداً فكره في ظل شتائه القارص طوال سنتين من المزار، تحولت نغمة الطيبة التي كان يتقنها

إلى جذاذ يقرح المحيطين به، تحولت أحلامه الوردية لفقاعات صمت، باتت الروح تتسامى مع الريح بمجرد أن تلامس ظنه وطفة شك. اختلطت عليه الأبجديات، أضحى لا يميز بين الجيد والسيء من البشر، لا يفرق بين الناعم والخشن من القدر، صار ينظر إلى الجميع بذات المقياس.

تبدلت ظنونه وأفكاره ومعاني الأسماء عنده، تغيرت في ذهنه المفاهيم والقيم، تحولت العلاقات في حياته من طبيعية سلسة إلى رسمية معقدة؛ حتى تلك العلاقات التي تربطه بالعائلة أختلف لونها وطابعها، أضحت شيء من المساء الذابل، تنقصها الحيوية والحركة والبهجة، يركبها الخمول والبرود. كل تلك الرموز التي ذكرناها قد تغيرت ألوانها وصفاتها ومعانيها عن أصلها، ترى.... من سيعيدها لطبيعتها ورونقها؟ من سيعوضه تلك الخسائر الجسيمة؟ من سيعيده لسابق عهده في نظر المجتمع؟

لقد تسامت في نظره الأشياء، لذا حين شهدت في قاعة المحكمة ببراءته، لم تطرق مسامعه كلماتي، لم يميز بين شهادتي وشهادة داود، تهجس به أصم بيننا، لذا صار يردد:...

- هذا واحد منهم هذا واحد من المتأمرين!!

وحين التمس الشهادة من فم القاضي تفاجأ، بدت الصدمة على وجهه جلية؛ صُعق، تجمّد في مكانه، بهت لونه، وتاهت الكلمات عن لسانه. لم يصدق ما آلت إليه الأمور، كأنّ الأرض زلزلت تحت قدميه.

وبعد مضي خمسة عشر يوماً من نهاية المحاكمة، أُفرج عن حسن، وأُعيد إلى وظيفته ومدرسته الأصلية مكرّماً، مرفوع الرأس. عاد إلى مهنته رغم ما اعتراه من انكسار داخلي ومهانة ثقيلة، حاملاً هموماً كالجبل. شرع في ترميم ذاته المتصدعة، ولمّ شتات أسرته التي أنهكها الغل والجوع والخذلان. عاد ليرفع عمود البيت الذي مال عن أساسه، ليقمه على حجر الصبر والعزيمة، ذاك الذي بُني عليه وجوده منذ البدء.

بعد عودته إلى الحياة، أثر الانزواء في بيته، كأنما في عزلته ود شفاء جراحه الخفية. راح يكشف ثقل الوجوم الذي التصق بروحه وجسده، يغسل الأرق اللابد في دمه، راح يترنح تحت اشعة الشمس، لتعيد لجلده المتخشب نظارته، ليونته ورونقه. لم يكن مجرد استشفاء جسدي، بل محاولة لأن يرمم ذاته، ويستجمع ما تبقى من رزانة ليواجه العالم بصيغة أكثر تماسكاً وثباتاً.

وخلال تلك الأيام التي تجمد فيها زمن حسن، كان داوود قد تسلق بصمت سلالم الوظيفة، حيث بلغ منصب مدير متوسطة خانقين خلفاً للأستاذ محمد. المفارقة أن هذه المدرسة هي نفسها التي كان حسن يدرّس فيها اللغة العربية؛ كأنما لعب الزمن لعبته، فغيّر المواقع بينما ظل الماضي يلقي بظلاله على الحاضر. يا ترى كيف سيرحب داوود بعودة حسن للتدريس؟؟

ما إن انقشعت غيوم الظلم عن صدر حسن، حتى غط داوود في سبات عن المشهد، غاب داود في ديجور عجزه، متوارياً عن الأنظار في زوايا قريته التي لا تعرف ضجيج المدن ولا صخب المواجهات. انطوى على نفسه كظلٍ هاربٍ من شمس الحقيقة، شهرين كاملين من الصمت والعزلة يتوسل بمديرية تربية ديالى لنقله لمدرسة أخرى خوفاً من انتقام حسن منه، كأن الأرض ضاقت به بما رحبت بحسن.

لم يكن انسحابه مجرد غيابٍ عن موقع إداري، بل كان انهياراً داخلياً أمام مرايا الذات، حين تتكسر فيها صورة الإنسان الذي خان رفيقه. نظرات المعلمين والمعلمات، همس الأروقة، صمت الجدران... كلها أشارت إليه بإصبع الاتهام دون أن تنطق. وها هي الآية تُتلى على لسان العدل: "وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا".

أنتهت

عباس مدحت البياتي

النهاية

مجموعة الروايات:-

- 1- عطر خلف الستار
- 2- فتاة الكاظمية
- 3- جنوح النفس
- 4- عبير
- 5- شذرة العقد
- 6- طريق الجحيم
- 7- غراب البين
- 8- عقاب الذات
- 9- الاقداح المتكسرة
- 10- عواصف الجنين
- 11- فواصل الشوق
- 12- حين اتقدت الرأفة
- 13- الرؤيا

للكتاب عشرات الكتب بين رواية
ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرسنال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني



أنا واثق من أن الحقيقة تسربت إلى فكره الأصم كالماء، حتى لان وتجدد. أزاحت عنه اليأس والضجيج، ليستكين في صمت. مع سكونه تساقطت أغبرة الوهم من لوحته، تغيرت الرؤيا، لا لأن العالم تبدّل حكمه؛ بل لأن الظلام من داخله انقشع. ربما لأول مرة هجس بنور الحقيقة لا يخيفه... وأن الرحمة لا تهبط من السماء فحسب، بل تنبع من اليقظة. حتما شريط القضية مرّ على ناظريه من جديد، ليحذف منه تكهناته الغبية.. أكيد تغيرت حساباته، وأن الرؤية باتت أوضح من السابق. حتما أعاد ترتيب مراكز الإدراك في عقله، تبذرت غمامة الأحكام السابقة التي طالما ألبسني إياها. صار يرى بانوراما الحدث بوضوح، أدرك أن الشك ليس سوى مرحلة عابرة في طريق اليقين. اتسعت مجالات الرؤيا لديه، فلم يعد ينظر بعين واحدة، بل بأفق متعدد الزوايا. يرى فيه ما لا يرى، ويشعر بما لا يُقال. وما كان غامضاً أصبح الآن وامضاً تحت ضوء وعيه المتقدم.